مفكرة

د. يوسف إدريس



عن عمد أسمع تسمع

مفكرة دكتور يوسف إدريس

عَنْ عمدٍ اسمع تسمع

مكتبة غريب

من طفل فى الخمسين

عمـــرى ما احتفلت أو حفلت بعيد ميلادى · كنت أعرف وقته دائما ١٩ مايو ، ولكنى فى أحيان كثيرة ومن فرط عدم اهتمـــامى ، كنت فى أحيان انساه تماما ولا اتذكره الا على كلمة تهنئة من صديق أو بوكيه ورد من صديقه ، وكنت كثيرا ما اتشاجر مع صديقى الكبير فنان الحياة الاعظم كامل الشناوى على ذلك الاكتئاب والتشــاؤم الغريب الذى يقابل به يوم ميلاده حين يقترب ، وحين « فعلها » مرة وكتب فى حالة كتلك قصيدته المشهورة « جئت يا يوم مولدى ·· جئت يا أيهــــا الشقى » الى أن يقـــول « ليتك يوما بلا غـد » أى ليت الحياة تنتهى بك ولا تبـــــدأ · تشــــاجرت معه ، لا لما حفلت بـــه القصيدة من تشاؤم مهول ولا لانه زاد الطين بلة فأعطاها للمطرب العاطفى الكبير الحــــافل صوته بالحزن وكأنه يحيــــل الموسيقى والكلمات ليس الى شعر مهموس ولكن الى خيط دمع طويل مدرار ، لم اتخانق مع كامل الشناوى لهذا وانما كنت اتخانق معه لاهتمامه هذا الاهتمام الكبير بيوم ميلاده حتى لو كان ذلك الاهتمام الحزين المتشائم الموتور ، بل اخانق فيه هذا التناقض الغريب ، ذلك الرجل الذى يعشق الحياة الى حد الوله والعبادة حتى ليضن على نفســه أن ينام وينقص كوبه الليلى الذى يتجرعه بمتعة زائدة قطرة ، ذلك الموله بالحياة كيف يلعن اليوم الذى أصـبح فيه ذلك الكائن الحى ، اليوم الذى وجد فيه على ظهر أرض كان يرتعب رعبــــا دونه رعب الاطفال من مغادرتها ·

ولا أنكر بماذا كان يجيبنى ولكن ما اذكره أنه لا يرد أبـدا بشىء مقنع أو يستطيع اقنـاعى ، ذلك لأن ما كان يعتـريه كان احساسا ، مجرد احساس لا منطق فيـه أو له ٠ ولم يكن وحـده صاحب احساس كهذا ، معظم الناس بل أكاد أقول كل الناس تنتابهم حالة غريبة من الامر كلما اقترب يوم مولدهم أو ليلة رأس السنة ، مثلا ، وأبدا ليس حزنا على عام أنقضى أو تخوفا من عام سيجىء ٠ ربما السبب الاعمق هو أن هناك زمانين لكل منا ، ذلك الزمن العام الذى تسير على وقعه أحداث العالم وأحداث اليوم والذى من أجله نحمل الساعات ونحرص على ضبطها (وان كنا حقـا فى منطقتنا العربية نحرص على وجاهتها) ٠ ذلك الزمن العام هو العداد العام الذى مادام يعد السنين والايام للنـاس كلها علنا وأمام بعضـهم البعض وفى ونس من بعضـهم البعض وفى أحساس شـامل أن الساعة اذا مضت فهى ساعة موزعة على أربعـة آلاف مليـون من البشر وأن العام كذلك موزع علينا جميعا بالقسطاس بحيث لا ينال الواحد فينا من العام بأكمله أذا مضى الا فتفوتة احسـاس ، مجرد همسة زمن ٠ وهناك ـ وهذا هو الاهم ـ ذلك الزمن الخاص ، عدادك الخاص أنت ، الذى صحيح كثيرا ما (تفكر) فيه ولكنـك نادرا تماما ما (تنظر) فيه ، فأنت حين تنظر فيه من المحتم عليـك أن توغل بنظراتك الى أعمق أعمـاقك ، الى حبـك الخفى الغويط ، ودائما ما تدرك وتتيقن أن الجزء الذى يغوص منـك فى بئر الزمن المطلق ، العدم ، قد ازداد ، وأن جزءك الباقى فوق سطح الحيـاة قد نقص والنقص غير موزع على أربعـة آلاف مليون بشرى بل ولا على أربعة حتى ، النقص منك أنت ويخصك كله ، ولهـذا يرتدع البعض وعنـد عمـر معين يتجنبـون النظر تماما الى ساعاتهم أو زمنهم الخـاص ، الا أن يرغمهـم قـدوم رأس العام مرة أو حلول عيد الميلاد مرة بالقوة الغاشـمة ، يلوى أعناقهم لتنظر الى الداخل الى الغاطس والطافى من وجودهم ، الى ما ذهب وما تبقى أو مفروض أن يتبقى ٠ هذه الساعة التى لا ننظر فيها الا كل عـام مرة ، أو بالضبط هذه النظرة السنوية هى التى كنت أتحاشـاها دائما ، ذلك أن حساباتى فى مسألة العمر مختلفة قليلا عن حسابات معظم الناس ، فأنا أحسب السنين بحسب ما حققته وليس بعـدد

ما عشته وانزعج من فكرة العمر أيضا لا بمقياسـها الزمنى ولكن بمقياسها التحقيقى ، وهكذا كنت لا أحفل أبدا بالسنين فى شبابى وصباى ، ذلك أنى كنت أنظر الى الاهداف ، وكان العمر يبدو طويلا وممتدا بالقياس الى الأهداف التى كأنت تبدوا كعناقيـد العنب فى متناول الوثبة • بل أذكر أنى وأنا فى السادسة عشرة والسـابعة عشرة كنت استعجل الزمن ، كنت أحلم فى منسـامى ويقظتى أننى أصل بالواحدة والعشرين ، ويا سلام فمنتهى سعادتى أن أجد نفسى فجأة فى السادسة والثلاثين ، أما الأثنان والاربعين فقد كان لهـا فى نفسى سحرها الغامر الذى لا يقاوم • كنت الهو بلعبة الايام كما يلهو الطفل بألاعيبه ، اذ موقفى الجدى كان مع الاهداف ، التى كان معظمها ليس خاصا ، وبالتأكيد ليست أحـلاما أو أعمـالا أحققها ككاتب • مصر الغنية المثقفة المصنعة والعرب وقـد أحالوا بترولهم حضارة كالاسلام • والاشتراكية فى العالم وقد سادتها الديمقراطية تماما والديمقراطية فى الدنيا وقد سادتها الاشتراكية ومن مجاميع الحضارات التى تنمو مع العالم النامى يصبح الكون مائة زهرة فعلا قد تفتحت وسخرت لخدمة وامتاع انسان هذا العصر الـذى أحيا فيـه ، لعب عيال ، كنت أظنها سنوات • أقصى ما أعطيه لها عشرين عاما يحدث فيها هذا كله بحيث حين أكون فى الخمسـين أبدأ أعيش اذ أعيش فى أجازة أتعـلم فيها الموسيقى واعزفها ـ ذلك كان حلم حيـاتى ـ وأشتغل بعض الوقت وبمزاجى جراحا •

أما أهم ما أوجه له جهدى فهو دراسة الطبيعة النـووية التى كان حلم صباى أن أدرسها • وبالمرة أكتب ، الى بشرية ذهب عنها الظلم ولم تعد فيها الكتابة أنات من السخرة الحديثـة ولا شكايات من القهر • ليست كتابة مرضى يحاولون عـلاج زملاء مرضى هـم الاخرون ، ولكن كتابة أصحاء لقوم أصحاء انتهت شكاواهم وانتهى الادب كوسيلة لايصال رسالة سياسية أو اجتمـاعية وانفتح على الروح البشرية مباشرة يستكشفها ويضيئها ويرويها • كتابة ما بعد اختفاء الجـوع والمرض والظلم والحـرب والجريمة •• والاف الاسطر والكلمات يمكن أن أسوقها عما كنت أحلم به ومتأكد تماما أنه سيتحقق أنذاك •

ولكن • هأنذا أفاجأ أن اليوم هو ١٩ مايو وأن عمرى أصبح فعلا خمسينا • وأن مسائل قياس العمر بالاهـــداف قد استغرقتنى تماما ، قليل تحقق هذا صحيح ولكن كثيرا قد تحقق لى أســوأ •• وزمان ونحن أطفال حين كانوا يقولون عن فلان : ياه •• دا راجل عمره خمسين سنة يا شيخ ، كنا نضـعه نحن الاطفال تحت بنـــد (الكهنة) البشرية ، فخمسون عاما كانت كمية كبيرة جدا من السنين فى الماضى ، ذلك الماضى الذى كان يجرى يومه بهـــدوء ، وانسياب وراحــة بال ، وكأنك ممتطى (كارتة) ســـاعة العصـــارى على الكورنيش • الخمسون عاما اليوم تمضى فى ومضة ، فى ومضـة ملهوفة عصبية قلقة تقضيها مروعا من ألف اعتبار وكأنك تعـــبر ميدان التحرير عن غير طريق المشاه ومشدود من العربات القادمة التى تفاجئك من كل اتجاه ، وان كنت فى عربة خائف أن تقتل وان كنت من المشاة خائف أن تقتل ، وان كنت على دراجــة خائف من الماشى ومن الراكب ومن الاوتوبيس ومن كل شىء يتحــرك أمامك أو خلفك أو على جانبيك ، والخوف يطيل اللحظة ولكنه يقصر العمر ، وهكذا فى ومضة تستيقظ على الخمسين •

ولانها غريبة وراودتنى فيها عن الناس وعن الحيــاة وعن نفسى أفكار لم تخطر على قلبى وربمـــا على قلب بشر فقد غامرت وجعلتها البداية لعودتى للانتظام فى كتابة المفكرة أفكار منها مثلا فكـــرة أن النـــاس تكـــبر بالعكس أو على الأقـــل بعـض الناس ، فأنا من هؤلاء الذين قضوا طفولة جادة تماما لم يعرف المرح طريقه اليها رجل رهيب فى ثوب طفل ، كل ما أعتقد أنى أريده أحرمه على نفسى بل وأنظر له وكأنه خطيئة أرتكبها تجاه الاخرين • همى الاكبر كله أن أصنع مثلما يصنع الكبار لاكون كبيرا وأن لا تبــدو من طفولتى بارقة نزق واحــدة تشف عن (الولد الصغير) المرتدى جاكته أبيه أو معطفه ، فالطفولة كانت فى طفولتنا (عيبا) ، ولا تزال لغتنا حافلة ــ (ده شغل عيال) • وانت عيل • هو لعب عيـــال ؟ الطفولة واللعب ، الانطلاق وحق ارتكاب الخطأ ، المطالب والهدايا واللعب ، كل هذه كانت (تهما) نموت حنينا اليها فى أعماقنا ولكننا نموت خوفا أيضا أن نطلبها أو نصرح بها والا أصبحنا (عيـــالا)

وكأن كلمة (طفل أو عيل) مرادفة لكلمـــة (امرأة) حين تذكر على محمل التأنيث والاهانة ٠

وكان الصبا أيضا جادا اذ قام (الواجب) فيه محل معطف الرجل ٠ من طبقات مطحونة ، علينا أن نأخذ من المدينة كل علمها وكل وسائل تقدمها لنطفو فوق سطح الحياة ، ولا نطفو وحدنا ، وانمـا فى الغالب ينفق والد الواحد فينا فيكون عليـــه ، هو الكبير ، أن يصبح حاملا فوق كاهله ربما نصـــف دستة أو أكثر من الأخـوة والاخوات ، وبهذا يحكم عليه أن يعـــوم ويظل يطفو ٠٠ ضـاعت الطفولة فى أرهابنا أن نتصرف كالأطفال ٠

وضاع الصبا فى صعود الجبال الوعرة الى الطـريق الاكثر انسانية وراحة ٠

وجاء الشباب لندرك أن المشكلة ليست مشكلة كل منا بمفرده وانما هى مشكلة بلد ، بل منطقة ، بل عالم بأكمله علينا أن نغيره ، نحلم بتغييره ونحقـق الحـلم ونواجـــه حكومات تلو حكومات ، وعقوبات تلو عقوبا ت، وسجونا ومعتقلات ويضيع الشـــباب فى مقاومة الشر ومحاولة استنبات ما أمكن من خير ٠٠ ثم يطل عليك عامك الخمسون وهو يخرج لك لسانه ، فجيشك شرد معظمه وتشتت وجيلك كرش وأصلع وشاب ، وأمانيك أصبحت لا تصلح الا كعناوين لمواضيع انشائية أو شعار من شعارات تنظيمات الشباب الرسمية ٠



وليس ما ذكرته مرارة ولا ندما فقد كان لا يمكن أن يحدث الا ما حدث ، فاننا ومن أجل وفى سبيل هذا كله ، ومن الافعال وردود الافعال ، من الزق والدفع والجـذب ، من الامل والاحبـاط ، من جماع ذلك كلك وأنت تناضل موجـــة أعتى منك بكثير وأطول قامة ، وبحرا كالغول فاغرا فـاه ، من هذا كله صنعت دون أن تدرك ، (نتيجة) ٠ نتيجة حيـاة هى هذا الشىء الذى تجلس اليوم تتأمله

وتحس بكل ذرة منه حفنة من دمك ، وكل واقعة فيه كومة من لحمك وعمرك ، ولكنك أيضا تحس بروعـــة لان هذا كله كان اختيـــارك وباختيارك صرفا ، وانها حياة لم تفرض عليـــك ولكنك أنت الذى فرضت حياتك تلك على الحياة ..

بل المضحك الذى أكتشفه الان فقط أننى نجحت فى تربية نفسى حقا .. فاذا كانوا قـــد ربونا على أن نكون رجالا ونحـــن أطفال ومسئولون ونحن صبية وشهداء ونحن شباب ، أى نعكس وضـــع الامور جميعا ، ونستلب من كل فترة الممتع من محتواها ، فقـد كان على وعلى كثيرين مثلى أن يقوموا لانفسهم وبأنفسهم بالثورة التربوية ، تلك التى لا تقسم الانسان الى مراحل هرمية ينبذ أى منها بكل ما فيها من ألم أو متعة بعد انتهائها ولكن أن يعيش كل مراحل العمر معـــا وفى كل آن ، فى كل جـــزء من يومه يطـلق الطفل المحروم ، وفى لحظة تنبت له أحلام الصبا ، شـــابا ينزق ويتصرف اذا عن له أن يفعل ، شيخا فى السبعين أو الثمانين يتأمل ، مراهقا وكأنها اللحظة الأولى التى تنبت له فيها أول مجموعة من شـــعر الشوارب ، حكيما وكأنه وصـــل الى لحظة الاستغناء المطلق عن متع الدنيا كلها والحكم عليها وعلى نفسه وعلى الناس بموضوعية ، تكاد تقترب من موضوعية القديس .

وكان هذا ــ واليكم أعترف ــ أصعب جزء من المهمة ، مهمة أن تحيـــا ، ليس كما أريـــد لك ولكن كما اخترت أنت وكمـــا قررت ، فكأنها اللحظة التى عليـــك أن تخضع فيهـــا عالما بأكمله لمشيئتك البشرية المحدودة ، والنصر الحقيقى ، والحيـــاة الحقة ، والفوز الاعظم أن تفعلها ..

فهل استطعت ؟ هل أيكم استطاع ؟

هأنذا جالس الى مكتبى فى يوم عمرى ما خططت فيه حـــرفا فى حياتى ، ذلك العيد الميـــلاد الذى لا يأتى فى العمر الا مـــرة واحدة ، وليته يأتى ليقسمها انما هو يأتى ساخرا فى العادة مخرجا

لك لسانه ، مبتعثا فيــك أشد الشــك فى كل مــا فعلت وحققت وفى نفس اللحظة وكأنما ليغيظك أكثر مبتعثا فى نفســك أيضا كل ما تتوهم أنه كان معجزات ، وحققت ، ولكنه على الحالين ســاخرا وامعانا فى سخريته مشفق ..

ولكن ، هأنذا ، ولاول مــرة ، لا أجلس أمــامه كالمذنب الذى يتلقى التأنيب أو يحاول الدفاع ، هأنذا جالس وقد عرفت واليــوم فقط ، سر اللعبة ، لعبة الأيام ، اننا أبدا لا نحياها مراحل تنتهى لنقلب صفحاتها تماما ولا نعود نرجـــع اليها ، ولكن نحياها ، كل المراحل معا ، فلا خلاص لنا من متاعب المســئولية ، الا أن نحظى بوقت من اليوم نحياه أطفالا غــير مسئولين ، ولا خلاص لنـــا من الخمســـين الا بأن نحيا معه جنبـــا آلى جنب العشرين والعشرة والثلاثين ولا خلاص لنا من رعب النظر فى زمننا الخاص كل عام مرة الا بأن نتعود النظر اليه يوما بيوم بل وحتى ساعة بســاعة لنسرق نحن من زمننا زمنه ، نسرق خوفنا منه ، نحيل أرقامه الى الصفر الى ما لا نهــاية .

وهكذا أحس اليـــوم وقد قضيت الصـــباح العب مع ابنتى (٤ سنوات) انى زاولت فيها طفولة تساوى طفولة عام من أســعد الاعوام ، وهكذا أحس ، وأنا أكتب لكم هذا أيضا طفلا فى الخمسين لا يخوفه الزمن ولا الرقم ، لا يخوفه حتى كل ما ضـــاع وفات اذ ما ضـــاع شىء وفات الا أوجــد مكانه شيئا يستحق أن يبقى ولا يخفيه ما هو آت ، مهما كأن ما هو آت فهــاته هــات .. اذ هل سيكون أشد سوءا أو أكثر روعة مما جاء وفــات . واذا كبرتنا أيها الزمن فسنصغر لك واذا صغرتنا سنكبر عليك فقد ساهيناك ووصلنا زمننا الخاص بالزمن العام .

وحرمتنا متع الصبا والشـــباب والطفولة وستحرمنا ــ أنا متأكد ــ متع الشيخوخة فسنخرج لك نحن لساننا ونعيشها كلهــا

معا ، واذا خذلنا الحاضر سنضمهم معـــا جميعا الماضى والحاضر والمستقبل وبهم نواجهك ونوجد ٠٠

اصنع ما شئت بسنينك فالسن لا تزال عندنا ليس العمر وانما الهدف ، وستظل أهدافنا أقوى من تعدادك والا لما وصل انســـان الى ما وصل اليه الان ٠

وليكن اليوم وقفة مع الخمسين فى المائة من العمر والاهداف والاصرار ، وقفة بعدها يمكن فعلا أن تبدأ الحياة الحقة ٠

لماذا لا نزال نكتب ؟!

قال لى : بعد اذنك ، لمن تكتب ما كتبت ، و بالاصح : ما فائدة ما تكتب · ان القراء ينفعلون قليلا أو كثيرا هذا صحيح . بعض المسئولين يقرأون ، كلاما مجرد كلام ، ما أكثر ما تنشر الصحف ونسمع ونرى من كلام وكلام وكلام · صحيح أن كل كلام ليس مثل أى كلام ، ولكن مهما كانت الكلمات ومهما بلغ مفعولها ، أتعتقد أنها يمكن أن تغير الواقع ؟ يمكن أن تحل أزمتى أو أزمتك ؟ يمكن أن تجعل النقود تنسال الى جيبى الخاوى أو تشترى لى الطعام ؟ ما فائدة يا سيدى أن تكتب ، وما فائدة أن نقرأ ؟

نظرت الى محدثى مرة ثانية · موظف · واحد من مئات الآلاف من شعبنا الموظف · خريج جامعة يبدو ، ولكن الزمن والوظيفة من الواضح أنهما تكفلا به فأحالاه ، الى ذلك الجسد السمين والقميص الكالح والبنطلون الأكلح · نظرت اليه ، ولم آخذ كلماته ببساطة أبدا · رحت بعمق شديد أفكر فيما قال · ولم تكن هذه أول مرة أفعل ، وانما خلف وعيى ، ودون أن أشعر ، وقبل أن أكتب وأنا أكتب وأنا أقرأ ما اكتبه ويكتبه غيرى ، يلح السؤال ، نفس سؤال الموظف القارىء ، رحت بعمق أفكر · والتفكير يقودنى الى السؤال تلو السؤال حتى أصل فى النهاية الى ذلك

اللغز : كيف يتغير الواقع ، ومن الذى يغيره ، أهى الظروف ، أهو الانسان ، أم بالصدف المحضة ينتقل الكائن من حال الى حال !

فى الحقيقة ما أزعجنى فى السؤال هو أيضا هذا الكم من الاكتئاب الذى يحتويه · ان للاكتئاب النفسى الفردى أعراضا معروفة فى علم النفس منها التشاؤم وفقدان الهمة والاحساس المحض أن كل شىء مثل أى شىء ، وان كله كلام فى كلام ، وكله لا فائدة فيه · حتى الشهية للطعام والشراب والجنس والحب وأى متعة فى الحياة تفتقد طعمها ، ويصبح الانسان يعيش وكأنه يؤدى دورا يؤديه ، مجرد أداء واجب سخيف ثقيل فى رواية ممجوجة لا معنى لها بالمرة أسمها الحياة ·

ولكننا هنا لسنا أمام حالة اكتئاب فردى هذه أعراضها فقط : نحن أمام ما هو أكبر بكثير ، أمام حالة أكتئاب جماعية · وأنا لا أعرف أن كانت هناك حالة فى الطب النفسى أو علم الاجتماع كهذه الحالة ولكن ما أعرفه بالتأكيد هو أننا مصابون تماما بها ·· هذه الحالة تتخذ شكل الفوضى الشاملة الناتجة عن فقدان الارادات الفردية المحددة للواجب والحق ، فوضى فى السرور فوضى فى العمل ، فقدان البعد الزمنى فى تقدير الحاضر والماضى والمستقبل ، حتى ليصبح المجتمع كله وكأنه يحيا الدقيقة لدقيقتها فقط ، لا دقيقة ستأتى بعدها · واذا تحددت الحياة فى اللحظة الراهنة تصبح هى كل الحياة ، وليمت الانسان بعدها فادفع و (زق) واخبط بالكتف والذراع ودس على أى قيمة وملعون أبو أى مجتمع وأى شعار فأنا ميت أو سأموت فى اللحظة التالية ·

أنا هنا لا أقدم بحثا (أكاديميا) عن حالتنا ولا أزعم أنى أكتشف شعبا جديدا ولكنى فقط أسجل بعض الاحاسيس والانطباعات التى كثيرا ما تنتابنى حين أمشى فى شارع طلعت حرب أو ٢٦ يوليو أو أقابل الجماهير الخارجة من مباراة كرة قدم وأتمعن فى وجوه (الناس) فأجد وكأنهم ليسوا بأناس بالمرة ، أجسام معظمها تخين من فرط فقدان الارادة ولهيب الطموح ، سائرة ، هائمة ، كما يقولون بالضبط (لا تلوى على شىء) لا هدف لها ، حتى الفرجة على

الفتارين ليست الهدف ولا التمشى فى الشارع ولا أى هدف بالمرة ، انما هو التحــــرك الراكد فى اللاشــــارع واللاشىء والســـير الى اللاهدف والتطلع الى اللارؤيا وســـماع اللاصوت ، وثمة بخـــار خانق يتصاعد من الاجساد وتنفثه نوافذ البيوت ومداخن العربات وعيون القطط الضالة والكلاب ، بخـار كثيف غـــير مرئى يتجمع وينعقد كسحابات الفجر فوق الرؤوس ، وتستنشقه الصدور لتعود فتنفثه وقد تحمل بضجر أكثر وضيق أكثر وأكثر ٠٠ وكأنما السؤال الرهيب المعلق فى الفضاء ، يدق بمقامع من حديد ويلح ويقـول : وبعد !! أما لهذا نهاية ؟!

وبالطبع فان لهذا كله ، ولأى شىء فى الوجود نهاية ٠ ولكن النهاية هنا صعبة تماما لان على المفقود فى اللانهائية ـ الذى هو نحن ـ أن يجدها ، بل وأن يضعها ، وأن يقوم بها ٠

ولهذا فنحن يا سيدى الموظف القارىء نكتب ٠

ولهذا أيضا فأنت لا تزال تقرأ ٠

والواقع أنى شخصيا فعـلا لم أختر شكلا (من مفكرة فلان) عبثا ٠ لقد اخترتها بعد تفكير وامعان شــديدين ، فقد كان الشىء الذى يلح على هو : كيف أدعو مسدود النفس الى تذوق طعم كلمة ونفسه تعاف الكلام كله ، بحلوه ومره ٠ قصص ؟! أى قصة أقـرأ وأنا فى قلب مأساة لا يتفق عنها ذهن أعتى قصاص أو تراجيدى ٠ شعر ؟! وما فائدة الشعر ومائتا قتيل يسقطون يوميـا فى بيروت ببنادق عربية ، والحرة فى بلاد أخرى تبيع جسدها من أجل أن تطعم الاولاد والزوج ٠ روايـــة ؟! مسرحية !! كيف تهــز أعمــــاقا أصـــبح دوى القنـــابل الذريـة نفســـها لا يهـــزها ، بحيث لو مسحت اليوم مدينة مصرية أو عربيــــة بأكملها من الوجود لمـا ارتفع لها حاجب دهشة أو استغرابا ٠

هكذا جاء شكل (المفكرة) ، مجرد دعوة ، دعوة بحذر شديد أقدمها ، ذلك أنى مازلت أؤمن أننا نحـــن الذين سنغير هذا كله ، وحيث أن الله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفســـهم ،

فنحن الذين علينا أن نغير الواقع ونغير أنفسنا وهنا يأتى دور الكلمة ٠

فأول كلمة نزلت على نبينا الكريم كانت كلمة : أقرأ ٠

والسيد المسيح هو القائل : فى البدء كان الكلمة ٠

فالكلام يا سيدى الموظف القارىء أبدا ليس أى كلام ٠

وليس كل الكلام مثل كل الكلام هناك دائما أبدا ما أسميه أنا : الكلمة ـ الفعل ، أى الكلمة التى ليست بديلا عن الفعل وليست مجرد سفسطة ، وليست مجرد تفاصح واظهار للقدرة على القراءة والكتابة ، ولكنها الكلمة التى تصدر عن قلب عاناها ويعانيها ويحياها وتحياه بحيث أنه فعلا ومن الممكن أن يموت فى سبيلها ٠ الكلمة الصدق ، الكلمة الصدق الفعل ٠ الكلمة التى تغير لانها تصدر عن متغير لانها تصدر عن قرن استشعار اجتماعى خلقه الله ليكون لقومه الموقظ والمنبه والنذير والمبشر والمهدهد والراعى ، والحاكم ، المستيقظ اذا ناموا ، النائم فقط حين يستيقظون ٠ تلك الكلمة وحدها هى التى تشفى اكتئابنا الفردى والجماعى ، ففى داخلها كيمياء ٠ الصدق المغير والمحول ، فى داخلها شحن الطاقة الذرية ، واشعاع الحقيقة المعدية ، فى داخلها يكمن السر ٠

أعرفت الان يا سيدى الكاتب الموظف لماذا لا نزال نكتب ؟ !

ولماذا لا تزال أنت تقرأ ؟ !



الكاتب عمله أن ينقـد

العودة للكتابة · كالعودة لحمل السلاح ، لها رهبة ، فلست أعود باختيارى ، والفن ليس مزاجا ووحيا ومهنة وتخصصا كما يحلو للبعض أن يقول ، وألف مرة رثيت لأولئك الاصدقاء والزملاء الذين كانوا ينعون على أنى أضـــيع وقتى فى العمـــل « الادارى » بينما المفروض ألا أفعل شـيئا فى هذه الحيـــاة الا الجلوس الى المكتب وكتابة القصص والمسرحيات ، أرثى لهم لأنهم يحيلون بهذا الكاتب الى حرفى ، بالضبط الى ساعاتى جالس طوال النهـار الى مكتب هو الآخر ، كل الفرق أنه بدلا من تصليح الساعات ، « يصـــنع » القصص والمسرحيات · ومن قال أن الكاتب هكذا ؟

من قال أن القصص تستجلب من تخصص وجلسة الى مكتب وتحديق فى الفراغ ؟ من قال أن الفن-صنعة وحرفة ووظيفة ؟

أن الفن ، كالعواطف ، خاصـية ، ويمثل ما لا يمكنك اطلاقا أن تحترف البكاء أو الضحك فكذلك لا يمكن ومن غـــير المعقول أن تحترف الابكاء أو الاضحاك أو تحريك العواطف · أنى معهـــم أن هناك أناسا يفضلون أخذ الكتابة والفن على هذا النحو ، تماما كما أن هناك (ندابات) متخصصـــات فى الابكاء و (بلياتشـوهات) متخصصة فى الاضحاك ·

ولكن ، فى رايى ، وفى رأى العلم على ما أعتقد ، أن الكتابة افراز حتمى لحياة فنيـة ٠

أنت تحيـا وتكتب ولست أبدا تحيا لتكتب ٠

ومن قال أن شغل المنصب الادارى هو « ترك » للكتابة ، ان الكتابة لا (يتركها) الانسان مطلقا انها معه أينما كان وسار صار عمل ٠ انها خاصيته ٠ أما ان يعمل أو يكافح أو يسجن أو يسافر أو يعشق فتلك أشياء لابد له منها كى يعيش ويوجد ، على الكاتب أن يوجد أولا ، أن يوجد كمواطن مثله مثل غيره من المواطنين ، أن يكون له موقف ، أن يكون له عمل ، أن يزاول حياته الروحية والجسدية كاملة وبعد هذا اذا كتب كان بها ، واذا استطاعت هذه المشـاغل الاساسـية أن تمنعـه عن الكتـابة فمعنى هذا أن الكتـابة ليست أصيلة فيـه ، فلا شئ يسـتطيع أن يحـول بين الكاتب الاصيل والكتابة سوى الموت ٠ وحـين أقول الكتـابة فانما أعنى الحياة ككاتب عليه ليس فقط أن يكتب وانما أن يقرأ أيضا ويعرف ويقـود ٠

أولئك الاخوان والاصدقاء الذين سخروا من فكرة أن أعمل أو بمعنى أشمل أن يعمل الكتاب والفنانون مثـل الصـديق الدكتور لويس عوض الذى أصر مـرة على أن يأتى لمكتبى « ليتفرج » على يوسف ادريس ـ على تعبيره ـ وهو يقوم بعمل ادارى ، انما كانوا جميعا كالأب المشفق على ابنه دائما أن يفعل أى شىء اخر سـوى أن يستذكر دروسه مخـافة أن يرسب فى الامتحـان أو يكف عن الكتابة ٠ الكاتب فى رأيهم معناه قلم وورقة مثلما أن التلميذ معناه مكتب وجلسة وكتاب ، وأى عمل خارج عن هذا هو عبث لا طـائل من ورائه ٠ لا يا سادة الكتابة قلما وورقة ، الكتـابة حيـاة كاملة ، وموقف من الحيـاة ، وصراع مـرير وعمـل ، وعرق ، ومعايشة للحياة والدنيا ، لا كمتفرج وانما كمشـارك لمواطنيه فى معركة انتزاع القرش من فم الكفاح اليومى الشاق ٠ الكتابة عندى وأصر على كلمة « عندى » فلكل « شيخ طريقته » أن أعيش الحياة ، بكل ذرة من كيانى وقدرتى ، أعيشها كسـاكن يدفع الايجـار ،

ويستخرج بطاقة التموين ويلعب عشرة طاولة ، ويســـافر ليلتحق بجيش التحرير الجزائرى ، ويزاول عملا يوميا مثله مثــل أى رب أسرة ، ومن عصـــارة هذا كله تتفتح له سبل الخيال أو الحقيقة • ويكتب •

حرية الكاتب أن يكتب = حرية أن يرسم حياته :

كل المشكلة أنى ممن يؤمنون بحتمية المسئولية الفــردية فى انجاح أى تنظيم أو مؤسسة أو قطاع ، وفى مقـــابل هذا لابد من منح حرية التصرف ثم المحاسبة • حرية من ناحيـــة ومسئولية من ناحية أخرى • ولقد قضيت فى وزارة الثقافة أكثر من سبعة شهور خرجت منها بنتيجة كان من المستحيل على أن أحظى بهــا لو كنت قد استمعت لآراء الآباء اللويس عوضين المتصورين الكاتب تصور الوالد للتلميذ •

وسيأتى اليوم حتما ذلك الذى أكتب عن هذه التجربة فيـــه ومستعد ساعتها أن أحاسب ككاتب •

فليترك لنا حرية أن نعمل أو لا نعمل ، نتفرغ أو لا نتفـــرغ ولنحاسب فى النهاية على ما نكتبه ، وليس مهما أبدا أن تحاسبنى على الطريقة ، الحساب فى الكتابة مثلها مثل أى عمل اخر بالنتيجة • فلو انى أصغيت لنصح الأصدقاء ، وبالذات نصح هؤلاء الاصدقاء الذين يعملون فعلا ثم يوصونك بألا تعمل ، لما أمكننى أن أمضى هذه الشهور السبعة رابضا فى قلب ذلك (الليفياثان) الهـــائل المسمى بالحكومة ، متأملا له من الداخل تأمل بطل دستوفسكى لاحشـــاء الحوت الداخلية حين ابتلعه الحوت ، ولما أمكننى أن أرى هذه الآلة الجهنمية المسماة بالروتين ، وهى ، ببطء سلحفائى أميرى شديد ، تعمل وتلتهم وتهضم ، حتى الثورات تهضمها ، كيف كان باستطاعتى أن أحظى بهذا كله وهى أشياء لا تجدها فى كتاب ولا يمكن أن تخطر على ذهن بشر •

مهمتنا تكسير المقاديف :

ونحن فى بلد الناس فيها شديدو الاهتمام بالاخرين ٠ تسأل انسانا فى الشـــارع عن منزل ما فيتجمع عشرة فى ثانية ليسألوك ويلحوا عليك : عايز ايه ٠ عايز مين وعايزه ليـه وكأن ـ من كثرة الفراغ ـ لا عمل لنا الا البحلقة والتأمل وتمـزيق الحجب عن حياة الاخرين ، ونحن فى بلد كل منا ولى أمر الاخـــر وناصحه وضيف (برنامج رسالة) مستمر له ، حتى أصبح الواحد بحكم العـــادة لا يجرؤ أن ينفذ فكرة عنت له ، حتى فى أشد المســائل خصوصية كالزواج أو أحيانا بل بالذات فى الطلاق الا بعـد أن يستشير عشرة وربما عشرين من أقرباء وأصدقاء ومعــارف ، وتكون النتيجة فى الغالب أن يكسروا مقاديفك حتما ، وبدلا من أن تغامر مرة فتظفر بغنيمة أو بمعرفة أو بالميت بتجربة فشـــل مفيدة ٠ تهبط عزيمتك وتتحول الى كائن لا يعرف أن يفعل الا ما تواضع على فعله الاخرون واتفقوا عليه ، الا أن تفعل أسلم الافعال وأكثرها أمنا ودعة ٠ أى لا شىء بالمرة ، تكون النتيجة أن يموت فيك أهـم ما يميز الكائن الحى الانسان ، روح المغامرة والتحرر ، روح التطلع ، روح السعى وراء ما يصوره الخيال لتحيا وأنت تحيل أحلامك الى واقع ٠ وتلك هى الحياة ، أما أن تحيا الحياة كما مضغها الاخرون ولاكوها وعجنوها وخبزوها ، اما أن تحيا حياة خارجة كالجثة الهـــامدة من تحت النصائح والارشادات والمواعظ ، فهى حياة الموت أحسن منهـــا وأرحم ، على الاقل باعتبار الموت تجربة فذة جديدة ٠

أتمنى لو أن كل من خطـرت له فكرة واقتنع بها أن ينفذها فى الحال دون أن يراعى ، وماذا سيحدث يعنى ؟ لو ثبت أنهـــا كانت خاطئة ، هل ستنقلب الدنيا ؟ هل ستقوم القيامة ؟ أبدا والله ، فانه على أسوأ الفروض لو فشلت ستكون قـــد ظفرت بتجربة فاشـــلة عظيمة ، لان التجربة الفاشلة هى المقدمة الطبيعية للتجربة الناجحة ان الفشل نجاح مؤجل ٠ تخيلوا واحلموا ونفذوا ولا يهمكم مـــاذا سيقول فلان أو علان ، فليذهب قولهم الى الجحيم ، فأنت لو سمعت كلام الآخرين لن تتحـــرك أما لو تحركت ونجحت فستتحول نفس أقوال الاخرين الى قصائد مديح تدبج لك ، وأنا مثلا ، لو خرجت

من عملى القصير فى الحكومة بقصة مثيرة أو بمسرحية جيــدة ، لكان أولئك الذين نصحونى بعدم قبول العمــل (الادارى) هم أول المشيدين بها وبى وبحذقى فى اختيار التجربة التى دفعتنى لكتابتها ٠

باختصار شديد ، كتابا وقراء ناصحين ومنتصحين ، أقــول لكم رأى بصراحة : لقد حللت النصائح التى تزجى للاخرين فوجدت أن ٩٠٪ منها على الاقل تبدأ بحرف النفى هكذا : لا تعمــل هذا أو ذاك ، حتى أصــبح طالب النصيحة ينقى من يحس بغــريزته أنه سينصحه بألا يفعل ، ليسأله النصيحة ، كى لا يكون هو المسئول ــ بينه وبين نفسه ــ عن نكوصه أو رفضه للعمل ٠

لابد من وقفه زاعقة :

وهنا لابد لنا من وقفة زاعقة حاسمة ، هنا لابد أن ندق جرسا أو نطلق مدفعا أو نصنع ضجيجا هائلا اذ قد وصــلنا الى أس البلاء وعلة العلل ألا وهى : عدم الرغبة أو القدرة على تحمل المسئوليــة ، وكما تؤدى كل الطرق الى رومــــا مثلما قالها المرحــــوم الدوتشى موسولينى فان كل أمراضنا وعللنا ومخازينا الاجتماعية تقود الى هذه الحقيقة التى أصبحت فى حاجة الى ثورة خاصة بها تقتلعها من جذورها اقتلاعا ٠ أجل ٠ نريد ثورة تقوم لتطالب بمطلب واحد فقط ، ألا وهو أن نتعلم كيف نتحمل المسئولية ، ونتحملها بشجاعة ومهما كان الثمن ٠ فلقد تدربنا على التهرب من المسئولية ، كبيرنا وصغيرنا حتى أصبحنا عباقرة فى هذا المجال ٠

قد تسمع من المصرى أى شىء مثل : أنا جــدع ٠٠ أنا حر ٠٠ أنا متأسف ٠٠ أنا لى رأى ، ولكنك أبدا ، ولكى نكون دقيقين الدقة العلمية الواجبة ، أندر الناس ، أن تسمع : أنا المسئول عن كذا أو كيت ٠ وخاصة اذا كانت هذه المسئولية تتضمن مسئولية عن خطأ ما ، بل بالذات حين تكون المسئولية متضمنة ذلك الخطأ ٠

في حياتى الصحفية التى ليست بالقصيرة ، وفى حياتى كمواطن ، تلقيت ، كما تلقى غيرى ، آلاف الشكاوى ، وبدون أى مجهود أو تعب تلاحظ فى تلك الشكاوى أن الدنيا كلها قد أخطأت ما عدا صاحب الشكوى ، الغلبان المظلوم الذى قاسى وكابد من كل هذا الظلم الفادح ، بمعنى أنه غير مسئول اطلاقا عما حدث له ، بل انه حين يلجأ لرفع هذا الظلم الذى حاق به ، يلجأ اليك ، والى العشرات غيرك (فالشكاوى عادة تكون الى أكثر من جهة ومطبوعة على ورق كربون ان لم يكن بالبالوظة أو بالرونيو أو أحيانا بالمطبعة) كى يرفع هذا الظلم عنه ، بمعنى آخر هو لا يريد أن يكون مسئولا أيضا عن رفع الظلم عن نفسه وانما يريد أن يلقى عليك وعلى الاخرين مسئولية رفع الظلم : فى الحب ، فى الصداقة ، فى كل شىء يريد كل منا أن يتنصل من مسئوليته الشخصية عن عمل الشىء ليلقيها على غيره • والاستعمار هو المسئول حين عرفنا كلمة الاستعمار ، التكنوقراطية أو البرجوازية أو الرأسمالية أو الاقطاعية ، كل هؤلاء هم المسئولون عن أنهم تخطونى فى الترقية ، أما أن يكون هذا التخطى مسئوليتى الخاصة باعتبار أنى مهمل أو مقصر أو مشاكس فهو ما لا يمكن أن يخطر على بالى مطلقا •

من المسئول عن النكسة :

لهذا فكما نحيا ، مجتمعا متلاصقا متقاربا له ألف نوع ونوع من القرابة فنحن نعيش معا ونخطىء معا ولكننا أبدا لا يحاسب بعضنا البعض ، أو اذا فعلنا وجد المسئولية تتقاذفها الالسن ، كالكرة تخلصا منها ، بل لا نرضى حتى أن تكون المسئولية مسئوليتنا جميعا ، انما جماعتنا ، كطوائفنا وهيئاتنا لابد أن تقذف بالمسئولية خارجا تماما لتحملها لكائن أو قوة غريبة عنا •

لا نتهرب جبنا :

والغريب أننا لا نتهرب من المسئولية جبنا ، مع أن المقياس الوحيد للشجاعة هو القدرة على تحمل المسئولية ، انما نحن

نتهرب منها لاننا منذ أكثر من سبعة الاف عام اكتشفنا للعالم الخير والشر ، وفرقنا بينهما تفريقا عميقا بشعا ، وباعدنا بينهما بحيث أصبح أحدهما الجنة والاخر النار ، أحدهما الكمال المطلق والاخر الفساد المطبق ، وبحيث أصبح الخطأ صنوا للشر ، أى اننا بالغنا كثيرا فى تجسيد بشاعة الشرير أو المخطىء ، مبالغة أصبح معها الاعتراف بالخطأ مسئولية أكبر بكثير من أن يتحملها الكائن الانسانى الفرد ويبقى حيا ويظل مواطنا مثل غيره من المواطنين ٠ وللاسف لم يكن فى التراث الفرعونى حديث كثير عن العفو ، انما الشر وصمة أبدية تلحق بروح فاعله ، وتظل معه حتى الى الحياة الاخرى ٠ الخطأ عندنا اذن بهذه الالاف المؤلفة من السنوات المتراكمة أصبح شيئا أبشع الاف المرات من خطيئة المسيحيين وحرام المسلمين ، ولست أدرى ماذا كان يمكن أن يصبح عليه وضع الشعب المصرى لو لم يجىء المسيح ومحمد وتدخل فى قاموس المصريين ألفاظ العفو والمغفرة والسماح والتوبة ٠

استمرارا للصراحة أقول :

أحس أنى ، وان كنت لم أبعد عن الهدف الذى حددته لكلمتى ، الا أنى طرقت موضوعات أو بالاصح رؤوس موضوعات كثيرة كل منها بحاجة الى وقفة وتأمل طويلين ، فالهدف كان أن أوضح أن لجوئى الى العمل الادارى وتركى الصحافة لم يكن جريمة أو خطأ بشعا كما تفضل عشرات من الزملاء والاصدقاء وصوروه لى ، وكان السؤال دائما يلح ويبقى : لماذا ؟ لماذا أترك الكتابة للصحافة وأزاول عملا مهما كان ما أفعله فيه فهو بالتأكيد أقل فاعلية من الكتابة ٠ وهنا لابد أن أعترف أن هذا صحيح ، وان الكتابة للصحافة فعلا أهم وأبقى ، ولكنى ــ استمرارا لموجة الصراحة وفتح القلب على مصاريعه ــ أقول انى تركتها مضطرا ، فقد كان ذلك قبل النكسة وكنت قد تلفت ذات صباح ، وكل صباح تحدث لى صاعقة فكرية أحس معها بكل كيانى وأفعالى وأحلامى وأخطائى وميزاتى تتفاعل فجأة وتحدث شرارة كهربية ضخمة تنير لى الطريق فألمح النفس على حقيقتها ، وعلى هدى هذه الشرارة وجد أنى أبت ، بالكتابة فى

الصحافة ، الى زقاق مسدود ، فلم يعد أمامى موضوعا لليوميات الا نقد لمحافظة أو تريقة على روتين أو مجاملة لكاتب زميل على كتاب أخرجه أو مسرحية كتبها أو نقد لفيلم لا يستاهل النقد . وافعـــل هذا ، لا عن فقر فى الموضوع ، وأنما عن عجز ، فأهم ما يشغل بالى وبال الناس ، قضايانا الاساسية ، مشاكلنا الجذرية ، بعيـــدة عن متناول القلم ، لا لان هناك حجرا على حرية الكاتب ، فالكاتب حقا وصدقا كان حرا أن يكتب ما يشاء بشرط أن يتحمل مسئولية ما يكتب ولكن المشكلة انى كنت أحس ان الكتـــابة نفســـها أصبحت غـير مجـدية بالمرة .

كان الموقف فى رأيى مخيفا .. والمخيف فيه اننا كنا قد حققنا لبلادنا أوضاعا وانجازات كانت تبدو منذ سنوات قليلة جدا كالاحلام كنا قد أجلينا المستعمرين عن بلادنا بلا أى قيد أو شرط ورفضـــنا الاحلاف والتبعية وخلقنا مع غيرنا كتلة عالميـــة ضخمة واتجاها فكريا تقدميا رائعا أسمه الحياد الايجابى . وكنا قد واجهنا قـوى الاستعمار العالمى بنجاح ، بل وأصبناه بضربات قاصمة وفى الصميم مثل تأميم القنال والمساعدة في تحـــرير الجزائر وتونس ومراكش واليمن والجنوب العربى المحتل ولبلادنا العربية . أصبحت القومية والوحدة حقيقة تكاد بين لحظة وأخرى أن تقع ، وفى الداخـل كنا قد حققنا ثورة صـناعية ضخمة ووضعنا أقدامنا على أعتـــاب عصر الى حقيقى كان سيغير من وجه الحياة فى مصر فى سـنوات قلائل تغييرا جذريا ينقلها من عصر الى عصر . كان كل شىء ضخما رائعا عظيما ، كالمعجزة ، وكل هذا تحقق فى سنوات قليـلة وبأقل الخســـائر .

ولكن ..

ليس كلاما فى السياسة

فى ١٦ سبتمبر ١٩٧٠ بدأ يحدث شىء فى الساحة العربية لا اعتقد أنه قد حدث قبلا فى تاريخها أو سيحدث من بعد · فى ذلك اليوم من شهر (أيلول) قرر الملك حسين أن يذبح خمسة وعشرين ألف فلسطينى من (رعاياه) ·

والقرار دبر له فى عناية بالغة وربما ترك الملك حسين مزايدات واستفزازات بعض منظمات المقاومة الفلسطينية تعمل عملها فى تهيئة الجو كى ينقسم رعاياه الى أردنيين وفلسطينيين أعداء وكى يحين الوقت ليبدأ المذبحة ·

ان الوصف التفصيلى لهذه الجريمة المروعة لم أقرأه فى صحف عربية بل فى الصحف الاجنبية التى كان لها مراسلون فى عمان شهدوا ورأوا بأعينهم ما جرى · هؤلاء الشهود (المحايدون) قرر أكثرهم أن البشاعة والوحشية التى تم بها هذا العمل لم تحدث فى تاريخ البشرية الا مرتين ، مرة على يد تيمور لنك عندما أراد فتح العاصمة (هيرات) القائمة على الحدود بين الهند وايران فانتقى قرية صغيرة بجوار العاصمة وذبح جميع سكانها نساء واطفالا ورجالا وشيوخا ثم أرسل رجلا من أعيانها الى العاصمة بعد أن فقأ عينيه ليكون الراوى الوحيد الباقى على

قيد الحياة يقص على سكان العاصـــمة ما شـــهده بعينيـه حتى يستسلموا ٠

ولكن المروع لم يكن فقط ما يدور فى عمـــان واربد ، المروع الاكثر هو ما حدث فى الساحة العربية ولا أقول الساحة العربيـة الرسمية فقد دعا القائد الخالد الى عقد اجتماع قمة على عجل لايقاف المذبحة ٠ المروع هو ما كان يحدث على الساحة الشعبية العربية ، فلقد وقفنا جميعا ومن (المحيط الهادر) الى (الخليج الثـــائر) نسمع الاخبار وبعضنا يشيح على أثرها بيــده وكان لا فــائدة ، وبعضنا سادر فى حياته وكان شـــيئا لم يكن ، والبعض القليـــل المتحمس تائه ، مروع ، حائر لا يدرى ماذا يفعل ٠ ولن اغـــالى اذا قلت اننا جميعا عشـنا أياما طويلة بضمائر مرهقة قد اثقلهـا الاحســـاس بالعجز ٠

بعد عامين فقط ، وأيضا فى ١٦ سبتمبر (أيلول الاســـود) بدأ جيش (الدفاع) الاسرائيلى بنفسه مذبحة أخرى لتصفية بقـايا الشعب الفلسطينى فى ســـوريا ولبنـــان ، اذاعت الخبر وكالات الانباء ، وبنفسها راحت اذاعة اسرائيل تجاهر ودون أدنى خجـل بهجومها على سوريا والاردن وتصـــدر البـــلاغ تلو البلاغ عن عمليات (التمشيط) التى تقوم بهـــا قوات (الدفاع الاسرائيلية) وتتولى فيها قصف مخيمات اللاجئين بالقنابل والنابالم للقضاء على (الارهابيين) أنى وأين كانوا ٠ وأى طفل فلسطينى ارهـابى فى نظر اسرائيل ، وأى امرأة (ارهابية) باعتبارها ستلد (ارهابيـا) وأى شيخ أرهابى لانه لابد أب أو جد لارهابى ٠

انما المحير حقا هو موقفنا نحن العرب ، وأيضـا من المحيط الهادر الى الخليج الثائر تجاه هذا الذى حدث ٠ ولا أقول أيضـا كقيادات سياسية أو كحكومات ، وانمـــا كشعوب عربية ، ان لم تكن قد ذاقت نفس طعم المذابح مثلما حدث لنا هنا فى مصر أيـام غارة مصنع أبى زعبل ومذبحة الاطفال فى مدرسة بحر البقر ، ان لم تكن قد ذاقت فهى لابد يوما ما ذائقة نفس الطعم ٠

على رأى كاريكاتير صلاح جاهين المشـهور كان ناس كثيرين فى القاهرة وفى ذلك اليوم بالذات مشغولين بحـــدث ضخم هائل أهم ، حفل المطربة صباح فى نادى الجزيرة وحكاية بيع فستانها ، واعتقد انهم لابد فى مراكش كانوا يسـمعون والى الرابعة صباحا مثلنا حفل موشحات أندلسية أو تسجيلا معادا لاحتفالات ميلاد الملك واليمن الجنوبية كانت مشغولة بالشمالية والعكس بالعكس والعراق بايران ٠ والاردن كان يعقد الندوات لمناقشة مشروع الملك حسين لحل الازمة ، وهكذا استشهد من الجيش اللبنـــانى ٤١ ضـابطا وجنديا ومن قوات الفدائيين ٦١ فدائيا وعدد لا يحصى من أطفال المخيمات ونسائها فى سوريا ولبنان ٠

دعوة سريعة وممن ؟

جاءت الدعوة سريعة وبالتليفون ٠ كان مقرها أمانة النقابات المهنية بالاتحاد الاشتراكى ، وحضرها الأمين العام ، وكان أعضـاء الاجتماع هم أعضاء مكاتب النقابات المهنية فى مصر ٠ وكانت نقابة المحامين قد طلبت من أمانة المهنيين ان تدعو لاجتماع لمناقشة هـذا العدوان الاسرائيلى الحادث فى وضح النهار ودون أدنى مواراة أو خجـل ٠

والحقيقة لم أتوقع أن يكون الاجتماع من النوع الذى تسوده هذه الروح ٠ روح ديمقراطية لا تخضع لأى قيد على رأى ممكن أن يعن لصاحبه ٠ وتحدث عدد وافر من الحضـور ، وكنت قادما فى التو من بيروت بعد حضـورى المؤتمـر الأول لاتحـــاد الكتـاب والصحفيين الفلسطينيين ، وكنت قد تركت لبنان وآثار جريمـــة العدوان بادية لكل عيان ، ونقلت لزملائى المجتمعين ما رأيتـــه وما لمسته من غياب يكاد يكون تاما للرأى الشعبى العربى ٠

لقد استثمرنا أحلى السنوات من عمر ثورتنا فى الوطن العربى وسقط منا الشهداء تلو الشـــهداء دفاعا عن هذه الامة من أقصى

جنوبها الى أقصى الشمال ، وخسرنا الكثير ، بل كدنا نصبح الخاسرين الوحيدين فى معركة تعرف هذه الامة على ذاتها وكيانها ورسالتها ٠ جاء عبد الناصر الى مصر مصرية ولا شىء أكثر من هذا وغادرها وقد آمنت مصر برسالته وأدركت ولأول مرة منذ زمان طويل أنها عربيةوانها جزء من أمة عريضة ومترامية ، من المحال أن تحيا بغير هذه الامة ومن المحال أن تحيا هذه الامة أو تكون بغيرها ٠ أنها غنية برجالها وامكانياتها وحتى بصراعاتها غنية ، تكاد تصبح بمواردها الطبيعية أغنى أمة على سطح الارض ، وتنفرد مع قليل غيرها من الامم بلغة واحدة ومزاج نفسى يكاد يكون واحدا ودين فى أغلبه واحد ٠ ولقد سرت بعد هزيمة ٦٧ بالذات نغمة فى مصر راحت تروج للعـــودة للتقوقع على النفس ولعق ما أصابنا من جراح ، ولكن فات أصحاب هذا التيار أن صعوبة التحقيق لا تعنى بالضرورة أن المبدأ خاطىء أو قاصر ، أنها تعنى فقط أن العقبات كثيرة وأن المسائل لا تتحقق هكذا بين يوم وليلة ، وأنه اذا كان القدر قد ألقى بحكم الموقع التاريخ والحجم على مصر أن تقود نضال هذه الامة فالتصدى لهذه العملية التاريخية شىء مكلف ومحفوف بالمصاعب والمخاطر وأن ليس أبدا اذا انهزمنا مرة أو طعنا بالانفصـــال مرة أن ننفض يدنا ونيأس ٠ أننا تصدينا لرســالة يلزم لتحقيقها عشرات الســنين ومئـــات المحاولات ، وجريمة حقيقية أن نكسر بأنفسنا ارادة الطموح فينا ، وعند أول عقبة نعود للتقوقع والانكفاء للعق الجراح ٠

أن الصدمة التى حدثت لنا بهزيمـة ٦٧ لم أكن شخصيا ولا أعتقد أن أحدا كان باستطاعته أن يتنبه الى أنها ستغور فى أنفســنا بعيدا الى هذا العمق ٠ ، لقد ضخمنا العدو الى ما هو أكثر بكثير من حجمه ، وقللنا من أنفسنا الى ما هو أقل بكثير من حجمنا ٠

اننى لا أفهم كثيرا فى تعبير (الحرب النفسية) ولكننى متأكد أن آثارها ان كان بعضها بفعل دعايات العدو وأجهزته فان معظمها بفعلنا نحن وبأيدينا ، وصديقا لصديق وجارا لجار وسيدة لاخرى نتولى جميعا وبالحديث اليومى الذى لا يتغير ولا يشذ تحطيم أى بارقة أمل فينا أو بصيص نور ، ربما ليبرر كل منا لنفسه تقــاعسه واستسلامه المطلق لسقوطه الخاص والشعور بالهزيمة الذى يعفيه

من مسئولية الأمل ، فالأمل لا ينبت الا فى صـدور الاحرار والعجز احساس عبيد ومبرر لكل التصرفات الخسيسة التى يمكن أن يقوم بها انسان فقد تاج الانسان ، وتاج الانسان : كرامته ·

لا · لم نمت · ولا انتهينا فى ٦٧ ولا فى غير ٦٧ سننتهى ·

كل ما فى الأمر اننا فى حاجة الى صدمة ولتكن كهربائية أو من أى نوع كان لنفيق ·

الوفد يتشـــكل :

واعود الى اجتماع النقابات المهنية الذى ذكرته ·

تحدث الكثيرون : حديثا نافعـا فى أحيـــان ، مضحكا فى أحيـان ، ولكن القلوب والعقـول مفتـوحة ، وفى صراحة تسكب المحتويات ·

وصدر عن الاجتماع بيان هام ، وقرارات ·

وكان أحد هذه القرارات ايفاد عـدد مختـار من أعضــاء المؤتمر للتوجه الى سوريا ولبنـان والاتصـال بالمسئولين هنـــاك وبقيادات المقاومة لنشاركها الموقف من ناحية ومن ناحيـة أخـرى نتدارس معها ما اذا يمكن أن نفعله ·

وشرفنى المجتمعون واختارونى عن نقابة الصحفيين ضـــمن هذا الوفد · وفى الحق لم أجد فى نفسى حمـاسا كبيـرا للعـودة ـ بعـد يومين فقط من المجىء ـ الى بيروت ودمشـق · ان الزيـارة الواحدة لبيروت تحدث لى فى العادة نوعا من الحمى يلزمنى دائما بعض الوقت كى ألم شتات نفسى وأعود كما أنا ·

· كان الوفـد مكونا مـن الاســتاذ مصطفى البرادعى نقيب المحامين ومن الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح سكرتير عـام نقابة المهندسين ومن الاستاذ يوسف كامل عبد العزيز عضو مجلس نقابة

المحامين والاستاذ أحمد يحيى سكرتير عام النقابة والدكتور المعتز بالله مبارك سكرتير عام نقابة الاطباء ٠

وصلنا بيروت وقررنا أن نبدأ مهمتنا بعقد مؤتمر صحفى نظمه لنا الزميل الاستاذ رياض طه نقيب الصحافة اللبنانية فى نقابة الصحافة هناك ٠ ولم أكن أتصور أننا ، وفقط فى هذا المؤتمر الصحفى الاول نفسه سنكتشف حقيقة المهمة التى جئنا من أجلها ٠ الغريب أننا لم نتفق على شىء ، كل ما أتفقنا عليه كان ان ننتخب الاستاذ البرادعى رئيسا للوفد ٠ ولكن بقيت المشكلة ٠ ماذا نفعل ؟ هل نكتفى بكلمات المجاملة التقليدية نحملها الى اخواننا أعضاء المقاومة والشعب اللبنانى الشقيق ؟ هل نحمل لهم تحيات وتمنيات زملائنا النقابيين فى مصر والذين يمثلون نصف مليون متعلم ومثقف ؟ هل نقول قلوبنا معكم وسحقا لما يرتكبه الاعداء ؟

السلاح المجهول :

بالضبط لماذا لا يكون هناك عمل شعبى شامل وسريع وعلى مستوى الامة العربية كلها من المحيط الى الخليج ؟

عمل ليس مهما حجمه أو لونه ولكن المهم فيه أن يكون شاملا وفى وقت واحد فليس مطلوبا من العمل ـ وبالذات فى مراحله الأولى ـ أن ينزل بأمريكا أو باسرائيل اضرار بقدر ما هو مطلوب منه أن يكشف لانفسنا عن أنفسنا ، وبارادتنا نصنع ارادتنا ، انها ليست كلمات انشاء أو تراكيب أدبية أنها حقائق علمية ٠ أن السبب الرئيسى لروح الهزيمة واللامبالاة التى استشرت عقب ٦٧ أننا بعد أن كنا أمة تكاد تكون ـ ولو بالروح ـ واحدة قبل الحرب ، انقسمنا الى امم كثيرة وشيع بعدها ، بل حدث ما هو أكثر ، وأصبح كل فرد منا أمه بمفردها أى استحال المائة مليون عربى فى الحقيقة الى عربى واحد هو أنا أو أنت فقط ، أنا وحدى المهزوم واليائس وفاقد الارادة ، وحدى اتفرج ووحدى أحمل المأساة ٠

والهزيمة الحقيقية أن ننفرط الى أفراد لا مبالين ٠ ماذا أصبح

يجمع الشعب العربى فى كل مكان ؟ لا شىء · حتى الامانى المشتركة لا تجمعه · لا الكلمة أصبحت واحدة ولا الهدف واحد ولا وحدة فى أى شىء ·

المطلوب من العمل الشعبى شىء واحد فقط فى أول خطوة ، أن نشترك جميعا فى عمل ، حتى لو كنا قد تفرقنا مبادىء وشيعا فليجمعنا العمل الواحد ، أبسط الاعمال ، ولو حتى نتفق أن نصمت جميعا ولمدة دقيقة واحدة غدا فى التاسعة صباحا ·

قد يبدو للبعض أن الاقتراح ساذج وبسيط ، ولكن أخطر ما فيه أنه ساذج اذ أن نتيجته مروعة ·

ان جزءا كبيرا من اليأس الذى عم شعوبنا سببه أننا فى تفكيرنا لمواجهة الغزو الصهيونى الاستعمارى كنا دائما نتصور أننا لابد أن نتصدى له بواجهتنا الرسمية فقط بما فيها من قيادات وجيوش وحكومات · وحتى ليس كل القيادات والجيوش والحكومات ، بعضا فقط سميناه دول المواجهة · وعلى جيوش هذه الدول أو بالضبط على بعضها فقط ألقينا عبء (العمل) ·

ولقد بدأت تتضح لنا الان أبعاد القضية ، والحديث عن قومية المعركة ليس الا ادراكا واحدا من ادراكات ذلك البعد ، فقد كنا نظن أننا نواجه اسرائيل فاذا بنا نكتشف أننا نواجه يهود العالم مجتمعين وقد كنا نظن أننا نواجه حروبا صغيرة فاذا بنا نكتشف اننا نواجه خطة خبيثة وماكرة ومدبرة بعناية · ومنذ نصف قرن من الزمان على الاقل ، وأن اسرائيل واليهودية العالمية ليست وحدها عدونا انما وراءها رأس الرمح فى القوى الاستعمارية العالمية ، أمريكا وأفلاكها ، ووراءها رأى عام عالمى استطاعوا خداعه وتلفيقه وأيضا من زمن طويل · شيئا فشيئا بدأ يتضح لنا أن المواجهة أكبر من أى قطر عربى بمفرده وحتى أكبر من قومية المعركة لو اجتمعت لها الحكومات العربية كلها ، انما لابد لها أيضا من شعبية المعركة · من اشتراك كل مواطن عربى فى المعركة ولو بعمل صغير ، ولو بقرش واحد يمول به كل أسبوع معركة حياته أو موته ·

وأبدا لم تستعمله :

وشعبية المعركة ليست لعبا بالكلمات · أنها السـلاح السرى الخطير الذى يملكه العـرب ولم يسـتعملوه الى الان · أن الذى يخيف اسرائيل وامريكا وكل الدوائر المتآمرة علينا والمتربصة بنـا أن يحدث وعلى امتداد الوطـن العربى كله توقف الخمس دقـائق أو نصف الساعة وفى وقت واحد جـامع شامل يلم شتات عـامل البناء فى طنجة والوزير فى حكومة اتحـاد امارات الخليج وخفير المخزن فى اللاذقية والرعاة فى اليمن الجنوبية والسودان ·

ذلك أننا لو فعلنا هذا لادخلنا الى المعـركة السـلاح الرهيب الذى لم نستعمله أبدا · سلاح الكم الهائل من البشر الذى نمتلكه ، سلاح المائة مليون انسان · ان اسرائيل تخـاف من سلاح المـائة مليون اذا حشد لانها مهما فعلت لن تستطيع التفوق لا هى ولا أمريكا معها فى هذا المجال · ان ادخال الشعب طرفا فى المعـركة الرهيبـة التى نخوضها سيرعب اسرائيل وأمريكا لانها تعلم جيدا أن الشعب اذا دخل المعركة لن يخرج منها أبدا الا منتصرا ، وأن الامر قد يبدأ برفع الذراع علامة المشاركة ولكنه لابد أن ينتهى حتما بالسيطرة الكاملة على كل المصالح الامريكية فى المنطقة وعلى خنق اسرائيل ولو حتى بأجسادنا نفسها مجتمعة ومتلاصقة وزاحفة لاسترداد هذا الجزء من أرضنا ·

ان اشراك الشعب العـربى كله فى المعـركة يضـع أمريكا واسرائيل أمام امرين لا ثالث لهمـا · اما ابادة هـذا الشعب لابادة ارادته واما التسليم له بما يريد · ولأننا لم نعد فى عصر تسـتطيع فيه حتى ولو دولة معربدة مغـرورة مسلحة مثل أمريكا أن تبيـد مائة مليون مهما رغبت فى هذا الامر وحلمت به ، فلن يبقى لها الا التسليم ·

بالضبط ، لماذا لا يكون هناك عمل شعبى شامل وسريع وعلى مستوى الامة العربية كلها من المحيط الى الخليج ؟

هكذا تبلورت مهمتنا الشعبية فى مؤتمرنا الصحفى الاول • أصبحت هدفا واضحا نتحرك تجاهه ، ونتصل بالنقابات وبالقيادات وبالسياسيين على أساسه •

والحق انى لم أتصور أن رد الفعل سيكون بهذه الضخامة • خرجت الصحف اللبنانية جميعها فى اليوم التالى وهى تتحدث عن (المبادرة الشعبية المصرية) •

ولكن الامر لم يسلم من المضحكات فعقب اعلان مهمتنا أتصل بى صـــديق يمنى وسألنى بالتدقيق عن هذا (الوفـــد) المصرى الشعبى ، وبعده جاءنى أكثر من صحفى وسياسى من المقيمين فى لبنان وبروح من الشك راحـــوا يستجوبوننى عن هذا (التحرك) وعن علاقته بنوايا مصر والقيـــادة السياسية فى مصر • الى هذه الدرجة فقدنا الثقة فى أنفسنا • ان أى تفكير أو مبـــادرة لابد انه موحى به من جهة أو وراءه نية ما • أصبحت البراءة فى عالمنـا العربى أبشع التهم اذ أنك لن تجد للبراءة سـببا أو مبعثا واضحا يريح بعض النفوس ويلون العمل وهكذا تظل التهمـة على البراءة مسلطة ومشرعة •

ولكن الصدى الاهم كان هو الصدى الشعبى الذى أردناه • بدأت الافكار تتفجر والحساس للفكرة لدى القيـــادات النقابية فى لبنان وسوريا يطغى • صحيح ، لماذا يقف الشعب مكتوف الايـدى معزولا عن المعركة ، لماذا يترك الامر كله لجامعة الدول العربيـــة تتصرف فيه وتحله ، وأين الجامعـــة (الشعبية) العربية جامعـــة الارادة الشعبية والعمل الشعبى ؟ •

أيكون هذا هو السلاح ؟

أن نتحـرك كشعب هـــائل وأن نعوض بحركاتنا تلك كل ما ينقصـــنا ؟

أن نبدأ الحركة بخطوة بسيطة واحدة وان نختـــار وبسرعة لجان اتصال من النقابات والهيئات والقيادات الشعبية والاتحادات العمالية والفلاحية والطلابية والنسائية والشبابية العربية كى نقوم بعمل واحد وسريع نرفع به الرأس ونواجه العـدو ؟

أنى اطرح الفكرة على قيادتنا الســـياسية وعلى اتحــادنا الاشتراكى وعلى تنظيماتنا العمالية والنقابية ٠

بالحاح أطرحها ٠

ملحوظة : هذه المقالة أعتقد أنها فى عام ١٩٨٠ كوميـــدية تماما ولكنى اثرت أن أثبتها ، فمن يدرى ، ماذا يكون الحال ٠

الانفتاح الى الداخل أيضا

كانت السينما هى حدث الاسبوع الماضى دون شك ٠ حدث ولا أقول حديثا فالحديث عن السينما فى صحفنا ومجلاتنا لا ينقطع بل هو ـ اذا أضيفت الاذاعة والتليفزيون ـ يكاد يكون المادة الطاغية على كل حديث ٠ بل جاء على وقت احسست فيه شخصيا أن الهدف الثقافى العام لمجتمعنا أصبح مقرره الوحيد هو مادة السينما والتمثيل والاخراج والماكياج والديكور والمونتاج لدرجة أنى كنت أتابع برنامجا هاما جدا لابد أن تتابعوه اذ لا أعتقد أن أحدا يلتفت اليه التفاتا ملحوظا وهو برنامج (الغلط فين) الذى يذاع يوم الجمعة ، وأنا لا اتابعه لانه برنامج طريف فقط وانما لانه ترمومتر خطير جدا للمستوى الثقافى العام ، لا للشعب قاطبة وانما للمتعلمين من هذا الشعب ٠٠ طلبة وطالبات ٠٠ معاهد وجامعات ومراكز بحوث واحصاءات ٠ المهم ان الخطأ يحدث فى كل شىء وأى شىء الا فى الاشياء المتعلقة بالفن ، لا خطأ فى اسم ممثل أو ممثلة أو فيلم ، لا خطأ فى أى تعبير سينمائى أو مسرحية ٠ تقريبا هى والامثال الشعبية تكاد تكون المادة الثقافية التى يشترك لا أقول الشعب كله ولكن حتى المتعلمين فى معرفة أدق تفاصيلها ٠ و (الغلط فين !) والمسئول عن هذا من وفين ، والسبب ماذا وفيه اشياء ليست موضوعية الآن فموضوعنا وان كان السينما الا أنه ليس السينما ، عناوين أفلام واسماء نجوم ومواصفات تمثيل واخراج ،

كان الحديث عن السينما حديثا عنها كصناعة وهذا شيء بلا شـك رائع وجميل ، بل الاروع أنه حديث عنها باعتبار أنها مقدمة أو عينة (لسياسة) الانفتاح الاقتصـــادى • كانت المسألة اذن قضـــية وطنية سياسية من الدرجـــة الاولى أو هكذا كان يجب تناولها • لكن ضايقنى تماما أولئك الذين أخذوا الموضوع ماخـــذا شخصيا وصنعوا من قضية هامة وخطيرة مظاهرة سباب ضد وزير الثقافة عبد المنعم الصـــاوى بالضبط كما ضـــايقنى تماما موقف مجلس الشعب من الامر بحيث خرجت علينا الجرائد بمنشـــتات تقول : مجلس الشعب يناصر عبد المنعم الصاوى فى موقفه من السينما ، وكأن المسألة كانت خناقة بين عبد المنعـم الصاوى من ناحيـــة وبين اخرين •

أنا شخصيا حين عرفت أن الموضوع مهما نشرته الجرائد ـ يتعلق بمستقبل السينما فى مصر ، وباعتبار السينما وسيلة الثقافة الاولى لشعبنا وباعتبارى أمت بدرجة ما الى هذه الثقـــافة ذهبت فعلا الى مجلس الشعب لاحضر الاجتماع الذى عقدته لجنة الثقافة والفنون بالمجلس ، والحقيقة ذهبت غير مدعو ، ذهبت وفى ذهنى أنى فقط سأستمع الى ما سوف يثار من مناقشات خاصة بالسينما وليس فى ذهنى مطلقا أنها مناقشات خاصـــة بقضية خاصــــة بل بواقعة اتهام خاص •

مستمعا ذهبت ، ومستمعا أصغيت الى البيان الذى أدلى به الوزير عبد المنعم الصاوى فاذا به بيان يرد فيــــه على مادار فى اجتماع اعضاء غرفة صناعة السـينما حول واقعـــة بعينها وهى اعتزام هيئة السينما تكوين شركة بينهـا وبين مستثمر مشــــترك (سعودى امريكى) ، شركة ضخمة برأسمال قـــدره ١٦٠ مليون جنيه ســـيكون لهيئة الســينما فيها ٥١٪ من الاســـهم وسيقوم المستثمر السعودى بدفع ٤٩٪ من رأس المال • أما كيف ستقوم الهيئة بدفع هذه الـ ٥١٪ من الاســـهم وهى تشكو من العجز فى ميزانيتها وعدم قدرتها على الصرف على دور عرضها واستديوهاتها فسيتم هذا بأن تبيع الهيئة للمستثمر أو بمعنى أدق للشركة الجديدة المزمع تكوينها أربع دور عرض هى ميامى وديانا ومتربول وفريال

فى الاسكندرية واستديو الاهرام فى الجيزة قدرت أثمانها بأربعة ملايين من الجنيهات فى مقابل أربعة ملايين أخرى من المال السائل يقوم المستثمر بدفعها وبهذا تبدأ الشركة عملها بثمانية ملايين جنيه على أن يتم استكمال رأس المال الباقى (١٦٠ مليون) باستغلال هذه الاماكن الاستراتيجية فى اقامة دور عرض واستصدار قانون جديد يبيح اقامة عمارات فوق دور العرض (اذ القانون الحالى يحرم أقامة مبان فوق دور العروض السينمائية والمسرحية) ومن الربح الضخم الناتج عن اقامة هذه العمائر يتم استكمال رأس مال الشركة وتبدأ فى اقامة دور عرض سينمائية (٤٠٠) فى بقية انحاء القطر المصرى ·

وهنا قامت قيامة أكثر من جهة ·· أولها غرفة صناعة السينما (أى اتحاد المبتجين السينمائيين المصريين) اذ أن هذه الشركة الممولة لن تقوم فقط بأنشاء دور العرض وانما سيكون لها الحق فى انتاج وتمويل الافلام السينمائية والتليفزيونية وحيث أن رأسمال أكبر منتج فى الغرفة لا يتعدى نصف المليون جنيه فكيف ستواجه هذه الاسماك ذلك الحوت الهائل الذى من المحتم أنه سيبتلع الجميع ·

ومن الجميل فى قيامة غرفة صناعة السينما أنها ربما لاول مرة تذكرت أن صناعة السينما صناعة وطنية خطيرة ، انها تملك التحكم فى توجيه الفكر لا فى مصر وحدها ولكن فى العالم العربى كله ، وأن المنتجين هم أصحاب المسئولية الاولى فى المحافظة على الفكر الوطنى الابداعى ، وهذا الامر طبعا نكتة ، فتسعون فى المائة من أنتاج هؤلاء السادة لا فكر فيه على الاطلاق أو اذا كان فيه فكر فهو دائما فكر مناهض ورجعى وشال لطاقات الانسان المصرى والعربى على القوة والابداع وأظن أن الصراخ الذى يأتينا دويه من المصريين المقيمين فى البلاد العربية خير دليل أن أكثر المنتجين غير قوامين بالمرة على أمر الفكر المصرى أو العربى وأنهم بالدرجة الاولى تجار وطنيون هذا صحيح ولكن يتاجرون فى مادة خطرة هى القصة والبطل والممثل فى السينما العربية ، وفقط أدركوا مدى خطورة ما تصنعه أيديهم حين جاء

منافس أكبر من المحتم أنه لن يكون أكثر حرصا على الفكر العربى منهم ولكن المؤكد أنه سيكون أسخى وأغنى فى تصنيع بضاعة وتغليفها وتسويقها • ومع هذا فهم أيضا رأسماليون وطنيون أن اعتبرناهم تجار سينما ، بمعنى أنهم بالتأكيد يتجاوبون فى النهاية مع النقد ويراعون الحرمات بعض الشىء وأناس (على قدنا) نستطيع أن نؤثر فيهم ويؤثرون فينا ، ولكن الشركات الكبرى فى هوليود ونيويورك وأوربا تصل بثرائها ونفوذها الى أنها تصبح فوق أى نقد ، بل هى التى (تصنع) النقد ، وهى التى (تفكر) للناس ، وهى التى (تخلق) نمط الحياة والسلوك ، وتجعل من الجواسيس ورجال المخابرات (أبطالا) يصبح المثل الاعلى لكل شاب أن يحذو حذوهم • واذا كنا نحن فى القاهرة نشكو من (النماذج) السيئة التى يقدمها كثير من منتجينا السينمائيين ونحاول قدر الطاقة أن نستبدلها بنماذج أخرى للانسان أروع وأقوى فهناك تبلغ الشركات بقدرتها الفائقة على اخفاء السم فى منتجاتها حدودا تصل الى نخاع المتفرج دون أن يملك الناقد مهما نقد أن يحول بينه وبين الاستسلام الكامل المطلق لما يرى • هناك (المؤسسة) هى الاقدر والابشع والاذكى والاخبث والاكثر قدرة على التلون والتنكر بحيث تضع أنت الناقد نفسه وربما وأنت لا تدرى تجد نفسك تصفق لعمل كان عملك أنت نفسك ويسخر من قدرتك على الاكتشاف أنت نفسك •



حسن جدا ، قامت غرفة السينما المشكورة بدورها الهام فى التخوف التام من هذا القادم الصناعى الجديد على هيئة الدفاع التام عن (الفكر) الوطنى والاشفاق على المواطن المصرى من السم الزعاف الذى من الممكن أن تنفثه صناعة قتالة كصناعة السينما أو بالاصح صناعة العقول • قامت مشكورة بالرفض (٩ ضد واحد) ثم قامت مشكورة بالتخوف ، ثم قامت مشكورة بالموافقة (١٠ ضد لا شىء) خافت على الفكر المصرى وصرخت : احذروا الذئب القادم ، ثم هكذا ، وبأية قدرة لا أعرف ، اكتشفت أن المسألة لا ذئب فيها أو أننا كلنا

ذئاب وأولاد ذئاب أو مصيرنا أن نصبح كذلك وأن كل شيء تمام وشكرا يا سيادة الوزير على اهتمامك بصناعة السينما والسلام عليكم ورحمة الله · هكذا قالت الغرفة ثم من بعدها اللجنة ثم جاء المجلس الاعلى ، مجلس الشعب ليضع أمضاءه وليصبح كل شيء تمام التمام · فهل كل شيء تمام التمام ؟

★ ★ ★

أن السيناريو كما رأيته وعايشته ضعيف جدا ، ولو استحال الى فيلم فسيسقط سقوطا بشعا ويكون كارثة على منتجيه · وكما تفعل وزارة الثقافة نفسها ـ رحمة بالمنتجين ـ فتراجع السيناريو وهو لا يزال حبرا على ورق وتجيزه أو ترفضه أو تعدل له قبل أن يصرف المنتج عليه دم قلبه ثم تصادره الرقابة ، فكذلك نريد أن نفعل بموضوع السينما ·

وقبل أن يغلق ملف الموافقة ليفتح ملف التنفيذ فهناك أشياء هامة جدا لابد من قولها ·

فأولا أنا ضد كل ما قيل تجريحا فى شخص الوزير ونقيب الصحفيين السابق ، والكاتب الذى تابعته وتابعه معى الالاف منذ أن كان يكتب فى المصرى ويحيا حياة الكفاف فى لندن ليتعرف على أوربا فى بلادها ويثقف نفسه بنفسه وطنيا صادق الوطنية ·

ان سياسة الانفتاح أساسها الفكر والاقتصاد وحتى السياسى أننا أخذنا بها لتقوية الاقتصاد المصرى بحيث نغرى المستثمر الاجنبى بأرباح من عندنا أكثر مما يجده فى أى بلد آخر أو مشابه · بمعنى أنها سياسة لتدعيم الاقتصاد وليست سياسة (التعليم) (أقصد جعله عالميا) الاقتصاد المصرى بعدما مصرناه ومعنى أننا مصرناه اننا امتلكنا أصوله والانفتاح جئنا به ليجعل هذه الاصول تعمل

بأقصى طاقتها ويربح منها الاجنبى بأكثر مما يربح من أى بلد اخر ولكن أبدا ليس على حســاب (بيع) الاصــول كما كان الخديوى اسماعيل يفعل ببيع سندات قناة السويس وغيرها ليسدد ديون مصر وكانت النتيجة صـندوق الدين واحتلال مصر نفسها بعـد هذا ٠ وأعتقد أن القائمين على سياسة الانفتاح والقائمين على أمر هيئة الاستثمار يعرفون هذا جيدا ولديهم بالفعل مشروعات جاهزة ووافرة الارباح لمن يشـاء أن يربح ، ولكن لا أعتقد أبدا أن مشروعات كهذا توافق عليه هيئة الاستثمار لسبب بسيط هو أنه لا استثمار فيه بالمرة فنحن كافراد مصريين نسـتطيع أن نقوم بمشـــاريع كهذه بمنتهى البساطة ٠ ولنأخذ مثلا بسيطا أن سينما ميامى والمسرح المجـاور لها مساحتها أربعة آلاف متر مربع فى قلب القاهرة التجارية ٠ لو بعناها حتى كأرض فضاء للمواطنين المصريين العاديين وتواضعنا جدا وجعلنا المتر هناك بخمسمائة جنيــه لكان ثمنها أثنين مليون جنيه ثمن أرض فضــاء فقط ، ولو أنشـــأنا شـــركة مسـاهمة مصـــرية لبنـــاء عمارة فـوق هذه الارض نجعل من بدرومها ودورهــا الاول أربعـــة دور عــرض فوقهـــا عشــــرين دورا كل دور يحتوى على الاقل على عشر شقق أو ربما عشرين لوجدنا فى أيدينا فى ظرف لا يزيد عن عامين المائة والستين مليون جنيــه رأس مال الشركة المفــروض أنهـــا ستنتج وتطور وتبنى صـناعة السينما فى مصر ٠ أن لدينـا فى مصر مكاتب وشركات وأشخاصا يستطيعون أن يدفعوا فورا ما يزيد على المائة مليون جنيه ليحظى كل منهم بشقة فى شارع طلعت حرب فى قلب العاصمة فلماذا نشرك الغريب فى شىء نستطيعه نحن بكل بساطة ويعود علينا ربحه كله ، ونمول بهذا الربح دور عرض تدر ربحا رهيبا علينا ونمصر بهـــا صناعة السينما فعلا تلك التى سيتحكم فيها الموزع اللبنـانى الذى يرفع من يشاء ويخفض من يشاء وهو بحق امبراطور الصناعة وعلى بابه يقف جميع نجومنا ومنتجينا وغرفة سينمتنا بجلالة قدرها ٠ ان ٦٠٠ دار عرض كفيلة بتمـويل الصـــناعة السينمائية المصرية تمويلا ذاتيا بحيث لا تخضـــع لذوق موزع ، أو يفرض عليهـــا

مواصفات تجعل المصريين فى الخـارج والداخل يلعنون انفســـهم من أجلها ٠

وكل هذا من بناء دار سينما واحدة ٠

فما بالك بديانا وفريال فى الاسكندرية وأربعة أفدنة فى قلب شارع الهرم أسمها ستوديو الهرم وكل هذا لأن (المستثمر) سيدفع مقدما اثنين مليون جنيه ٠ ان المثل العربى يقول ما يحتاجه المنزل يحرم على الجامع معناه بالعربى الفصيح أن ما تسـتطيع أن تفعله أنت وحدك وبمنتهى البساطة وتعود فائدته لك يصبح من الجريمة أن تعهد به الى آخر ٠

اذا كانت هيئة السينما فى حاجة لتطوير نفسها لتصــل الى ما لم تصل اليه هوليود فعليها فقط أن تطرح عملية بناء ميامى على المواطنين فى مصر ٠ الســـهم ذو العشرة جنيهات يصبح بعد خمس سنوات ثمنه مائة جنيه ٠ فلتطرح الهيئة الفكرة والاســـهم ولترى كيف ستمطر عليها السماء ذهبا وبدون حاجة الى مستثمر وبدون حاجة الى مليم واحد من الخارج ٠

أما الانفتاح فلنتركه لمشاريع تحتاج الخبرة والتكنولوجيـــا تحتاج ما ينقصنا، وما لا نســـتطيعه ولتربح من ورائه ما تشـــاء فحلال عليها ما دامت فى النهاية ستئول الينا ٠

★ ★ ★

أنها مجرد فكرة ولكنى متأكد ، رغم انى لست اقتصاديا ، صحتها فالاقتصاد أولا تفكير معقول ، أما غــير المعقول فهــو ما يحدث الان تحت شعار الانفتاح باسمه ٠ ان الانفتاح هو من أشد حاجاتنا القومية وضرورات حياتنا وقد تجاوب معـــه شعبنا ومع واضعه ومخططه الرئيس السادات تجاوبا فاق كل تقدير ، ذلك أن الشعب فهمه كما فهم القـــائد على هــذا لنحــو القـــومى الوطنى

العظيم · وليس بالضرورة أن يكون الانفتاح بالخـــارج فقط والى الخارج فهناك انفتاح قـد يكون أكبر ، ذلك هـــو الانفتـــاح الى الداخل ، واستخراج المدخرات القومية وتوظيفها ، اذ لو فعلنا هذا ولو بدأنا بأن نعرف كيف نستغل نحن بلادنا ومصـــادرنا لانهالت علينا المشاريع من الخارج ذلك أن رأس المال لا يستخدم نفســـه لتقديم الصـــدقات انما هو يلهث وراء من يعرف كيف يفكر ويربح وكيف بذكائه يستطيع ن ينتج ويـــدر معـــه وعليـــه الارباح · ان رأس المـــال الاجنبى لا يقـــدم نفســه الا للنـــاجح اما اذا قدمه للغبى أو للفاشل فلابد أن يفعل هذا ليسرقه ·

وأنا لا أعتقد ابدا أننا أغبياء أو فاشلون ·

نشر هـذا الموضوع عام ١٩٧٤

الخطة الجهنمية الجديدة

من جولة فى شرقنا العربى عدت · من عشرة أيام عدت · وقد كان مفروضا أن أكتب انطباعاتى فور عودتى ولكنى لم أشـأ هذا فقد كانت تشغلنى مشكلة أهم من الكتابة بكثير · مشكلة أننـا رغم كوننا أمة عربية واحدة ، تكاد تكون لها ــ مع اختلافات غير أساسية ــ نفس الشخصية ، بل والملامح الجسدية فى أحيان ، رغم هذا الا أننا ، منذ وعينا حتى بكياننا هذا الواحد لا نفهم بعضنا ، واحتراسا أقول ، الا فيما ندر · أما قانوننا العام السائد فهو أننا أبدا لا نفهم · لغتنا عربية ومشتركة ولســاننا واحـد ، والافكار الشائعة فى عالمنا العربى تكاد تكون نفس الافكار ، الا أن اللغة واللسان وأدياننا الواحدة وأفكارنا العامة المطروحة كلها معلقة هناك فى سمائنا الواحدة ، كالسحابة ، بعيدة دائما عن أرض الواقع ، بعيدة عن الانسان ·

ومن أعسر بلادنا العربية قدرا على عدم الفهم ، هى قلب هذه الامة : مصر · يحبونها ، ويحبون شعبها ، والقاهرة حلم المسافر اذا أراد السفر ، ولكننا بالمرة غير مفهومين ·

ولا أعتقد أن السبب فى عدم الفهم هذا راجع الى الشـعوب العربية الاخرى ، بل هو راجع فى الاصل وفى الاســاس الى كل

شعب على حدة ، وهكذا فأعتقد أننا فى مصر المسئولون الاول أنه لا المشرق العربى ولا المغرب العربى ولا أى مكان يفهمنا ، بل أحيانا يخيل لى أننا أنفسنا لا نفهم أنفسنا حق الفهم ٠

هكذا قضيت الايام العشرة الماضية أفكر فى تلك المشكلة المحيرة ٠

ذلك أنها ـ فى رأيى ـ ليست مشكلة سوء فهم أو سوء علاقات ناتجة عن سوء فهم ، ولكنها تشكل الان قضية الحياة أو الموت ، ليس فقط لنا كمصريين وانما كمصريين وعراقيين وفلسطينيين ولبنانيين وسعوديين وليبيين ومغاربة وجزائريين وسودانيين ٠٠٠ الخ ٠٠٠

وسأقول حالا لماذا هى قضية حياة أو موت ٠

وبالذات أقولها لهذا النفر القليل من مفكرينا ومثقفينا وبعض قياداتنا الشعبية التى أصبحت تنادى بالعودة الى المصرية بمعناها المحلى القديم ، و (سيبونا) من هؤلاء (العرب) الذين (ودونا فى داهية) ٠٠ الى آخر هذه النغمة ٠

هؤلاء الناس يجدون آذانا صاغية كثيرة خاصة والمثل واضح أمامنا وصريح ، دخنا نحن فى صراع مرير طويل من أجل القومية العربية وخضنا ضد اسرائيل أربع حروب ومات منا مئات الالاف وأنفقنا عشرات الالاف من ملايين الجنيهات وتهدمت مدننا ، بينما النتيجة أن بلاد البترول العربية استفادت حتى من حرب أكتوبر المجيدة وتضاعف سعر بترولها أى دخلها من عام ١٩٥٢ الى الان ربما أكثر من عشر مرات ، بينما الدخل عندنا نحن كان ينخفض وأزمات المأكل والملبس والمواصلات تشتد ٠

ولكى أكون صادقا لابد أن أقول أن هذا المثل ليس افتراء على الواقع ، بالعكس ، هو مائة بالمائة صحيح ٠ بفضل هذه المعارك

الرهيبة المتصلة أعتقد أن العالم العربى الان أنقسم الى دول غنية ودول فقيرة ، دول تزداد غنى ودول تزداد فقرا ٠

ولكن المغالطة فى المثل واضحة أيضا . فنحن لم نحارب أصلا للدفاع عن موارد البترول وحراسته ، انها كانت حروبا موجهة ضدنا نحن ، ضد مصر بالذات ، ضد قائده هذه الامة الروحية والثقافية والحضارية ، ضد القمة النامية المخيفة فى المنطقة ٠

ولم تكن مجرد حروب عسكرية وسياسية وتآمرية ، ولكنها وبالاساس حروبا ثقافية واقتصادية ٠ ان كل خبراء البترول فى العالم يجمعون على أن فى الصحراء المصرية الغربية والشرقية حقول بترول هائلة الضخامة ، فجيولوجيا من المستحيل أن يمتد عرق البترول من الجزائر الى ليبيا وبالضبط يتوقف عند حدودنا المصرية ، ويستمر توقفه حتى حدود مصر الشرقية ليبدأ فى البحر الاحمر والسعودية الى العراق وايران ٠ لا يمكن علميا هذا الا اذا كانت الجيولوجيا قد تآمرت مع الاحتكارات البترولية من قديم الازل ٠ الصحيح أو الاكثر صحة أن تكون الاحتكارات البترولية هى التى تآمرت ضد الجيولوجيا المصرية بالذات ٠

التاريخ يعيد نفسه :

والمؤامرة قديمة وقد أصبحت معروفة ٠ منذ أيام الاحتلال البريطانى وفكرة البحث عن البترول فى مصر أو اكتشافه فكرة مرفوضة تماما ، فالانجليز لم يحتلوا مصر عبثا ، ولم يستخلصوها من قبضة نابليون ومن انياب الامبراطورية العثمانية عبثا أيضا ، بل ولا حتى لموقعها الجغرافى أو قنال السويس أو هذا كله ٠

الانجليز واحتكارات البترول أدركت من زمن بعيد أن المنطقة العربية أو ما اصطلحوا تضليلا على تسميته بالشرق الاوسط يرقد تحت أرضه أعظم كنز عرفته البشرية فى كل تاريخها ، ما مضى وما سيأتى ، واكتشفوا أيضا انه بينما يرقد تحت الارض هذا الكنز

الخرافى الذى يســـاوى فى قيمتــه كل صـــناعة أوربا وزراعتها ومناجمها ، تحيا فوق هذه الارض شعوب كانت متخلفة تعيش فى القرن السادس عشر ٠

وبعد الحرب كانت أوروبا هى الهدف الثانوى لامريكا القوية المنتصرة الغنية ، أما هدفها الاساسى فقد كان هو انتزاع هذا الكنز المهول من أنياب الاستعمار القديم ، بريطانيا كانت وسيلتها للاحتلال الجيوش ، والقوة عندها فى الاساطيل والسيطرة على المضـايق ، والتجارة ٠ اكتشف الامريكان أن العصر الجديد القـادم هو عصر البترول وعلى هذا يجب اقتلاع النفــوذ البريطـــانى والفرنسى من المنطقة ٠ وبالتأميم مرة ثم بالتدويل مــرة ، ثم باحتكار التوزيع ، ثم بالانقلابات والاضطرابات ٠ نجحت امريكا اخـيرا فى اعـادة الفرنسيين الى فرنسا والانجليز الى جزيرتهم ، وتقريبا « ملكت » امريكا أهم مصادر البترول فى كل العالم العربى ٠

ولكن هذا وحده لم يكن يكفى ٠

فاذا كان المنافسون الاوربيون قد ذهبوا ، فالمنطقة قد تطورت بسرعة وتهدد بتطور اسرع وكان نجاح ثورة ٢٣ يوليو واكتســاب حق تأميم الممتلكات الاجنبية لحساب شـــعوب المنطقة ، كان هذا تهديدا اخطر بكثير من تهديد المنافسين السابقين ٠

وكان على أمريكا أن تؤكد وجودها وتؤمنـــه تأمينا مباشرا باقامة دولة ترسانة تقوم بدور رجل البوليس المهاب ٠

وتأمينا غير مباشر بضرب مصدر الخطر الاكبر : مصر ٠

وامريكا تعرف تماما أن مصر ليست ثلث العالم العــربى ، ولكنها الثلث الذى يملك من الامكانيات المادية والبشرية والثقافية والحضارية ما يمكن ان يقود العرب ليس فقط لتأميم بترولهـــم ولكن حتى ليحتكروا هم انتاجه ويحتكروا نقله وتوزيعه ، ويعـود الى الشرق العربى ذلك المركز الخطير الذى كان يشغله فى عـــالم

الامس • دولة حضارية كبرى تتحكم حتى فى الحضارة الاوروبيـة بشقيها بل وفى امريكا نفسها •

ثم بدأ الضرب الساخن :

وحين يكتب تاريخ ثورة ٢٣ يوليـو الحقيقى والمحـاولات المذهلة التى بذلت ضدها سيدركون الى أى مدى لعبت هذه الثـورة دورا أصيلا وبطوليا •

ولما فشـلت هذه المحـاولات ، أصبحت أسرائيل فتى امريكا المدلل وانهالت عليها المساعدات والخبرات •

اذ كانت الخطة هى سحق الثورة المصرية والجيش المصرى ، سحقا لا تقوم بعدها لمصر الثورة أو مصر القائدة قائمة •

ومن ناحية أخرى بدأت خطة موازية لعزل مصر عن العـالم العربى ، واغراق عبد الناصر فى خلافات عربية تحول بينه وبين أن يتفرغ لبناء مصر الجيش والصناعة والتفوق ونجحت الخطتان نجاحا باهرا •

تقطعت تقريبا كل علاقات مصر العربية •

وجاءت حرب ٦٧ التى انتهت فى أقل من يـوم فقد كانت فى حقيقتها حربا لاغتيال عبد الناصر شخصيا • وقـد كان ، وعبد الناصر لم يمت عام ١٩٧٠ • لقد مات لحظة ما عرف أن كل طيرانه ضاع ، وجيشه تفكك • وجيش مصر يعنى رأى مصر فلا رأى لبلد لا جيش لها • وقد كان مطلوبا من الحـرب ليس فقط ان تقتل عبد الناصر كمدا وانما أن تعريه من البطولة الاسـطورية التى تكونت لديه عند الشعب العربى قاطبة وحتى عند غيره من الشعوب •

ولكن الحسابات والخطط ولعبة الامم والكمبيوتر نسيت شيئا واحدا · ان عبد الناصر ورفاقه قاموا بتنفيذ ثورة ٢٣ يوليو ولكن الثورة كانت ثورة الشعب وان عبد الناصر لم يكن يحـــارب لانه طاغية ولكنه كان يحارب لانه زعيم مصرى فى قلبه كل ما فى قلب أى مصرى ، والشعوب لا تستسلم ·

وقامت الشعوب كلها فى مصر وفى كل مكان ترفض ما حدث ، وتثبت الثورة ، ولقد ظن الاستعمار ان المشـــكلة انحلت بوفاة عبد الناصر ، وان مصر هدأت وانهدمت ، وأمامها عشرات السنين لترفع القامة وتعتدل ·

وجــاء الســادات !

ونفس القصة تكررت مع الرئيس أنور السادات ·

ونفس المفاجأة حدثت حين رأوا أن هذا الرجل الذى يبـــدو بسيطا لا يملؤه الاعتــــداد الزائد بالنفس أو الغـــرور ولا يحلم بأمبراطوريات · رأوه ، هكذا فجأة يأمر الجيش المصرى بعبـــور القناة واستعادة ســيناء ·· وفى ســاعات بشعبه والجيش ينجح ويصنع ما لم يصنعه حاكم مصرى ، يهاجم ويسحق ويطرد الاعداء كما فعل احمس وتحتمس ··

لقد نسوا أن عبد الناصر فعل ما فعل لانه كان تلميذا للحركة الوطنية المصرية وابنا لهذا الشعب ، ونسوا أيضا أن الســـادات حين جاء وضرب مركز القوة الاسرائيلية ، لم يكن أيضا مجرد قائد ، كان تلميذا لمصر الوطنية وابنا بارا شديد الاحساس بشعبه شـديد الثقة فى قدراته ·

وهكذا كان لابد أن يوقف عند حد ، وجندت امريكا كل قواها العسكرية والتكنولوجية والبشرية ٠٠ لتنقذ اسرائيل ٠

ووجدت امريكا انهـــا لابد أن تغـــير سياستها فى الشرق الاوسط ٠٠

وتحركت قوى كثيرة فى المنطقة تحاول ان تعطى هذا التحول أكثر من حجمه وتحركت قوى كثيرة محاولة عزل مصر عن المنطقة حتى لا تعود أبدأ الى سابق حضورها وقيادتها ٠

يأكل شعب معقول ، يرتدى ثيابا غير باليـة معقول ، أما أن ينتج فكرا ويشع وعيا ويقود الحضارة العربية المترامية الاطـراف فهذا هو بالضبط غير المسموح به ٠

فلتزدهر الافكار الجديدة التقدمية فى بيروت ، اما ان يعود الى مصر فكرها المتقدم الذى خلقت به نفوذها الحضارى والسياسى فهذا مستحيل ٠

حتى الصحافة المصرية لتبق فى حالة مونولوج داخلى محدود بحدود مصر ولا يتعداها وليبق حجمها دائما أقـل من حجم صحف بيروت ، ففى بيروت تستطيع أى دولة أن تصـــدر صحيفة تنطق بأفكارها هى ، أما فى مصر فقد فشلت كل التجارب لخلق صحافة غير ناطقة باسم شعبها ومثقفيه ولتكال لمصر الاتهامات الاستسلامية لتنهار مكانتها القيادية ٠

ليشتت كل مثقفيها وانذكيـــائها فى أركان المعمورة ، فثروة مصر الحقيقية كانت فى خبراتها وذكائهـــا ولهذا لابد أن تستنزف طاقتها الخلاقة حتى لا تعـــود قادرة على الخلق أو الطمـــوح ٠
وأمامنا الواقع واضحا لا لبس فيه ٠ فى كل اسبوع يصـــدر فى بيروت بالذات كتاب هائل الاهمية ، مترجما كان أو مؤلفا ، أرونى كتابا مصريا هاما صدر خلال العام الماضى بأكمله ٠

لتقتل الثقافة المصرية قتلا وئيـــدا بطيئا وليخنق الكتـــاب المعروفون فيها خنقا بحبـــال من حرير ، لتســـتمر صحافتنا فى انكماشها ولتستمر الازمات المعيشية قائمة فالمطلوب أن تظل مصر محنية الظهر أمام عالم عربى وان كان قد ظل يكن لهـــا الاحترام الكبير الا أنه فى النهـــاية سينفض يده منها ومن الامل فيهـــا ، وكأننا قد أصبحنا رجل العالم العربى المريض ، بل لتشدد النعرات الاقليمية لدى كل قطر ، وليصـــبح لكل قطر قاهرته الاعظم ، الاعظم بكثير مما آلت اليه قاهرتنا ٠

ان الرجل لا يموت الا حين يضعف قلبـــه ويعجز عن جعل جسده ذلك الكائن الحى الواحد المتحد ٠

ولقد جربوا ضرب القلب ــ مصر من الخارج ٠

فكان الجسد العربى يزداد التصاقا بها وفناء ٠

الخطة الجهنمية هى أن يجعل الجســـم نفسه يتمـــرد على القلب ، الجسم الذى كبر وأغتنى وامتلا بالمثقفين والدارسين كيف يمكن أن تكون ثقافته هى ثقافة القاهرة ٠

واذا هبط القلب ، ذلك القلب المتجانس الكبير ، فالاجهـــاز على الاطراف يصبح مسألة مفروغا منها ٠

خناقة النشـــالين :

اننى أعتقـــد أن الاحتكارات الاجنبية كانت تغـــذى الصراع العربى الأسرائيلى باستمرار حتى لا يكف لحظة ، وحتى يتيح لهـــا نشل ذلك الكنز الاعظم ، بينما الرأى العام العربى كله مشـــغول بقضية اسرائيل ، أنه نفس تكتيك النشـــالين ، حين يفتعلون خناقة مع راكب الاتوبيس ليسرقوا حافظة نقوده ٠

ولو استطعنا نحـن كعرب ، ليس فقط أن نحـــارب اسرائيل وانما أيضا نفشل مؤمرات التفريق بيننا ونتعلم وبما نملكه من علم وثورة وثروة ستنتهى القضية العربية الاسرائيلية فهى كاللص الذى يعيث فى البيت فسادا لان الخناقة بين أفراده قائمة على قدم وساق وحين نكف عن الزعيق والسباب ومحـــاولات قلب بعضنا البعض ونتجه ، فقط بوجوهنا ، الى ذلك اللص فانه لن يستطيع البقاء بيننا لحظة اما أن يقفز من النافذة فى الحال ، أو يموت رعبا ٠

ولكن كيف تنتهى الخلافات ؟

أن النوايا الحسنة لا تنهيها ولا مجرد الاحســـاس بقوميتنا وعروبتنا ينهيها فهناك مولد نشيط لها ، لا يتوقف ٠ اننا نظن أن بعض الخلافات بين الحكام العرب تأتى اعتباطا ولكن هذا تصـور ساذج للغاية ، فلا شىء فى هذا الشرق العربى كله يحـدث اعتباطا أبدا ٠ كلها خطط مدروسة وموضوع لها البدائل ولكن المسألة الان مركزة فى مصر ٠

أنهم يريدون القضاء على مصر الملهمة والحضارة والقائدة ٠أن الرأى العام العربى تقوده عواصم أخرى بعد أن أسكتنا نحن خلال زمن طويل مفكرينا وجعلنا من صحفنا مونولوجات محفوظة لا تثير عند القارىء المصرى أو العربى أى ضرورة أو أحساس بالتفكير ٠

حتى السياسة المصرية لا نشرحها ، لانفسنا ، ولا للعـــالم وكأننا نعتبر أنها يكفى أن تكون ســياستنا ليتبناها النـــاس دون نقــاش ٠

الانفتاح الاقتصادى يفسر على أنه عملية تصفية للثورة ٠

اهتمام مصر بحل مشاكلها الداخليـــة يفسر أنه تمهيد لحل مصرى اسرائيلى منفرد ٠

وأعود الى هؤلاء الذين يريدوننـا أن ننغلق على أنفســنا ويكفينا عروبة ٠ ان هذه دعوة ضد مصر أولا ٠ أنها مثل العــالم

الذى يقضى عشرين عاما ليكتشف الدواء ثم فى لحظة اكتشـــافه يكفر بالدواء والعلم معا ٠

أن هذا الدور البطـــولى الذى لعبتـــه مصر وأخرجت به الاستعمار الانجليزى والفرنسى ودخلت حربا دفاعا عن ســـوريا ضد حشود مزعومة على حدودها ، هؤلاء الشهداء الذين ماتوا ، هذا العدد المخيف من المصريين الذين يعلمون العرب ويعالجونهم ويخططون لهم وينشئون دولهم التى لم تنشأ بعد ٠ هذا كله استثمار بشرى مادى ومعنوى ٠ هذا كله الضريبة التى يدفعها الاب فى أعظم سنى شبابه الضريبة التى دفعتها مصر طوال ربع قـــرن أو تزيد ، وحين آن اوان عائدها حين يكبر ابناؤه ويبدأون يردون له ما فعل ينفض يده منهم قائلا : لستم منى ولست منكم ٠ أنه عبث وهـــراء ودعوة تقتلنا قتلا ٠ فمصر بنفسها فى حاجة الان للعرب مثلما كان العرب فى وقت ما فى حاجة اليها ٠ فى حاجة لرؤوس الاموال ، فى حاجة الى توظيف أبنائها واستغلال ذكائها ، فى حاجة الى ســـوق لبضائعها ، فى حاجة أن تجعل من حلم ثورة ٢٣ و ١٥ مايو حقيقة ٠

ورقـــة أكتوبر :

أن ورقة أكتوبر مكتوبة لنا نحن المصريين وأنا معهـــا على طول الخط ٠ فهى أحلامى فى مصر العظمى ، وان سياسة الرئيس السادات العربية تلقى استحسانا كبيرا من معظم الحكومات العربية فقد كبرت الحكومات العربية ، بل ينبغى أن يكون انفتاحا على العالم العربى أجمع ، ولا نقـــاطع أى دولة عربيـــة ، فما من كاتب أو مسئول تناقشت معه الا وكان مقتنعا أن الاستعمار يريد أن يعيـــد اللعبة القديمة فى اقامة المحاور العربية ٠

ان اللعب فى المنطقة قائم على قدم وســـاق ، والهدف احالة مصر الى دولة عربية من الدرجة الثانية ، بينما مصر لا تزال هى مصر ، هى كعبة الامة وليس ضروريا فى هذه المرحـــلة بالذات أن يكون الانسجام السياسى على أشـــده ، فليكن لكل حاكم أو حكومة

رأيه أو موقفه وانما الذى لا يجب أن يحدث أبدا هو أن تبدأ السياسة بقطع العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية ، مثلما كان خطؤنا الاكبر أيام فكرة القومية العربية ، لنضع سياسة اقتصـادية ثابتة لنعطى فيها ونأخذ ٠

اننا كما نريد أن ننفتح على العـالم أجمع ٠٠ على أمريكا وعلى روسيا وعلى افريقيـا حتى ، مهمـا اختلفت نظم الحكم فى تلك البـلاد ومهما كان رأينا فيهـا ، من باب أولى أن ننفتح على اخوتنا وأشقائنا وكلهم وبلا استثناء ، انها بلاد تغيرت ونشـطت ودبت الدماء فى عروقها ، ولكنها دائما وأبدا تنظر لنـا باحترام ، ودائما وأبدا تعتقد أن القضاء على مصر هو قضاء مؤجل عليهـا ، وتريدنا أن نقف على أرجلنا ، ليس فقط لاننا قلبهـا وروحها ولكن حتى لمصلحتها الذاتية ، ودفاعا عن نفسها هى ٠

عشرون عاما ونحن نكافح عربيـا حتى ولو بطريقة خاطئة أحيانا ، أعتقد أنه آن الاوان لنجنى ثمـار هذا الكفاح ولتفشـل المؤامرة ، التى تعد ومنذ الان لاحلال الصراع العربى ــ العـربى ، مكان الصراع العربى الاسرائيلى وهذه فى رأى خطة أذكى وأكثر تطورا ٠

والخلافات (الايديولوجية) هى رأس الرمح فى ابقاء هذه الشعوب بعيدا عن التفكير فى أنهـا تملك هذا الكنز فعـلا بينما شعوبها لا تزال من أفقر شعوب الارض ٠

أهى صـدفة ؟

أننا فى حاجة الى ورقة أكتوبر أخرى نخاطب بها الرأى العام العربى ، ولا ندافع عن أنفسنا أو سياستنا ، وانمـا نشرح وجهـة نظرنا ، تلك التى لا يزال البعض لا يفهمها تماما ٠

واذا كانت ورقة أكتوبر قد جاءت لتعيد للطموح المصرى بعض ما فقده فنحن فى حاجة أمس الى الخطوات أخرى ايجابية ، فى

حاجة الى وجوه ثورية حقيقية تخاطب ثوار المنطقة الذين أصبحوا هم القوة الفعالة ، فى حاجة لنعيد للفكر المصرى وللكاتب المصرى وللصحيفة المصرية دورها الذى يتعاونون على خنقه لسنا فقط فى حاجة لانفتاح اقتصادى تحضر الينا فيه الرساميل ، ولكننا فى حاجة لانفتاح معاكس ، نصدر فيه ثروتنا الحقيقية ، مصر العلم والحضارة والقيادة والافكار ، ولا يمكن أن تنحصر هنا فقط فى حل مشاكلنا العاجلة فهى حتما لن نستطيع أن نحلها بالانغلاق عليها ، ان حلها الاوحد هو بالانفتاح على عالم عربى لم يفت بعد الاوان لدورنا فيه ، كل العالم العربى وكل الدول العربية وليس بعضها المنتقى فقط . ولو فات دورنا وتمت الخطة الجهنمية فسنكون نحن وليس المشرق أو المغرب أول الضحايا .

ومرة أخرى أعود وأقول أنى كتبت هذا عام ١٩٧٤ .

عن عمـــد أسمع فتسمع

ذاهب أنا لزيارة مكتبة مدبولى فى ميدان طلعت حرب ، ولكنى قبل الباب بقليـــل توقفت اذ كنت لحظتها احدق ناحية التمثـــال ، بالضبط احدق فى وجهه ·· فركت عينى بضع مرات وعدت انظر ، فعلا كانت شفتا التمثال لا أقول تتحرك ، ولكنها بالتأكيـــد تتململ كالسجين الذى فرضوا عليه الصمت عشرين عاما أو أكثر ، تتناضل وتتزامم وتكاد بعد ومضة تفتح على اخرها وتطلق صيحة استغاثة تصم اذان الكون وتوقف الحركة الدائبة حولها فى الميدان وتخرس الارجل المنطلقة فى تباطؤ سريع أو سرعة طائشة الى حيث ــ حتى صاحبها ــ لا يعلم احـــد · صرخة تأكدت أنهـــا لو حدثت وانفلتت لاجبرت قاهرة سعد الدين مامون ذى الملايين الثمانيـــة أن تفعلها مرة وتخرس وتصمت وتسمع ·

هب أنه خيال كاتب أو مزيج من واقع أشد غرابة من خيـــال أى كاتب ، هب انها امنية ، هب انها معجزة لابد اذا ظل الحـــال على هذا المنوال ان تحدث أو ربما يحدث ما هو اشد منهـــا هولا وارعـــابا ·

احسست بالشفقة تجمدنى فى مكانى ، نسيت اسم الكتـــاب الذى كنت زاهبا لشرائه ، حتى نسيت الى اى مكان كنت ذاهبـــا ،

واستغرقنى التمثال بقامته القصيرة وجسده ، الذى بدا فى نظرى يرتعش تململا وغضبا ، الجسد الممتلىء الواهن رغم امتلائه ٠

ـ مالك يا باشا ٠٠ ما بك ؟

التمثال موضوع بحيث لا يمكنك ان تراه وجها لوجه الا اذا وقفت فى منتصف الجزء الاول من شارع قصر النيل ومـرت فوقك على الأقل مائة وخمسون عربة ملاكى واجـرة ونصف نقل ٠ لابد اذا اردت ان تراه بزواية وان يراك بنصف وجه ٠

ارتفع الحاجب النحاسى الصدىء حتى تجعد الجزء المقـابل لى من الجبهة ، ارتفع دهشة اذ لابد ان ما حدث كان شيئا فى رأيه خارقا للعادة ، له فى هذا المكان خمسة عشر عاما أو تزيد ، الملايين جاءت الميدان واخترقته ودارت حوله ، الملايين تلكأت أمام جروبى وامام البوتيك وأمام بائع الجرائد ، الملايين هرأت الارصفة الأربعة الدائرة وربما لم يعن لواحد منها ان يرفع راسه ليرى طلعت حرب أو يتمعن فى ملامحه ، اما ان يسأله ما به ، فلابد فى رأى الباشـا النحاسى ان شيئا حدث للكون وخرق ناموسه ، وكان واحـــدا من ملايين التماثيل النحاســـية والبرونزية والخشـــبية والجميزية ، تماثيل ابلاكاشـــية وكرتونية وعرائس مـولد وعرائس ماريونيت وعرائس القشطة وعرائس كالسيد قشطة ، لابد ان اهتز ناموس الكون وخرق قانونه واحد من هذه التماثيل المارة ودبت فيـه الروح وفتح عينيه ورأى ، رأى الباشا التمثال ، وعرفه ، وادرك أنه مأزوم الى درجة تقارب الانفجار ٠

بلا شك كانت دهشة التمثال لسؤالى اياه عن حاله اكبر بكثير من دهشتى أنا حين سألته فنطقت ملامحه وارتفـع من الدهشـــة حاجبه ٠ دهشة شديدة دفعت به ليس فقط ان تتجعد جبهته وانما ان يستدير بوجهه ليواجهنى ، اجل يستدير بوجهه ويواجهنى ٠ حركة رآها مئات الناس الذين يحفل بهم الميدان معى ولكنى اكاد أقســم ان احدا منهم لم يرها شيئا غريبـا ولم يجد فيهـــا ما يبعث على الدهشة ٠ ومعذور الف مرة ، يندهش على ايه ولا ايه والا ايه ٠

المستشار الذى يقطن فى المنزل المجاور لبيتنا رأى العفاريت وبهدوء أعصاب تام استدعى البوليس ، وايضا لم يندهش ضابط البوليس وبكل روتينية كتب بيد غـــير مرتعشـــة فى المحضر ٠ وحيث اننا شاهدنا بانفسنا الارواح الشريرة وهى تفتح الابواب عنوة وترفع الاطباق فى الهـواء وتقـذفها الى الارض حيث تنكسر وتتنـــاثر شظاياها فقد رأينا أن نرسل فى طلب شيخ من مشايخ الجن المدرب على ترويضها وجاء من مصر القـــديمة وانهى المهمـــة ، وهجعت حركة الجن فى الشقة تماما وقيد الحادث ضد كائنات مجهـــولة حيث ان الشيخ لم يستطع ان يتعرف على احد من الجن باعتبارهم ليسـوا من ذوى السـوابق ، وقفل المحضر ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠٠ ينهدش على ايه واللا ايه واللا ايه ، البنت المفعوصـــة التى كانوا يســـمونها نعســـة الحـولة جاءت بالامس تـزور الحتـــة فى (حتة) مرسيدس تمساح لونهـــا أحمـــر واصـــبح أسمها دوسة وشعرها ذهبى وتدير امكنة بلغت من تعددها أن اتخذت لهـــا فى احدها مكتبا بسـكرتيرة وتايبريتر ، اماكن يرتادها اناس من غير حاجة الى جن يرفعون بالنقود كاساتهم وتطير رؤوسهم نفسـها فى الهواء ، بموافقة ضابط اداب دون محاضر الا محاضر لا يوقع عليها متهم ، محاضر انس يقبض فيها بدل اغلاق العين اياها ٠٠ يندهش من ماذا وكم الدهشة اصبح أكبر بكثير من كم اللادهشـــة مثلما اصبحت القذارة اكبر بكثير من طاقاتنا وطاقة البلدية والمحافظـة وربما جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية على النظافة يندهش على ايه وللا ايه وفى كل بلاد الدنيا يخترعون التليفون والعربة والقطار والاوتوبيس لتكون وسائل اتصال اسرع ونحن ابدا لا نندهش حين تتحول عندنا فقط الى وسائل انفصال دقيق وكأنها اخترعت لتعزلنا أو لتعطلنا أو لتضيع وقتنا وارواحنا ٠

المهم أبدا لم يندهش أحد وطلعت حرب ـ التمثال ـ يستدير برأسه الهائل ويواجهنى وقـــد كسيت ملامحـــه بمزيج غريب من الدهشة ولا أقول الرعب ٠ والحيرة والغيظ ، ثم اخيرا شىء وكأنه عودة الروح التائهة فى صـــحراء بشرية يصرخ وينادى لخمسة عشر عاما بلا امل فى جواب وأخيرا هاهو ذا يتلقى الامل فى رد ، أمل حقيقى ، بدليل ان شفتيه راحتا تتحركان بكلام ، ضاع طبعـا

وسط الضجيج الهائل الذى تصنعه صفافير وزعقات وميكروفونات أربعين ضابط مرور وعسكرى وامين شرطة واقفين لينظموا المرور فى اضبط مكان (بحكم جغرافيتـه) لانسـياب المرور · تحركت شفتاه ، اصغت سمعى ، وضعت يدى مفرودة خلف أذنى لتلتقط ما يريد قوله · اشرأبت اطراف اصابعى ، سددت الاذن الاخـرى · بلا فائدة · وكان على ان اعدى الميدان واندفـع الى حيث قاعدة التمثا ل· محاورة سريعة كالطلقات دارت بينى وبين امين الشرطة :

ـ ممنوع يا فندم ·· امش ع الرصيف ··

ـ بس أنا رايح لطلعت باشا ·

ـ من ع الرصيف أرجوك ·

ـ بس هو فى الميـدان ··

ـ شاورله واتقابلوا بـره ·· بعيد عن الميدان من فضلك ·· اذا عديت غرامة ·· خمسين قرش ·

ـ بقول لك عايز طلعت باشا ده ·· (واشرت للتمثال) ·

ـ يا فندم ما فيش وقت ·· عـايز طلعت باشـا ·· سليمان باشا ·· أى باشا أى بيه أى حـد ·· ع الرصيف من فضلك والا الغـرامة ··

ـ اتفضـل ··

ودفعت الغرامة · وانشغل هو فى تحرير ايصال لم احفـل به · ورأسا اتجهت لصرة الميدان · وعلى رصيف الصرة وقفت · وبأشد الزعيق من ناحيته (فقد كان صـوته الطبيعى منخفضـا وكان قليل الكلام) وباقصى ما استطيع من رفع صوتى دون ان الفت أنظار ضابط المرور الجالس فوق موتوسيكله ذى الصوت المزعج ، تكلمنا ·

ـ مالكم يا بنى ؟

مالنا ؟ اقول لك ايه واللا ايه واللا ايه يا جدنا الباشا · زى مانت شايف ·

ـ أنا مش شايف حاجة ابدا من كتر الزحمة ·

ـ ولا احنا وحياتك ·

ـ ومن اللى قال لكم حطونى هنا ··

ـ شلنا سليمان باشا الفرنساوى وحطيناك ·

ـ كيف تشيلون بطل مثله كان أول من نقل الجيش المصرى من القرون الوسطى الى العصر الحـــديث ، وتحطونى انا ·· أنا الذى لم أصنع شيئا ·

ـ أبدا يا باشا ·· هذا تواضع ·· أنت الذى خلقت الصناعة المصرية الوطنية ·· أنت سعد زغلول الحقيقى فاستقلالنا ظل نظريا الى أن انشأت انت بنك مصر وشركاته ·· أول انتفاضة للاقتصــاد المصرى التى صنعت منا فعلا دولة ولولاها الان لكنها مجــرد جزر مايوركا ·· انت الذى ··

ـ لا أنا ولا أنت يا بنى ·· دعنا من دورى ، فأنا محكوم على بالسجن داخل هذا الميدان ووجهى الى حائط الهيلتون الذى بنوه ، لا أحد يسأل عنى أو يستفيد بى أو يرجع الى أو الى آرائى · قلقى على أولادى زاد · أكاد أبكى ·

ـ أطمئن يا باشا ·· أولادك جميعا على خير ما يرام ، أقل من فيهم رئيس مجلس ادارة بنك أو وزير أو حتى مليونير لحسابه الخــاص ··

ـ هؤلاء تلاميذى ·· ولكنى اتكلم عن أولادى ··

ـ ما أعرفه يا باشا أنك لم يكن لك ذرية ·

ـ اتكلم عن بنك مصر وشركاته ·· لماذا لم تعودوا تفهمون بسرعة ·

ـ لان الخبز الذى نأكله يا باشا فيه مكونات العلف أضعاف أضعاف ما فيه مكونات العيش ٠٠

ـ معلش ٠٠ مجرد ازمة ٠٠ ستمر ٠٠ رأينا ما هو أبشع منها فى الثلاثينات ٠٠ سأسألك الان عن أولادى واحدا واحدا ٠٠ كيف حال البنك ؟

البنك عال والحمد لله ٠٠ الودائع كثيرة ٠٠ والموظفون بالالاف ٠٠ والافرع فى كل مركز والأشيا معدن ٠٠

ـ طيب كانت هناك ابنة لى أعزها كثيرا ، ومت وهى صغيرة انما كانت ناجحة تماما وكانت تنتج فى العام أكثر من ثلاثين فيلما ٠ ماذا حدث لها ٠

ـ تقصد شركة مصر للتمثيل والسينما ٠ رحمها الله ٠

ـ ماتت ؟!

ـ ليتها ماتت انما هى بالحياة ماتت ٠ سينما استوديو مصر اعتقد انها مغلقة للتحسينات منذ أكثر من عشر سنوات وللآن لاتمت تحسينات ولا فتحت ابوابها للجمهور ، مع أنها تحتل قلب القاهرة ٠٠ استوديو مصر الذى ينتج ثلاثين فيلماً وعدد موظفيه لا يتجاوز الثلاثين أصبح فيه آلان الف موظف وعامل ولا ينتج فيلما واحدا واخيرا أجروه لشركة تليفزيون ٠٠

كادت الدموع تنساب من عينيه ، لمحت فعلا وجنتيه تلمعان بدمع اختلط بصدأ النحاس الأزرق ٠ وفجأة سأل :

ـ وشركة مصر للطيران ٠

ـ أعلم يا باشا ٠٠ لقد كنت فعلا انسانا عظيما تقدمى الفكر ٠ لم تكتف بالدعوة لتمصير الاقتصاد المصرى فى وقت كان الخواجات فيه كالقوتين العظميين فى العالم الآن ٠٠ فتوات

الاقتصاد ممكن ان يفترسوا أى منافس ويمسحوه من على وجه الارض • نزلت بنظريتك الاقتصادية الوطنية الى أرض الواقع الرهيب • ومن قروش المصريين الفقراء أنشأت بنكا • ولم تكتف بأن يقوم البنك بتمويل شركات مضمونة الربح كما فعلت بانشاء شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، بل أيضا قفزت بأجور عمالها وأول من أنشأت للعمال فى مصر مساكن فقد كانت نظريتك أن الأجر العالى والحياة المضمونة هما الدافع الحقيقى لزيادة أى انتاج ، لم تكتف بانشاء شركات مضمونة فى الربح ، بل ومضمونة السوق ، بتصنيع أعظم خامة قطنية فى العالم وطرحها غزلا أو نسيجا بحيث لا يستطيع أى أنسان فى العالم منافستها ولكنك أنشأت ورعيت ومولت شركات كانت تعتبر فى رأى كثير من اقتصاديى ذلك الزمان بل وربما هذا الزمان أنواعا من التخريف والسفه • أنشأت ، والطيران يكاد يكون معروفا وربما حتى غير معترف به كوسيلة للسفر والانتقال • انشأت أول شركة طيران فى افريقيا كلها •• والمضحك أنها فى ذلك الزمان البعيد كانت لا تغطى مصروفاتها فقط ولكنها كانت تربح ربحا كبيرا • بل أكثر من هذا (جنونا) أقصد رؤيا عميقة ضاربة فى ضباب المستقبل تدرك كنهه ، أنشأت شركة مصر للتمثيل والسـ[illegible]ـا فى الثلاثينيات أى لم تكن قد مضت ثلاثة أعوام فقط على اختراع السينما الناطقة •

وكأنها مصر الآن تنشىء مصنعا لصناعة العقول الالكترونية أو ما هو أحدث ، انشاء واستنباط وتشغيل أشعة الليزر • ولو عشت لمصر يا باشا لكانت لدينا من المحتم مصانع لانتاج الطاقة النووية وليس مجرد استيراد مصانع لانتاجها •

بل انك أيها الاقتصادى الخارق الذكاء قد أدركت فى هذا الزمن السحيق أن لا اقتصاد حديث بغير صناعة حديثة ولا صناعة حديثة بغير انسان حديث ، انسان حديث بمعنى أنه ليس مثقفا تلك الثقافة العامة العالمية ولكنه مثقف الوجدان ثقافة وطنية فنية نابعة من صميم أحاسيسه الأصيلة وقيمه وانسانياته وهكذا كنت أول اقتصادى ينشىء جنبا الى جنب مصنع القطن ومصنع الغزل ، ومصنع الفن (السينما) مسرحا ، هو مسرح الازبكية اليتيم الذى

كان شرطك لانشائه أن يقدم فقط الانتاج المسرحى الوطنى المصرى الرفيـــع ٠

أما المضحك حقا يا باشا ٠ المضحك الى حد البكاء ٠ اننـــا ، وبعد أن سرنا على منوالك فى ثورتى ٢٣ يوليو و ١٥ مايو ومصرنا البنوك والشركات وامممنا الصـــناعة وبدأت تصبح لدينــــا بعض الصناعات المتقدمة التى نستهلك نحن معظمها ونصـــدر بعضها ٠ وحتى جئنا بالانفتاح وسياسته مقصودا به أن يكون دعما للصـناعة الوطنية بحيث ننفتح لنستورد من كافة اقطار الأرض أدوات انتـاج وعقليات حديثة تدير انتاجنا الوطنى الحديث ، فهم قطاعنا الزاخـر الخاص أنه انفتاح لأجـل أن يغتنى بعض النـــاس ، ومن أجل أن نغرق أسواقنا بالبضائع الاستهلاكية الاجنبية حتى لو كانت أقـل جودة من بضاعتنا المحلية ٠ جئنا بالمنسوجات ـ تصور يا باشا ـ لتنافس (اللينوه) والـ (جيل) جئنا بالموكيت ومن أغلى مصادره لينافس مصانع السجاد الرائعة فى دمنهور ، فتلنـا ذلك الذى بدأ على يديك جنينا سرعان وبقوة صاروخية مانما وجـــاء الحرب العالمية الثانية ليشب عن الطوق وجاءت ٢٣ يوليـو ليصبح قـاب قوسين أو أدنى من النضج ، وفتحنا النوافذ له بثورة ١٥ مايو كى يتنفس ويطل على العالم ، فاذا ببعضنا يستورد الغـازات الخانقة والسائلة والسفن أب لتحيله الى جثة ٠

المضحك ٠ المضحك الى حد البكاء ٠ يا باشا أن الشركة التى أسستها وسميتها (شركة بيع المصنوعات المصرية) لتتخصص فى عرض وتسويق منتجاتنا المصرية فى مصر أولا ثم فى بلادنا العربية والافريقيـة ثم فى العـــالم ٠ هذه الشركة هى الآن شركة لبيـــع المصنوعات المستوردة ، كل ما فيها مستورد ، تنافس تجار الشواربى وأصحاب البوتيكات فى استيراد ورق الحائط الانجليزية والسجاد البلجيكى والمصنوعات الفرنسية والايطـــالية واليابانية ٠ أصبت باختناق وأنا أرى فترينتها وفترينة عمر أفندى وصيدناوى ، حتى أيام الخوجات ٠ كانوا يفضلون أولا عرض البضـــاعة المصرية لان المصريين أيامها كانوا فخورين بصـناعتهم الوليـــدة وبمصريتهم الوليدة أما الطبقة النجسة التى فى يدها النقود الآن فهى بقـــدر

ما تجعجع بذكر (نحن مصريون) ، ومصر أولا وأخـيرا اذا ذكرت الثقافة أو المعرفة أو تشـغيل العقل ، تصـاب بالارتيكاريا اذا اضطرت لشراء مصرى أو لاستعماله · تصور يا باشا أنا أشـعل سيجارتى المستوردة بعود كبريت مستورد بينما صـناعة الكبريت فى مصـر منشـأة منـذ ١٨٣٠ وبينما لدى شـركة النيـل كبريت قيمته مليون جنيـه احترق ـ فى مخازن الشـركة لأننـا نعطى باجرام شديد تصاريح لاستيراد كبريت أجنبى ثمنه خمسـة أو سبعة أضعاف الكبريت المصرى ·

وأنا أفهم أن يصيب النزق بعض الافراد أو التجـار أما أن يصيب النزق العمود الفقرى لصناعتنا وتجارتنا الوطنية أما أن تتحول شركة بيع المصنوعات المصرية الى بوتيك للبضائع الاجنبيـة فهنا لا يصبح النزق نزقا ، وانما يصبح خيانة ، لقد كافحت مصر مئات السنين لكى تستعيد استقلالها السياسى ولهذا فهى تحـكم بالاعدام على أى انسان يحاول اخضاعها أو سرقة هذا الاسـتقلال ولقد كافحت مصر بك يا باشا ومن قبلك ومن بعدك وكافحت طويلا من أجل أن تكون لنا صناعتنا وتجـارتنا فاذا انتهينا الى أننـا أصبحنا نستورد اللبن الزبآدى ·· تصور يا باشا ·

لا يمكن أن تكون الاصابة فى عقولنـا قد وصلت الى حـد أرتكاب الجريمة مع سبق الاصرار والترصـد ، ولا يمكن أن تكون القوة الوطنية الاقتصادية المسيطرة قد وصلت الى هذا الحـد من المداراة على الجريمة لتكريس ما يفعله المجرمون ، بل ، وهذا هو الأدهى ، اخضاع القطاع الصناعى والتجارى العام للذين يعـدون لقتل صناعتنا وتجارتنا وانساننا اخيرا بهدف ربح حقير مهما قيل عنه وقيل فى تبريره ·

* * *

دوت الصرخة ، أعلى من أى أصـوات قنـابل وانفجارات سمعتها ، وصلت عنان السـماء ، أيها المصريون ·· يا أصـحاب مصر ·· هل متم ·· ألا تعرفون هذا كله ·· لماذا انتم ساكتون ··

يا من علمتكم وطنية الاقتصاد واقتصاد الوطنية ٠٠ يا من مت أحلم بجيش يحمى انساننا واقتصادنا واستقلالنا ٠٠ أين ذهبتم ٠٠ أضاعتكم المناصب والتوكيلات ٠٠ أمات عندكم الضمير ٠٠ يا مصر ٠٠ أين ضميرك الاقتصادى ٠٠ أين ؟ ! استمع اليها وأستمع ٠٠ ولا أحد يلتفت ٠٠ لا أحد هنا ٠٠ لكأننا فى الربع الخالى مع أننا فى قلب العاصمة ، وتماما بجوار الصارخ المتحدث ٠



ولا يزال طلعت حرب الى هذه اللحظة يجأر ويصرخ ، عيونه تقدح النار والكلمات من شفتيه كالرصاص تنهمر وتتدفق ، ولكن المشكلة ، هل من يسمع ، هل يتوقف أحد ليسمع ، حاول أنت ٠ مر فى الميدان وقف ، وتطلع الى ملامح الرجل ووجهه ، وكالرعد حتما سيأتيك صوته ٠ المشكلة فقط أن ــ عن عمد ــ تذهب ، وأن ــ عن عمد ــ تتوقف ، وأن ــ عن عمد ــ تحاول أن تسمع وتفهم ما تسمع فستسمع ٠

المستقبل والعنبر

حين وقفت ، واسع العينين ، أحملق ، لا فى الشاب أو الفراش، أو العنبر ، وانما فى الكلمات المتدفقة من هذا الفم الذى فقد بعضا من أسنانه الامامية ، السمرة المختلطة بحب الشباب وحبات العرق والشحوب ، الكلمات التى تروى كيف فقد قدمه . القدم لم تكن أمامى على الفراش ، أمامى على ملاءة السرير كانت الساق سمراء جدا ورفيعة وتنتهى الى لا شىء ، وكان الجرح ملتئما تماما وكل شىء على ما يرام وكأن عصا ساحر خبيث مجنون مرت على القدم فاختفى ولم يبعد له أثر ، ازدحمت خواطرى بآلاف الافكار وعشرات السنين والمعارك . أحسست أنى ومن أعمق أعماق النفس بدأت أنفعل انفعالا حقيقيا صادقا لا يمليه واجب المشاركة ، ولا سمعة ٦ أكتوبر المجيد ، أنفعل أمام عظمة الانسان المصرى ، أكاد اخر ساجدا ، ألثم نهاية الساق اغسلها بدموعى ، دموع تعسرت على عينى يوم مات أبى ، تملأ الان جوانحى ، تفور كالبركان فى مآقى ، تريد أن تنفجر . دموع حبستها طويلا وكثيرا ، دموع كنت أختزنها لليوم الاعظم ، ولم يكن اليوم الاعظم فى نظرى يوم معركة ننتصر فيها ، أو قتال نعبره ، وانما يوم ألتقى بالانسان المصرى الاعظم ، الذى يجعلنى احس ، دون أن يدرى ودون أن أدرى ، أنى الى جواره ضئيل وأنه أعظم من الارض ومن التراب ، وأنى لاول مرة فى حياتى أحس

أنى على استعداد ان أموت أنا من أجله هو ، بنفس البساطة التى تتدفق بها الكلمات من فمه أموت ، فكلماته على عكس ما توقعت لم تكن تتحدث عن اصابته هو ولا قدمه ، انما كانت تتحدث عن قائد الكتيبة والدبابة ، عن شجاعته وقدرته ، عن اقتحاماته ، عن كيف أصيب ، اصابة و (الحمد لله) بسيطة واخباره كويسة ، وقريب الخروج ٠

كنت ، وجلا ، غير شديد الحماس قد ذهبت الى القصر العينى ٠ ان زيارات الجرحى وجهود السيدات والنجوم فى هذا المجال قد أصبحت المادة الرئيسية لاخبار الناس ، وأنا يزعجنى الاشياء المقدسة حين تصبح مادة الحديث العام ، وأوثر ان تبقى بعض المقدسات كالحرمات ، تعلن عن نفسها فى صمت ، ونقف أمامها فى خشوع ، وكان أخوف ما أخافه أن أذهب فأجد البطولات قد تحولت الى أحاديث ، ولا أحظى بلحظة صدق ٠

القصر العينى ، يا له من قصر ، لى أعوام كثيرة كثيرة لم أدخله ، القصر العينى الجديد قديما قد شاخ وعجز وامتلأت حيطانه بالبثور والنتوءات والشقوق ٠ هنا قضيت صدر الشباب طبيبا ، أسرع عبر الممرات فى البالطو الابيض المهفهاف ، وأملأ الدنيا بابتسامة مستقبل عريض كنت أعرف تماما أنه أكيد ٠ مستقبل انتهى بعد عام وبعض عام حين لم يعد لى فى الطب مستقبل ٠ دخلت العنبر ٠ كانت الدنيا مغرقة فى المساء ، والضوء ليس قويا ، وعلى الجانبين الاسرة ، فوق كل سرير جريح ، فوق كل سرير قصة كبرى ، حتما فوق كل سرير قصة كبرى ، فكل منهم كان له عالم ، جاء من أم ، وله أب ، وربما زوجة وأولاد ٠ قصة التحام كل منهم كأفراد جاءوا من جميع عوالمهم وبقاعهم مع الام الكبرى ، مصر ٠ كيف حدث الالتحام ، كيف أحالوا اللقاء جحيما ينصب فوق رؤوس الاعداء ، كيف خرجو ، كيف نجوا ، كيف هم الان ومن أين ابدأ ٠ وقفت ، أبعد الستار وأقربه ، أمسح الرجال بعينى وفى نفسى خشوع ٠ ان للجماعة رهبة وخشوعا فما بالك وهؤلاء ليسوا مجرد جماعة ، ولكنها جماعة مقاتلين جرحى ٠ ان للجروح هى الاخرى وللسيقان والاذرع والاطراف الموضوعة فى

الجبس والتى بترت أو تنتظر البتر ، رهبة · فى خشـــوع وقفت ، محتارا بأيهم أبـدأ ، أو ماذا أقـــول · ماذا تعنى حمد الله على السلامة حين تقال ، وهل تقال الكلمة العادية كهذه فى الموقف غير العادى كذاك · من أنا هنا ولمـاذا جئت وماذا أفعل أمـــام هؤلاء الذين أدين لهم أنى حى سليم وان عائلتى فى البيت مطمئنة سليمة لم تمس ·· ساعدنى يارب فاللحظة حرجة وأنا خجول أنى لم أكن معهم وأنى غيرهم لم أدفـــع ضريبة دم ولا نلت فى حيـــاتى هذا الشرف ·

فى وجل رحت أخطو تجـــاه الجريح الاول · بالكاد خرجت من فمى كلمات تتعثر · لم أسمعها أنا أو يسمعها أحـــد · فجأة وجدت نفسى غارقا فى فيض الحماس المصرى · فى حرارة رحب بى الشاب الراقد · أنسانى القصر الجديد ومن أنا واذهب الخشـوع والوجل · هذا الصـدر المصرى الحبيب يتفتح على مصراعيه لى ، ولاى غريب ، فينسى الغريب غربته ، ويجد نفسه فى ثانية قد دخـل الصدر وأصبح قريبا من القلب ·

ومن القلب الى القلب مضى الحديث يـدور · وما هكذا أى شعب آخر ، ولهذا ننفرد ونسمو نحن المصريين · وليس عيبا أبـدا أننا نفتح الصدور على مصـاريعها حين نلتقى فهذا هـــو الشىء الجدير بالانسان ، اذا كان انسانا حقا ، أن يفعله ·

الذى اذهلنى أن احـــدا منهـم لم يبـدأ الحـــديث بنفسه أو باصـابته كان الحديث دائمــا يبدأ بالمعـركة الكبرى · كيف دارت وماذا حدث ، ثم ما حققته الوحـدة أو الكتيبة وما قامت به من دور ثم ، وبناء على سؤالى فقط ، بـــدور الحديث عن كيف أصيب · حديث قصير جدا لا يأخـــذ أكثر من لحظـــة : انضربت الدبابة بالصاروخ وأفقت فلم أجد أصابعى فى عودتنا طارت فوقنا الهليوكوبتر وسقطت قنبلة وقمت لاواصل السير ولكنى سقطت · كانت ذراعى وســاقى والقميص والبنطلون قـــد تمزقت واختلطت الدماء بالقماش وبالرمل · فى عودتنا بعد نجاح لمهمـــة أحسست بكتلة عريضة كأنها حائط رصاص ترتطم ببطنى وكانت الاصابة -

لولا ماشيست هذا (جندى من القوات الخاصة واقف بجوارنا هكذا يسمونه) لكنت مت . وجدنى فى عودته راقدا . حاول أن يحملنى . طلبت منه أن يذهب وحده فغير معقول أن يحملنى مسافة طولها أكثر من عشرة كيلو مترات ، ولكنه حملنى بالقوة . ماشيست يرد بالمرح المصرى الاصيل : لو كنت أعرف أنك طويل اللسان هكذا لتركتك تلعق رمال سيناء بلسانك .

العنبر . وجدته ، وكلما انتقلت من فراش الى فراش يتسع ويتسع ، ويطول ويطول ، وسقفه يعلو ويعلو ، وكأنما يريد أن يشمل مصر . وأى مصر .

مصر هؤلاء الفلاحين وأبناء الفلاحين والعمال وأبناء العمال ، خريجى الصنايع وأصحاب المؤهلات ، شبان المدينة ، وشباب القرى ، مصر التى طالما نظر لها العالم على أنها مسكينة ملأى بالمساكين والفقراء . نعم ، بفضل التسلط الاستعمارى ظللنا لامد طويل مساكين وفقراء ، وللآن لم نزل فقراء ولكنا لم نعد مساكين ، فالبطولة الحقة أن الذين قهروا عدونا الشرس ، الذين دكوا الحصون ، وعبروا المياه ، وسحقوا الدبابات والطائرات ، ومحوا أسطورة أسرائيل ، البطولة أنهم ليسوا عمالقة من بلاد مجهولة ، ولا كائنات خرافية هبطت من السماء ، البطولة انهم ابناؤنا هؤلاء ، ابناء أرضنا ومدننا وقرانا . أناس من دم ولحم وشحوب ، لم ينحدروا من صلب بروسيين ، ولم يكونوا كالانجليز قراصنة بحار ، ولا كان آباؤهم مقاتلين ، البطولة الهائلة الحقة ، أنهم هكذا ، بالتلقاء البسيط ، بالبطولة حين تزاول كعمل يومى لا فخر فيه ولا ادعاء ، بالمعجزات حين تتحقق على أيدى البسطاء ، البطولة الحقة أن هؤلاء هم الذين صنعوا النصر ، هم الذين سيروى عنهم التاريخ الى أبد الابدين .

حين انتهى الشاب سائق الدبابة من الحديث عن القائد وبطولته سألته كيف حدثت الاصابة وأزالت قدمه : أبدا . أنا مقعدى فى مقدمة الدبابة . أثناء معركة الدبابات جاء صاروخ أصاب المقدمة وأخذ قدمى . ولم تكن تلك المرة الأولى التى تصاب

فيها الدبابة • أصيبت مرتين وأصلحناها ولولا أنهم انتزعـونى من مقعدى وأن الصاروخ أصــاب بدال البنزين لاصلحتها بنفسى وواصلت القتـال •

سعيدا كان يتكلم ، سعيدا الى درجة النشوة ، كانت الحرب وذكراها تمثـل له قمة النشوة ، فأخيرا ها هو ذا يلاقى عـدوا متجسدا أمامه لاول مرة وينشب فيه أظفاره ويعلو به الصـــدام الى قمة النشـوة •

أقسم أنها كما صنعت مصر الحاضر ستضع مصر المستقبل • هبــاء أبدا •

أقسم أنا كما صنعت مصر الحاضر ستصنع مصر المسبقبل •

وكما زلزلت وجود العـدو الاسرائيلى وهدت قواه ، ستصنع لنــا البقاء والوجود •

حيـرة الكاتب

ما كان أضناه من شعور شعورك أن أبناء بلدك وقومك يقومون بالبطولات ، يموتون ، ينتصرون ، يعبرون ، يقاتلون الشيطان العدو وأنت وفقط باذنك ، تتابع أنباء ما يفعلون ٠٠ قتال ؟ أنت غــير مقاتل وغير قادر على القتال ٠ حضور للمعركة ؟ والمعركة قد خططت ليحضرها ويعيشها المقاتلون فقط بلا شهود عيان أو حتى شـــهود عدسات تصوير ٠

ماذا تفعـل وانت تحارب باللاسلكى ، وحتى ليس كمرسـل ، وانما كمستقبل سالب لا حول لله ولا قوة ؟ ماذا تفعـل وأنت لم تشهد ولم تعش ولم تر أعظم لحظات شعبك ، لحظـــات ابدا لن يكررها الزمن فالجيش جيشك الرائع ، قد عبر القنال الى الابد ، واجتاح الى الابد بارليف ، ومنذ الان والى آلاف السنين ، لن يكون هناك ذلك العبور الرائع الاخر ، أو ذاك الاجتياح العظيم ؟ مــاذا تفعـل اذا كنت مثلى قد قضيت صباك وطفولتك وشبابك تحــلم بساعة الاشتباك المروع ، ثم تجيء اللحظة ويدور الاشتباك ، وانت غائب ، ليتك غــائب ، ولكنك الغائب الحــاضر ، المقاتل الــعاجز أصواتا وأمواجا ، الشهيد الحى الجريح مع كل مجروح بغـير دماء ، المنتصر مع المنتصرين بمجرد آهة أعجاب ، ولوعة فــرح ٠ ماذا تفعـل ؟

تكتب ؟!

وما قيمة وما معنى وماذا يمكن للكاتب لو جنـد له جبريل نفسه أن يفعل ؟ فى عنابر الجرحى ، فى الطرقات ، حتى فى المسرح القومى ، كنت اصادف بعض من حملوا على أذرعهم أو أعينهم أو سيقانهم أوسمة ٦ أكتوبر وكانوا جميعا يقولون : لماذا لا تكتب ؟ أنت بعد لم تكتب ٠ نحن ننتظر ان تكتب ٠ لقد عشت تكتب ، فلماذا والان نحيا التاريخ المهول ، لا تكتب ؟ واجلس أمام أوراقى وفى يدى قلمى ، أريد أن اكتب ، لابد أن أكتب بالقلم أقاتل مثلما قاتلوا بالمدفـــع ٠ على الورق اعبر واجتـاح مثلما عبروا الماء والرمال اندفعوا ، أفعـل مثلما فعـلوا ، غير معقول ان لا أفعل مثلمــا فعلوا ، غير معقول أن تكون الكلمة أقل وقعا من الطـلقة ، ولا الجمل أقل فاعلية من الغارة ٠ العجز أحســه ٠٠ العجز يشملنى عكس الارادة العظمى التى بها انطلقوا يتسرب وهنى كالعدو يحيل الحمى التى تجتاحنى الى كلمات مجرد كلمات مثل غيرها مـن الكلمات ، والشعور الهائل بالرغبة فى التضـحية وبذل الذات ، الى شطرات ، كأغان لها شطرات ، تنشدها حناجر مطربين ، وراء الميكروفون يغنون ، وشعراء خلف المناضد المنبسطة يشعرون أى موقف صعب يا الهى ، أيها الاله اعانى وكيف المخرج ؟

ان للكلمة دورا هذا صحيح ٠ ولكن دورها يأتى عـادة قبل المعارك ، قبل « الفعل » ، فهى « فعـل » ما قبل الفعل ، أن دورها ان تجسد الامانى حقيقة ، دورها أن تقرب المستحيل ، دورها أن تحرض ، أن تتغنى بالعمل المقبل ، ان تجعله محط الإمال والرجاء ٠ كانت التقاليد حتى عندنا فى جيوشنا القديمة ، ان يخاطب القائد جنده قبل المعركة ، وقد ذهبت بعض هذه الخطب ، من فرط ما فيها من بلاغة وصدق ، مذهب القطع الفنية النادرة ، والامثال ٠ للكلمة دور فى اعداد الشعوب لمعارك المقاومة ونفض الغاصب ، للكلمة دور فى اذكاء روح المقاومة حتى بعد بدء المقاومة ٠ ولكن ماذا يمكن ان يكون للكلمة من دور ، والعمل العظيم كله ، قد تم ويتم ؟ أن أى تمجيد للتضحية ، بعد عمل التضحية ، شىء لابد يدعـو للاضحاك ، أى تمجيد لروح القتال ، والقتال قد نشب وانتهى شىء يأتى بعد اوانــه ، كالفـاكهة بعد الاوان لا لون لها ولا طعم ولا اشتياق ، وأيضا لابد ان للكلمة دوراً أثناء المعارك والقتال ، اقصد

لابد للكاتب دور . ولكن . هذا الدور لا يمكن ان يؤدى بالسماع أو بالرواية . ان الانسان الكاتب لا يمكن ان ينفعل الا اذا أحس ، وهو لا يحس الا اذا عاش التجربة نفسها ، لا يمكن ان يحس بالخطر المروى ، احساسه بالخطر يحيط به هو ، لا يمكن ان يشيد بلحظة فداء الا وقد ذاقها نفسه . ولقد كان الملوك والولاة يصطحبون الشعراء الى معاركهم ، بأنفسهم يعيشون ويعايشون ويشهدون ليتولوا بعد ذلك الانشاء والانشاد والرواية . أما ان اجلس الى جوار بطل أو جريح ، يروى لى قصة دوره أو دور زملائه ، فقد يبهرنى الحديث هذا صحيح ، وقد اتتبعه بشغف زائد ، ولكنى افعل هذا باحساس الشاهد أو ربما باحساس القارىء الذى يلتهم القصة الرائعة ذلك الالتهام السلبى الممتع . ولنتصور ان يحاول بعض الكتاب كتابة قصص مستوحاة من قصص قرأوها أو سمعوها ، لنتصور كم ستبدو مثل هذه القصة شاحبة شحوب الرواية الثانية المنقولة أو المقروءة أو المبينة على أساس مقروء .

ان التسجيل الحقيقى أو بمعنى أدق التسجيل الدرامى الفنى لاحداث ٦ أكتوبر كان لا يمكن أن يتأتى الا لانسان عاش المعركة ، مقاتلا كان بالبندقية ، أو مقاتلا كان بالقلم أو الكاميرا وفى كل جيوش العالم وحتى أساطيله يوجد سلاح للتصوير السينمائى والتسجيلى فأى معركة يخوضها هذا الجيش أو حتى مناورة ، هى جزء لا يتجزأ من تاريخ الجيش وبالتالى الشعب وتراثه ، وهى ملك لمن خاضوه وحضروه مثلما هى ملك لبقية الشعب الذى لم يحضر ، بل ملك لاجياله القادمة ومستقبله الطويل ..

وهكذا رحت اقرأ الاخبار المحمومة المتحمسة عن الزيارات للجبهة بغير نيران وعن نويا الكتاب العظيمة فى تسجيل وكتابة بطولات ٦ أكتوبر أو حتى اضافة فصول عنها الى قصصهم وأفلامهم : وأنا مذهول حائر لهذه القدرة الهائلة على عمل أى شىء وكأن الكتابة والفن مجرد كلام فى كلام . وكأن الكتابة عن المعارك مسائل يمكن أن تحس وتستعمل كالمراهم من الظاهر . فى الحرب العالمية الأولى وفى الحرب الثانية . فى حروب المقاومة

فى أسبانيا وفيتنام • فى أى حرب قامت أو تقوم • كان الكتاب هناك فى المعركة فى أعمق أعماقها وداخلها ، بأنفسهم بوجدانهم ، بكل خلجة احساس من احاسيسهم ، بكل ما يملكون من قدرة على الانفعال والشعور ، موجودون ليس كمتفرجين حتى أو كمشاهدين ، وانما كمشاركين أساسيين فى المعركة ، سلاحهم الكلمة الطلقة ، والانفعال المتفجر ، موجودون قـــرونا للاستشعار المقدس يملكها الشعب وبها يحس وبها ينفعل وبها أيضا يكون هو نفسه كجماهير عريضة واسعة قد خاض المعركة وعاشها وتنفسها ، ولم أدهش أبدا وأنا اقرأ فى اتحـادات الكتاب وتجمعاتهم فى موسكو ولندن وباريس قوائم بعشرات ، بل أحيانا بمئات ، من الشعراء • والكتاب والصحفيين ومصـورى الســينما استشهدوا وهم يؤدون واجبهم الفنى الأعظم ضمن كتائب جيوشهم وقواتهم •

ان الكلمـة ، ان الفـــن ، لا يمـــكن أن يكـون لــه دور (الكومبارس) ، وخاصة حين يجىء تمثيله بعد انتهاء الرواية ، يبدو ان نظرتنا للفن وللثقافة عامة فى حاجة الى تغيير شامل عميق ، تعيد له مكانته القيادية والريادية وتحترم دوره سواء فى معارك جيوشنا أو فى معارك سلامنا وحضارتنا ، فحرب الحرب ، أو حرب الســلام هى أولا وأساسا ملك الشـعب كله ، لاجياله الحـاضرة والقادمة وحتى من مات من أجياله انها حياته ، يحياها بالحرب حينا وبالسلام حينا ، ونحن لسنا كائنات من حديد أو حجر نحــن بشر ، وحين خلق الله البشر خلق لهم الفن ليكونوا بشرا ولتـكون لحياتهم قيمة أسمى ومعنى أكبر من مجرد ملء البطون بالطعــام وملء الأرض بالنسل •

أما من تغيير حقيقى يعيد لكلمتنا دورها ولفننا قيادته وللثقافة والفكر أهميتهما القصوى لشعب بالفن عاش وبالفن خلد وجوده وحضارته •



الخناقة على الطريقة المصرية

لا شك أن المصريين أعقل شعوب الارض قاطبة ، ولقد حيرنى هذا الامر طويلا وكثيرا ، وخاصة حين كنت اسافر واختلط بكثير من شعوب الدنيا ثم وأنا أدرى وحتى ودون أن أدرى أبدأ أقارن بيننا وبينهم فأجد لكل شخصية من شخصيات الشعوب نوعا من جنونها الخاص أو غرابتها أو شذوذها ، ثم أعود للقاهرة ، وبعيون جديدة أحاول أن أعثر لشعبنا أو لشخصيته على هفوة غرابة أو بادرة جنون من أى نوع ، دون جدوى ·

وحين أقول أننا أعقل شعوب الارض لا أعنى بالطبع أننا كذلك لاننا أكثرها حكمة أو علما أو تأدبا ، فى الحقيقة أعنى أننا أكثرها تعقلا ، والفرق بين الحكمة والتعقل هو أن الحكمة تأتى بعد أعمال عميق للتفكير ، ومقارنة بين الاحتمالات الكثيرة والحلول ، ثم اختيار قائم على تفضيل الاحسن بالنسبة للشخص أو للشعب · أما نحن هنا فنحن نتعقل أولا وباديء ذى بدء ، بمعنى أننا بالتلقاء والسليقة نختار أقرب الحلول للسلامة وحفظ الذات والافلات من الموقف ولو كان هذا على حساب النتيجة فى المدى الطويل ·

قارن مثلا بين خناقة انجليزية وخناقة مصرية · تبدأ الخناقة الانجليزية بخلاف بين صديقين أو عدوين · هادئة ثم تتصاعد الى

مستوياتها الدرامية العليا ، ويحدث كل هذا دون ضجة أو زعيق . بل بكلمات تتصاعد فى حدة معناها وليس فى طريقة القائها حتى يبلغ الامر حتمية أو ضرورة الالتحام ، وهنا تجد الاثنين قد انتحيا ركنا أو خرجا من المشرب ، وفى منتهى الهدوء المجنون بدآ يصفيان الحساب جسديا متصارعين أو متلاكمين أو متلاحمين ، يكيل كل منهما للاخر ضربات هائلة فى الصميم ، ينالها الاخر ولا يتوجع لها ، انما بكل العنف يتحين الفرصة وينقض على الاخر بضربة أقسى وأوجع · المارة لا يقفون ولا يتفرجون ، فهم يعـرفون أن ما يدور مجرد عملية جسدية لتصفية حساب (ايديولوجى) بين اثنين من الناس لا شأن لهم بهما ، بل من المستحسن أن تتم هذه التصفية دون شهود عيان ، اذ حين يوجد شهود العيان تتعرقل عملية التصـفية ويتحول المتعاركان الى (ممثلين) يضعان الجمهور فى حسـابهما ويستشهدانه ، وفى هذا نوع من (التظاهر) أى الخـداع لا يليق بقضية لا تخص أحدا بقدر ما تخص طرفيها ، وبقدر ما تخص ما يكيله احدهما للاخر من لكمات ·

وهذا فى الخنـــاقة الانجليزية الانجلو ساكسونية ــ يصفى الخناق عضويا بعدما عجز الخناق (الايديولوجى) عن أن يصفيها نفسيا وتناقشيا ·

وهذا ــ فى عرف المصريين ــ نـــوع من الجنـــون المقيت ، فالخناقات حين تنشب بين خصمين ، وتتركز فيهما فقط ويصفيانها معا ، تعتبر نوعا من الجنون أو من الشـــذوذ ، فالخنـــاقة عنـد المصريين ليست نوعا من الدراما الشخصية ولكنها ــ ان آجلا أو عاجلا ــ لابد أن تتحول الى مسرحية أى الى محاكمة أى الى قضية يصبح فيها الجمهور عاملا رئيسيا ومؤثرا ، كالقاضى سواء بسواء · ويصبح فيها التأثير فى الجمهور أى فى ذلك المحترم القاضى مسألة ذات أهمية بالغة · ومن أجـل هذا تنشـأ الخناقات فى مصر ليس لينتصر طرف على آخر ، وانما تنشـــأ الخناقات بهدف مسرحى محض أى تنشأ الخناقات درامية منذ البداية ، عاقلة جـدا ومتزنة منذ البداية ، وبهدف ــ منذ البداية ــ محدد وواضح ، الا وهو ، أى طرف يملك ناصية الحق ؟ وأى طـرف أحق من الطرف الاخر

بأصوات (المحلفين) ؟ وهكذا وهكذا وبهذه الطريقة تنشأ الخناقة المصرية ، لا بهدف أن ينتصر الطرف الاقوى على الطرف الاضعف وانما بهدف أن (يحكم) الجمهور ويحدد من هو الطرف الاقوى. ومن هو الاضعف من صاحب الحق ومن الكذاب · من هو الماكر الخبيث ومن هو صاحب القضية الغلبان · ومن أجل هذا تبدأ الخناقات المصرية جماهيرية منذ لحظة الصفر · درامية منذ بدء التمثيل · كل طرف فيها يوجه خطابه ـ ليس بلكمات مباشرة لتهد كيان العدو وتجعله يركع ـ وانما بخطابات صاخبة عالية موجهة الى الجمهور والى الانسانية كى تقنع الجميع أن الطرف المتشرف بالحديث هو الطرف المظلوم المفترى عليه الغلبان ، وان الطرف الاخر هو المخطىء الظالم المستحق أن يوقع عليه العقاب · لا يتساءل المصرى المتخانق من سيوقع هذا العقاب ـ ان وجد الانصاف ـ وانما المهم أن يثبت للعالم أنه مظلوم وأنه يستحق الانصاف ، وأنه ـ لولا التعقل لارتكب القتل والضرب والجنايات · لهذا فلا أعتقد أنى بحاجة الى وصف خناقة مصرية · فالعرض دائما وأبدا مستمر · والجمهور موجود يشهد ويتدخل ويمنع أن ينتصر أحد على أحد ، يمنع القوة أن تكون هى الحكم وصراع القوى أن يكون هو السبيل · أنه يتفرج على الخصمين ويستمع للحجج ، وبمنتى التعقل يتفحص وفى الغالب يصدر حكمه والاعجب أن الحكم لا يأتى أبدا ضد أى منهما أنما يملك جمهورنا طاقة التعقل الكافية بمنح كل منهما قدرا من الحق وقدرا من الباطل ، ذلك القدر الكفيل بأن يحل الصلح محل الخصام ، والوئام محل الصراع فاذا كان ثمة مظلوم فى الموقف فان الله سبحانه كفيل به وبانصافه فى الدار الاخرى ، واذا كان ثمة خطأ فى الحكم ارتكبه القضاة الجمهور فان يوم العدالة آت لا ريب فيه ·

وهذه مجرد مقارنة ، مجرد مثل ، اذ تبقى الحقيقة التى لا شك فيها ، أننا أعقل أهل الارض جميعا ··

ولعل هذا هو سبب أن خناقاتنا السياسية والعسكرية على المستوى الوطنى أو القومى أو العالمى · ، تسير على نفس الوتيرة وعلى نفس النسق ·

كل ما فى الامر ان الجمهور القاضى فى العالم ليس أبدا جمهورا محايدا بل ولا هو كالجمهور المصرى يتفحص القضية احقاقا للحق والعدل ، انه جمهور يؤمن بالحقيقة القائلة أن الغالب دائما هو صاحب الحق ، أو صاحب الحق هو دائما صاحب القوة ..

كم من مرات خاطبنا فيها ضمير العالم وكأن للعالم ضميرا ، والعالم له عيون أما ضميره فهو مع صاحب الحق فقط حين يناضل صاحب الحق من أجل حقه أما حين يتقاعس ويترك لهذا الجمهور القاضى وضميره أن يحصل له على حقه فانه لا يمتلك له الا السخرية والصفير .

والعالم لم يصبح معنا الا بعد حرب أكتوبر .

ولن يصبح معنا الا اذا شاهدنا دائما نناضل نضال المستميت لكى نحصل على حقوقنا ، ونضال صاحب الحق والحصول على حقه هو الوسيلة الدائمة المثلى لايقاظ (ضمير) العالم ، فهى دائما نائم الى أن توقظه ليست قسوة الظلم وانما قوة المظلوم فى سحق ظالمه .

التصرف المصرى أمام الخطر

كمـا توضع العينة تحت الميكروسكوب لفحصــها ، وضـعت نفسى تماما فى مكان سائق العربة التى اصطدمت بالقطار عنــد بنها ، ذلك الحادث المروع الذى نتج عنه مقتل ثمانية عشر شخصا ، غير عشرات الجرحى والمصابين ، بينما نجا سائق العربة واختفى فى حقل الذرة قريب حتى قبض عليه البوليس ٠

أوقفت الزمن ، تلك الثوانى القليـــلة التى سبقت الحــادث مباشرة ، ثم رحت أمرره على مهل شـــديد ، فى محاولة جـــادة مخلصة لمعرفة ما دار فى عقل السائق بالضبط ، وجعـــله ــ رغم أن أجراس المزلقان كانت تدق ، والنور الاحمر موقد علامة أن قطارا سيمر حالا ــ يقتحم الاشارة اقتحاما ليصطدم بالقطار ٠ بالضبط ، ماذا حدث ؟ وليس من أجل هذا السائق ، أو هذا الحـــادث بالذات أريد أن أعرف الجواب ، انما من أجلنا كلنا ، من أجل الحوادث الاكيدة المماثلة المقبلة ، من أجل أن نعرف أنفسنا ، ونعرف كيف ولماذا نتصرف أمام الخطأ أو الخطر ٠ أو بالاصح ، ما هو الموقف المصرى من الخطر ؟

هذا سائق مدرب ما فى ذلك شك ، فرخصة قيــادة ســـيارة نقل لا تمنح الا بصعوبة شديدة وبامتحان عسير ، وبعد فترة طويلة

من العمل كسائق • ها هو ذا قادم على الطريق ، وأمامه ومن بعيد ، كان يرى شريط السكة الحديد وهو يتقاطع مع الطريق الزراعى الذى يسلكه بل حتى كان ممكنا ، لو هـو يقظ بدرجة كافيـة ان يرى القطار قادما فى الافق من بعيد • ولكن ، لنكن عادلين ولنصـل معه الى اللحظة التى وصل فيها (المزلقان) ووجد الاجراس تدق والنور الاحمر يطفأ ويوقد علامة القطار القادم • الطبيعى تماما أن يوقف العربة حينذاك وينتظر مرور القطـار ثم يتأكد أن ليس هناك قطار آخر قادم ، ثم يعبر • هكذا يفعل النـاس فى أى مكان وزمان ، وللانصاف نقول أنه فكر فى الوقوف أول الامر ، ولكنه لم يفعل ، و (ظن) أن القطار ليس وشيك القدوم بدليل أنه لا يراه ، فضغط على البنزين واقتحم الاشـارة • ان العربة تعلم النـاس السرعة ، هذا صحيح ، فهى اختراع ولدته الحـاجة الى السرعة ، وكل سائق فى العالم يريد أن تنتهى رحلتـه بأسرع ما يمكن حتى ولو لم يكن وراءه عمل ملح عنـد نهايتها • هذه كلهـا أحاسيس انسانية نشعر بها جميعا • ومن المؤكد أن صراعا صـغيرا نشب فى عقل السائق بين أن يوقف العربة كما تقضى القواعد وحكم الامر الواقع ، وبين أن يقتحم الاشارة رغم احتمال أن يصطدم بالقطار • احتمال واه هذا صحيح ، ولكنه موجـود • ومن المؤكد أن الصراع حسم بسرعة لمصلحة مواصلة السير • هو عارف بالخطـر اذن ولكنه ينحى معرفته جانبا ويمر ، من أين جاءته الثقة ان الخطـر لن يدهمه ؟ على أى شىء اعتمد أنه سينجو ؟ لا يستطيع هو نفسـه لو سألته أن يجيبك ، وايضا لا نستطيع نحن • فكل منا لا بد قد واجه موقفا كهذا مرة ، ولابد أن كلا منا ، ولو لمرة واحـدة ، قد تصرف برعونة كما فعـل السـائق واقتحـم الخطر معتمدا على أن شيئا ما أو قوة ما ستحميه وتنقذه • هذا الاعتمـاد اليقينى الغريب الذى يزودنا بثقة لاحد لها وبشبه تأكيد أننا حتمـا سننجو هو المسئول الأول عن كل الكوارث التى تحيق بنا • فنحن نـرى الخطر ماثلا أمامنا واحتمالاته قوية ومع ذلك نتعامى عنه ونلغيـه من وعينا ونغمض أعيننـا عن أن ترى الخطـر ، وكأننـا بمجرد التعامى عنه نلغيه من الحقيقة والواقع كل العالم المتقـدم يدرس الوضع من جميع نواحيه فاذا اشتم رائحة خطر ما فأنه أبـدا لا يخاطر أو يغامر أو يتعامى عنه ولكنه يحسب حسابه تماما ويأخذ

حذره ويتفاداه . الا نحن ، ابتداء من القرارات الكبرى كقرار حشد الجيش فى سيناء عام ١٩٦٧ الى أصغر قرار مثل قرار ذلك السائق آن يعبر شريط السكة الحديد اعتمادا على أحساس قدرى ان شيئا لن يحدث وأنه من غير المعقول ان يؤدى الأمر الى صدام مع القطار مع أن غير المعقول هذا هو الاقرب الى العقل والى الاحتمال ، وهو الذى يحدث غالبا وتكون نتيجته نكسة ٦٧ أو حادث التصادم عند بنها ٠

ان النبى محمدا عليه السلام يقول لصاحب الناقة (اعقلها وتوكل) أى أربطها أولا كى تتأكد أنها لن تتحرك ثم بعد هذا توكل على الله فى أمن بقائها ٠

بمعنى آخر ، مفروض أننا ازاء الخطر ندرك أبعاده ، ونحذر منه ، ونتخذ كافة الاحتياطات اللازمة لحمايتنا أولا ثم نسلم أمرنا لله بعد ذلك ٠ ولكننا فى أغلب الاحيان لا نفعل هكذا ، انما (بفهلوة) غريبة ، باعتماد على ثقة مجهولة أن شيئا لن يمسنا ، نعرض أنفسنا للخطر ، ونستغرب بعد هذا اذا أصبنا وكأن تلك القوى المجهولة قد غدرت بنا وخانتنا ٠ أنه فى رأيى نوع من الهروب من مواجهة الواقع نفسه باعتبار أن الخطر جزء لا يتجزأ من الواقع ٠ نحن نعيش نحلم بواقع من صنعنا ، وحتى لو واجهنا الخطر فنحن نتعامى عنه كما نتعامى عن كل ما حولنا من واقع ٠

وكم من آلام نتحلمها نتيجة هذا الموقف وكم من نصائح ولكن الغريب أننا ـ بعد ـ لم نتعلم أن نرى الواقع ، وأن نرى ما فيه ـ ان كان فيه ـ من مخاطر ونحتاط لها وأبدا لا نتعامى عنها معتمدين على قوى خرافية مجهولة ستحمينا وتنقذنا ٠

● أرقام فلكية :

كنا نتحدث عن الثانوية العامة فهذا موسمها ، وكان شريكى فى الحديث الصديق الدكتور أحمد سامح همام (أول دفعتنا فى كلية الطب وأستاذ جراحة الاوعية الدموية بقصر العينى) ٠

والحقيقة فوجئت حين ذكر لى أن على أيام جده (وجده كان من عائلة طيبة بالمنيا) كان النجاح فى البكالوريا (ثانوية زمان) يعنى أن يذهب عساكر البوليس ويأخذوا الناجح بالقوة الى المديرية ثم يرحل الى القاهرة تمهيدا لارساله فى بعثة الى الخارج فورا ليكمل دراسته الجامعية ، اذ لم تكن هناك جامعة فى مصر . ذلك أن عدد الناجحين فى بكالوريا ذلك الوقت لم يكن يتجاوز عدد أصابع اليدين وربما أقل . ولهذا كانت الحكومة ما تكاد تظهر النتيجة حتى تبادر (بالقبض) على الناجحين لارسالهم فورا فى بعثات الى الخارج . وكان الشاطر هو الذى يستطيع بالوساطات أو بالشفاعات أو بالرشوة أن يفلت من قبضة الحكومة فيفرج عنه ولا يرسل فى بعثه أو يكمل تعليمه الجامعى ، أما سىء الحظ الذى لا حول له ولا قوة ولا وساطة له فهو الذى يرسل رغما عنه الى أوروبا ويعود حاملا الليسانس أو ربما الدكتوراه !!

وأذكر مرة أنى قرأت فى باب (الاهرام من ٧٠ سنة) ان عدد الناجحين فى الشهادة الابتدائية انذاك كان خمسين طالبا فى كل انحاء القطر المصرى .

واليوم نجد أن عدد المتقدمين للثانوية العامة حوالى ١٨٢ ألف طالب ينجح منهم ما لا يقل عن المائة ألف وأكثر ، فى الثانوية العامة ينجح فقط مائة ألف وعدد المتقدمين للشهادة الابتدائية قد يناهز المليون ، أى اننا فى خمسة وسبعين عاما تضاعف عدد تلامذتنا مائتى الف مرة . نرى ماذا سيحدث فى عام ٢٠٠٠ مثلا ؟

من خمسة وسبعين عاما لم تكن المجتمعات تعرف التخطيط وتتنبأ بما ستصير عليه الزيادات ، أما اليوم فنحن نحيا فى عصر التخطيط فاذا لم نكن قد خططنا فى الماضى لهذه الزيادات الفلكية فى أعداد التلاميذ ، فهل فى نيتنا حقيقة أن نخطط للحاضر وللمستقبل ، وخاصة اذا عرفنا أن هذه الاعداد أقل بكثير مما يجب أن تكون عليه اذ ان نسبة الامية عندنا زادت حتى أصبحت ٧٠ ٪

وهو رقم مخيف فى حد ذاته ولا يدل على تخطيط الى الامام وانما يدل على تراجع الى الخلف فقد كانت النسبة أقل من هذه بكثير قبل عشر سنوات مثلا ·

أعتقد ان مشاكل التعليم وما يحتاجه من اعداد وسائل التربية ومدرسين مؤهلين ومدارس مناسبة لا يكفى لحله نشاط أو اجتماعات المجلس القومى للتعليم ، أعتقد أن الأمر بحاجة الى مؤتمر جاد كبير يبحث ويناقش ويحدد كيف نعلم أولادنا اليوم وكيف سنعلمهم غدا وبعد غد ، مؤتمر يستمع الى آراء الاطفال والتلاميذ ، مؤتمر جامع شامل ، أعتقد أن هذا قد أصبح واجبا ملحا وعاجلا فانى أرى أن طريقتنا فى مواجهة هذه الارقام الفلكية من زيادات الطلبة لم تتعد كثيرا طريقتنا فى مواجهتها أيام كان عدد الناجحين فى الثانوية العامة لا يتجاوز عدد أصابع اليدين ·

تعالوا الى كلمة سواء

يخيل الي ـ والله أعلم ـ أنه سبحانه حبانى بقدر أكبر قليلا من الحساسية الشعبية أو بالضبط أدراك كنه وطبيعة وحقيقة ما يريده شعبنا المصرى ٠ والرأى المصرى ، فالمزاج المصرى ليس هو ما تسمعه من الناس فى العلن مثلاً أو فى جلسات المقاهى أو حتى فى القعدات الخاصة ، الرأى المصرى الحقيقى شيء غويط جدا ، من الصعب تماما الوصول اليه ، من المستحيل تقريبا الامساك به ، شيء دفين ، دفين ، وكأنه من اسرار الحياة أو الخلود ، بل لعله فعلا كذلك ، وربما هو الذى أبقى شعبنا حيا ومتماسكا لسبعة آلاف عام أو تزيد ، قدرته الخارقة على اخفاء ما يريد ، حتى يحقق ما يريد ٠

فأحيانا يقتل التحقيق أو يضيعه مجرد اعلان النية أو امكان الوصول اليها ٠ تجدهم يصفقون تصفيقا راعدا للمطربة أو الراقصة أو اللاعب أو الكاتب ، فاذا انتحيت بأيهم جانبا وسألته عن رأيه الحقيقى لأبدى وفى الحال رأيا مخالفا تماما ٠ شيء غريب ، نحن نستطيع أن نفهم أن ينافق البعض شخصا أو يتحمسون له مجاملة ، أما هذا ، فماذا أسميه ؟ نفاق للنفس مثلا أو الوصول بالموقف الساخر من الحياة الى الحد الذى يجعل لك تجاه الشيء الواحد ، موقفين ، أحدهما هو الحقيقى الدفين ، والاخر هو المزور الذى تبديه أمام الناس ولكن المضحك انك تبديه أمام نفسك أيضا ٠

المهم شيء ما يجعلنى أعتقد أن شعبنا بعـــد ـ لم يندمج فى مسألة الاحزاب هذه ، اجـزاء منه اندمجت هذا صحيح ، أولئـك الباحثون عن مستقبل أو حاضر سياسى ، أولئك الطامحون للوصول الى المناصب القيـادية ، وباختصـــار من لعبتهم السياسية • أما جماهير الشعب بشـكل عريض ، وحتى بمثقفيه ومتعلميه ، فكمـا قلت ، لم تندمج بعد فى الحكاية ، لا تزال ترقب وترصد ، وتتفرج •

والموقف على أية حال ليس غريبا على مصر والمصريين • فهو له جذوره التاريخية منذ أن كانت فى مصر احزاب ، بل حتى قبـــل أن تكون فى مصر أحزاب • ولكل بلد ظروفه التاريخية الخاصة التى نشأت فى ظلها أحزابه ، واعتقد أن النموذج المثالى لنشـــأة ونمو الاحزاب كان فى انجلتـرا • فانجـــلترا كانت بلدا يحكمها ملك . يتوارث العرش عن أبيه وأجداده وتأخذ الأسرار المالكة فيه شيئا من القداسة وكأنها تستمد قوتها من حـق الهى فى الحكم (نفس فكرة الفراعنة حتى عن الملكية أو الملك) • الى أن بدأ يتكون من خـارج الاسرة المالكة اقطاعيون كبار ، يدينون بالولاء للملك هذا صحيح ، ولكنهم مجرد أناس (من الشعب) لا يمكن أن يتساووا مع أصحاب الدم الازرق أو الحـق الالهى • الى أن بدأ يحدث الصـــــدام بين كروموبل (قائد البرلمان) والملك ، ثم الحـــرب الاهلية لتثبيت حق الشعب ودفاعا عن الماجنـــا كارتا (أو العهد الاعظم) وقتل الملك فى هذه الحرب وتولى كروموبل وأتباعه حكم انجلترا باسم الدستور هذه المرة ، أى باسم الشعب • ولكن لان أوروبا فى ذلك الحين كانت فى عصر ازدهار الملكية والامبراطوريات فقد تكاتفت الملوك ـ وخاصة بعد وفاة كروموبل وأعادت الملكية الى انجلترا •

ولكن هذه (الثورة) كان لها أثرها فى الحياة الاجتمـــاعية والاقتصادية للناس ، اذ قفزت بالتاريخ خطوات ، وتحول الاقطاع فى انجلترا الى الرأسمالية تحولا سلميا ، واستهد (شكل) الحكم فأصبح الملك رمزا للأمة كلهـا أو للدولة يملك ولا يحكم ، بينما بدأ الرأسماليون الذين سموا أنفسهم بالمحافظين يحكمون ويحاســـبهم البرلمان • وفى نفس الوقت بدأت تتكون نقابات العمـــال دفاعا عن حقوقهم تجاه خصومهم الرأسماليين ، وبدأت النقابات تتجمع تحت

راية حزب العمال ، وأصبحوا يدخلون الانتخابات ويفوزون ، ولكن لان الطبيعة الانجليزية محافظة فى صميمها فلم يكن حزب العمــال يقوم بتغييرات جذرية فى المجتمع لتحيله الى مجتمع اشتراكى مثلا ، بقى المحافظون والعمال يتبــادلون الحكم تحت ظل الرأســمالية الانجليزية لنظام الملكية كرمز للدولة ٠

هذه احدى الطرق لنشأة الاحزاب ٠ فى مصر مثلا حدث الاتى : حين جاء الاحتلال البريطانى الى مصر ، وبعد أن استولى على البلاد عسكريا واقتصاديا ، بقى أمر الاستيلاء عليها سياسيا ٠ وسياسيا كانت مصر جزءا من الامبراطورية العثمــانية ، ولهذا ظهر فى مصر اتجاهان ، اتجاه ينادى بالعودة للامبراطورية العثمانية وطرد الانجليز واتجاه ينادى بالتعاون مع الانجليز لبتر مصر من النفوذ العثمانى ، لتصبح (مصر للمصريين) أولا ، تمهيدا للكفاح لاخــراج الانجليز لتصبح مصر للمصريين حقيقة ٠ وكان المثل الخالد للاتجاه الاول هو مصطفى كامل ثم من بعده محمد فريد بينما كان الاتجاه الثــانى يمثله الشيخ محمد عبده وجمــال الدين الافغانى والشاب سـعد زغلول ، بمعنى ان نشأة الاحزاب فى مصر كانت نشــأة سياسية وليست تعبيرا عن أوضاع اقتصادية ، وحتى حين نشأ المارد الاكبر حزب الوفد كانت نشأته سياسية أيضا فقد قام ليقود الشــعب بكل فئاته وطوائفه فى ثورة ضــد الانجليز وغــير مرتبطة باتجاهات الحزب الوطنى نحو الارتباط بالتبعية العثمانية ، ثورة (ضــدهم جميعا) الهدف منها تخليص مصر من النفوذ التركى ومن الوجود الانجليزى ومن الامتيازات الاجنبية ، ثورة اشترك فيها الاقطاعيون والرأسماليون والطبقة المتوسطة والمسلمون والاقباط ، جنبــا الى جنب ، تحت راية واحدة وهدف واحد هــو الاستقلال التــام ، أى الوجود المستقل لمصر حرة غير مرتبطة أو مقيدة ٠

ولقد لعب حزب الوفد دوره بنجــاح منقطع النظير حتى حقق جزءا كبيرا من الاستقلال الســياسى ، ومن الغــاء للامتيــازات الاجنبية ، ومن ايجاد لكيان مصرى ، لاول مرة منذ عصور بالغــة القــدم ٠

وطبعا هذه الثورة السياسية صاحبتها ثورة اقتصادية وبدأ الاقتصاد المصرى يبنى ، وأيضا على نظام شبه شعبى فلم تكن هناك رأسمالية مصرية تستطيع وحدها أن تبنى اقتصادا ولكن كان هناك اقطاع خلقه الخديو والانجليز ليستطيعوا به حكم مصر ٠

وكان مفروضا أن يستمر التطور الطبيعى ، فيبنى اقتصاد رأسمالى وطنى ، ويتكون حزب للرأسمالية الوطنية ، وحزب مقابل للعمال ، وحزب للاقطاعيين ، وحزب مقابل للفلاحين ٠

غير أن هذا التطور الطبيعى لم يحدث نظرا لوجود القضية الوطنية والمؤامرات الكثيرة لضرب الحركة الوطنية وتفتيتها ، ليس فقط وحدة العمال والفلاحين من ناحية والاقطاع والرأسمالية من ناحية أخرى ، ولكن تفتيت حتى الطبقة الاقطاعية والرأسمالية فما بالك باحزاب العمال والفلاحين ٠

وكان أحد عناصر اللعبة ادخال حكاية الصراع الطبقى قبل الاوان ، فلقد منع تماما قيام أحزاب للعمال وطبعا تماما تماما للفلاحين ٠ واستغلت الاقطاعية والرأسمالية المصرية التى كان من المفروض أن تكون على رأس الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال ، استقطبت وفتتت تارة باسم الهيئة السعدية وتارة الاحرار الدستوريين وتارة باسم حزب الشعب وتارة بدكتاتورية الاقطاع المتعاون تماما مع الانجليز (محمد محمود وشركاه) ٠

أدرك الانجليز بذكائهم الاستعمارى الخارق أن بقاءهم فى مصر مرهون بضرب القوى الوطنية بعضها فى بعض ، ووضع الاسفين الاعظم بين ملك وطنى فى ذلك الحين وحزب الاغلبية الأكبر (الوفد) ثم بين الوفد وبقية الاحزاب المتقلبة عليه ، ثم بين الطبقات الشعبية ، وصارت المسألة (عكة) استغرقت من مصر قرابة الثلاثين عاما من الصراع الرهيب (حول) السلطة مع أنه كان من المفروض أن يتم خلال هذه الاعوام الثلاثين الصراع الرهيب (ضد) الاحتلال ، وليس من أجل من يحكم ومن له الحق فى الحكم ٠

وقامت ثورة ٥٢ ٠

ولاعتبر من عندى أن ثورة ٥٢ بقضها وقضيضها وعلى بعضها حزب ثورى جديد أفرزته الطبقة المتوسطة لينهى هذا الصراع السخيف حول أحقية من يحكم من ، ويقود الشعب كله (أحيانا رغم أنفه) ضد الاستعمار الرابض فى قلب مصر من ناحية والمؤامرات الحاكة دائما ضد مصر ٠ وكان مفروضا فى هذا الحزب الجديد أن يحول جهد المصريين من العراك الى وحدة البنائين ، فيبنى الاقتصاد المصرى ويدعمه تماما وينتقل بالزراعة الى القرن العشرين ، وبواسطة ثورة ثقافية وحضارية شاملة لنقل المجتمع المصرى الفلاحى والعمالى بالذات الى الحد الادنى اللازم لوجود الانسان على سطح الارض فى هذا القرن ٠

ولكن الاستعمار الخبيث كان يرقب كل شىء ، ويعد لكل شىء عدته ، فما كاد يرى هذا (الحزب) الجديد وقد بدأ أنه قد وحد الامة حول أهداف قليلة ولكنها خطيرة وسيصنع بها لو تمت معجزات ، ما كاد يرى هذا حتى أطلق سهمه المضاد ، وجر مصر الى حرب مع اسرائيل والى تشتيت لجهودها فى الكونجو وقضية المغرب والجزائر ونيجيريا واليمن والوحدة ومهزلتها ٠ أى أنه نجح فى تحويل كم الطاقة الهائل الرابض ينتظر الانفجار لينقل مصر من عصر الى عصر ، نجح فى تحويل دفته الى الخارج حتى لم يبق للحزب ليقف فى الداخل الا أقل القليل ٠

والثورات أيضا حظوظ ولست أعرف لماذا كان من حظ ثورتنا أن يكون على رأسها قائد لا يؤمن بالتنظيمات الجماهيرية ، فحتى حزب الثورة لم يتكون ، فى حين كانت هناك عشرات الفرص لخلق حزب ثورى جماهيرى ديمقراطى اشتراكى عربى وحدوى يصبح أقوى أداة فى يد الثورة المصرية ليس فقط لتغيير مصر وانما لتغيير العالم العربى ثم العربى الافريقى الاسيوى من حولها ٠

حظنا كده ٠

حظنا أن حزب الثورة الحقيقى كان هو (دولة المخابرات) فهم وحدهم الذين كانوا محل ثقة الثورة ، وهم وحدهم الذين كان يختار من بينهم من يعهد اليهم بأخطر المهام ، حتى من بينهم لابد كأن يختار معظم الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الادارات ٠

وهكذا تمخض هذا الحزب الذى جاء ليكنس أرض مصر من أحزاب انهكها طول الصراع حول الحكم ، وجاء ليقود الطبقة المتوسطة ومن حولها بقية الطبقات ، تمخض هذا الحزب عن (شلة) تحكم مصر وتقرر شئون وتمنع مزاولة السياسة الا على أفرادها ومن يثقون فيهم ٠

قرأت مرة مقالا ظريفا كتبه أحد المعلقين الامريكيين الذين عاشوا فى مصر فترة ٠ فقال عن تركيب مصر السياسى فى عصر الثورة ، انها جاءت بقاموس ومصطلحات جديدة الى دنيا السياسة فى العالم ، والغريب أن الرجل استقى معلوماته من صفحة الوفيات فى جريدة الأهرام ٠ فداخل كل نعى كان يعرف قرابة فلان الوزير لفلان رئيس مجلس ادارة كذا لفلان قائد سلاح كذا لفلان السفير فى كذا ، وهكذا ٠ المصطلحات الجديدة التى أدخلها ذلك الحزب الغريب الجديد كانت مصطلحات تبدو مضحكة لاول وهلة ولكنها كانت فعلا الحقيقة المرة : فهناك (الشلة) ، وهناك (الدفعة) ، وهناك (القرابة القريبة والبعيدة) ٠

فى كل مجال من مجالات حياتنا كان يحكمها اما شلة أو ممثل الدفعة أو قريب لهذا أو ذاك من القائمين على الحكم ٠

والخارطة السياسية لمصر تقول أنه منذ زمن بعيد جدا ، منذ أول انتخابات أجرتها الثورة ، منذ تعقيم مصر سياسيا واعتبار أى ماض سياسى للشخص حتى لو كان وطنيا ونظيفا وشريفا لا يحسب له وانما يحسب عليه ، منذ أول انتخابات جرت فانها لم تجر على أسس سياسية ، انما على أسس شخصية ذاتية أخلاقية محضة ٠

يعنى نحن ننتخب الرجل الطيب ، ليس مهما أن يكون فاهما

فى السياسة أو غير فاهم ، ليس مهما أن يكون داعيا بحيث يدرك ما يصلح لبلادنا وما لا يصلح ، المهم أن يكون (طيبا) والسلام ·

وبهذا قضينا على السياسة ولم ننتخب لمجالس شعبنا قادة سياسيين ، انما انتخبنا فى معظم الاحوال رجالا طيبين أو قادرين على انجاح أنفسهم بالمال أو بالنفوذ أو حتى بالتهديد ·

ذلك لان الثورة لم تسمح لنفسها أن تكون حزبا له مبادىء محددة واضحة تدقق جدا فى اختيار أعضائه لانها ثورة تحكم وما أكثر الانتهازيين الذين يريدون الانضمام لاى تنظيم تصنعه ثورة تحكم · لم تسمح لنفسها أن تنشىء ذلك الحزب ، وطبيعى جدا أنها لم تسمح لاى قوى غيرها بأن تنشىء أى أحزابا أخرى ·

لهذا فالموقف الان أحسن قليلا ·

واضح أن ثورة ١٥ مايو على أقل تقدير قد قررت أن تنشىء لنفسها حزب مصر العربى الاشتراكى وأن تسمح لاقسام أخرى من الرأى العام أن تنشىء أحزابا قد تختلف قليلا أو كثيرا مع حزب مصر ·

أقول ان الموقف أحسن ولكنه ليس بالضرورة الموقف المثالى ·

ولكن المشكلة أنى أرى الموضوع من زاوية أخرى تماما ·

فالاحزاب ليست زينة والديمقراطية ليست أيضا زينة · الاحزاب كما قلنا تقوم لسد احتياجات سياسة أو اقتصادية حادة وملحة ، اذن هى ضرورة وليست ترفا ·

فالسؤال الذى يتبادر الى الاذهان أولا هو : ما هى الضرورة الحادة الملحة فى مصر الآن ·

الاجابة بسيطة فهناك ضرورتان حادتان : القضية الوطنية ، والمشكلة الاقتصادية ٠

القضية الوطنية تستلزم (الوحدة) حتى فى البلاد العريقة فى حزبيتها مثل انجلترا وفرنسا حين قامت فيها جبهة من الاحزاب لمواجهة الحرب العالمية الثانية ٠

والمشكلة الاقتصادية أيضا تحبذ ضرورة الوحدة ، وكما نشهد الان فى ايطاليا يتعاون الحزب الديمقراطى المسيحى مع الحزب الشيوعى من أجل انقاذ الاقتصاد الايطالى من الانهيار التام ٠

نحن اذن لسنا فى مرحلة التحزب نحن فى حالة تستلزم الوحدة قبل أى شىء اخر ٠

ولكنها ليست الوحدة الديماجوجية التى كثيرا ما نادينا بها وقرأناها شعارات رنانة وخطبا عصماء ٠ من تحالف لقوى الشعب العامل ، الى اخره ٠

الوحدة بمعناها الحقيقى ٠ أى الوحدة بين قيادات الطبقات والهيئات والفئات وأصحاب الرأى ٠

الوحدة التى أساسها تنافس الجميع فى البحث عن (حل) سواء لمشكلتنا الوطنية أو الاقتصادية ٠

وقد يرى البعض أن هذا يتعارض مع فكرة الديمقراطية الحزبية وحرية تكوين الاحزاب ، والعكس هو الصحيح ٠ فمصر منذ أن نالت استقلالها وحتى قبل أن تناله فى حاجة ماسة الى أن يمثل كل فئة فيها أو طبقة قيادة ، تنضم مع بعضها البعض وتكون تكتلا وطنيا قويا مادام الوضع يحتم التكتل الوطنى لكى تمر الازمة ، وبعد أن تمر يصبح أمامنا الوقت الطويل لكى نعود نتفرق ونختلف ونتخانق الى ما شاء الله ٠

أجل نحن فى حـاجة الى احزاب حقيقية تقـود ـ وبالذات شبابنا ـ قيادة حقيقية بدلا من تركهم نهبا للهوس وأكاد أقول لهم حق فأين هى القيادة الشابه الحقيقية التى من الممكن أن تستقطب هذا الشباب المخلص فى بحثه عن حل لمصر ومشكلاتها ٠

ليست مشكلتى الان أن يقـوم حزب وفد تحت اسم جديد أو لا يقوم ، أن يتكتل المستقلون ويكونون حزبا أولا يتكتلون ٠ مشكلتى ، مثل غيرى اننا لا نريد أن نرقص على السلم ٠ فحزب مصر والحزبان الآخران تكونوا بطريقة غريبة ، أعلن تكوينها أولا ثم بدأوا البحث عن أعضاء يصلحون لها ثم بعد استكمال الاعضاء بدأنا نبحث لها عن برامج وأهداف ٠

ولهذا أنا لا أعتبر أن حـزب ١٥ مايو أو ٢٣ يوليو الحقيقى قد تكون بعد ٠

وان مصر لا تزال فى حاجة ماسة لقيادة هذا الحزب ٠

فى حاجة ماسة الى (الوحدة) فى الهدف والوسيلة ٠

وكل ما حدث منذ ظهور فكرة تكوين الاحزاب الى الان هـو خناقات بين حزب التجمع وحزب مصر وحزب الاحـرار ، وخطوة واحدة لم نتقدم بعد فى طريق حل المشـاكل ، ليس كما تحل الان وانما بناء على برنامج سياسى اقتصادى حـزبى لحزب مصر مادام هو الذى يحكم ٠ لازلنا نقيم المشروعات كيفما اتفق أيضـا ، وبالمرة ليس هناك برنامج علمى حزبى مدروس ومتفق عليه ويتبناه ويدافع عنه جميع أعضاء الحزب ويشرحونه للناس ويبشرون به ٠ مازالت حياتنا الحكومية التنفيذية فى واد وحياتنا الحزبية السياسـية فى واد آخر وحياتنا التشريعية البرلمانية فى واد ثالث ٠

وأنا لا يهمنى الاحزاب الناشـئة التى تنشأ فأن تصـل هذه الاحزاب الى الحكم مسألة مستبعدة تماما خلال الاعوام الخمسـة الحاسمة المقبلة على أقل تقدير ٠

ولذلك فنحن فى أمس الحاجة ـ ومادام حزب مصر هو الذى يحكم ـ أن يترجم هذا الحزب الى برنامج عمل وأهداف ·

بل أكاد أقول فلننس الطريقة التى تكون بها حزب مصر ·

ولنعد نؤلفه على أسس حقيقية جديدة ·

لندع الى جمعية تأسيسية كثير من أعضائها من داخل حزب مصر هذا صحيح ، ولكنهـا تضـم كل مفكر أو قادر على التفكير والقيادة فى كافة مجالات حيـاتنا ، بل وحتى لو كان عضـوا فى حزب اخر ·

ولتنته هذه الجمعية التأسيسية الى برنامج عمل واضـح وصريح يمثل آمال مصر وحلولها لمشاكلها خلال السـنوات العشر القادمة على الاقل ·

وبنـاء على هذا البرنامج فينتخب من بين أعضـاء الهيئة التأسيسية لجنة قيد ، تنظر فى طلب الراغبين فى الانضـمام على أساس ارتباطهم أو قدراتهم على تنفيذ هذا البرنامج المتفق عليـه ، وعلى أساس قدرتهم السياسية أولا وليس على أسـاس طيبتهم أو رفقهم فى معاملة ومجاملة الاخرين ·

حتى اذا أحكمنا انشاء هذا الحزب الذى سيمثل العمود الفقرى السياسى لبلادنا · تتكون احزاب أخرى على نفس هذا النسق ، قد تختلف برامجها عن برامج حزب مصر ، قد تختلف أفكارها ، قـد تختلف تكويناتها الاجتماعية والفكرية ، ولكنها حتما ستمثل قيـادة لمجموعة من الناس موجودة فى مجتمعاتنا وقائمة ·

وعلى أساس تحـالف أو تصـارع بين حـزب مصر وهذه الاحزاب ·· تصارع ليس هدفه التنابذ أو حب الظهور وانما هدفه الوصول الى الحقيقة التى قد تكون تماما غير رأى حزب مصر أو غيره من الأحزاب ·

باختصار نحن ، في مشكلتنا ، وبالذات خلال السنوات الخمس القادمة في حاجة الى كلمة سواء بيننا ، لسنا في حاجة الى اجماع صوري نحن في حاجة لنقاش واختلاف يؤدي بنا في الحقيقة الى كلمة سواء ، فالصراع القائم الان صراع من ورق وعلى ورق ، بينما مشاكلنا حقيقية وعاجلة وفي حاجة الى قيادة فعالة لرؤيتها حبذا لو كانت شابة ونشطة وواعية سياسيا ٠

تحيـة لهم ...

وعزاء لنـا ...

غريب جدا هذا الاحساس .. لم أشأ أن أحضر العملية فالمصاب صديق والمعالج صديق وبعدى عن الجراحة قد انشأ بينى وبينها نوعا من الجفوة حتى أصبحت وكأنى ما زاولتها يوما .

ولكنى فوجئت بالدكتور أحمد البنهاوى يستدعينى لحجرة العمليات لارى بعينى مدى الاصابة .

الدكتور أحمد البنهــاوى ، ذلك الذى لم يتغير شكله كثيرا منذ أن قابلته لاول مرة على (ترابيزة) الغداء فى مدرسة الزقازيق الثانوية ، أصبح الان عميدا لكلية طب جامعة عين شمس . الحقيقة حين علمت الخبر لم استعجب وأن كنت قد دهشت أن يقع اختيـار مجلس الكلية الموكون من فطاحل الاساتذة ، على أستاذ جراحة المخ هذا الذى يبدو وكأنه فى الثلاثين ، عميدا للكلية . بل أكاد أكون قد فرحت فمن الفرح أن تجد واحدا من دفعتك وصديقا لك قد احتـل مركزا علميا خطيرا كعميد لكلية طب راسخة مثل عين شمس .

ناداني الدكتور البنهاوى لأرى اصابة الرأس التى يعالجها ، كان الصديق المصاب قد انهال عليه بعض الصعايدة بنبابيتهم على

رأسه فكسرت الجمجمة وحدث نزيف رهيب داخـــل العظم بحيث أصيب المريض بالشلل وأخذت حالته تتدهور حتى أوشك أن يسلم الروح • لم يكن هناك وقت لعمل أشعة أو المعـــرفة بالضبط مكان الاصابة والشريان أو الوريد الذى ينزف • كانت أمامنا ـ كمـــا قال الدكتور البنهاوى ـ نصف ساعة فقط اذا لم تعمل العملية فيها مات ذلك الانسان العزيز • ولم يكن بالمستشفى الذى كان يرقد فيه المصاب الات جراحية تصلح لجراحة المخ (مع انه مستشفى دار الشفا الكبير) وهكذا ودون حتى انتظار لعربة الاســـعاف حملنا المريض فى عربة عـــادية وباقصى سرعة وصـــلنا الى مستشفى الجمهورية •

والان هو يرينى الجرح ، كان شـــيئا مهولا خارقا للعادة •• كان عمق الجرح لا يقل عن عشرة سنتيمترات داخـــل الجمجمة • أمامى كان يدخل الشفاط فيـــه لعمـــق عشرة سنتيمترات ولا يأتى لاخره • وكان كم هائل من النزيف قد تكون خارج (الأم الجافية) هذا صحيح ولكنه كان يضغط بشدة ويكاد يخنق المخ بكل وظائفه •

المهم أنه بحذق ليس غريبـــا على البنهـــاوى تم شفط النزيف والورم الدموى ، وبعد يوم واحد كان المريض قد شفى من الشـــلل النصفى وجلس ، ثم تحرك ، ثم عـــاد طبيعيا تماما وكأن شـــيئا لم يكن •

أذكر هذا كله لسبب غريب ، فقبل أقل من ١٥ عاما كانت هذه الاصابة تعتبر قاتلة اذ لم يكن الانسان قد جرؤ بعـــد على ولوج ذلك الصندوق الرهيب المغلق •• صندوق المخ • الآن هى لا تعالج فقط ولكن المريض بعدها يعود عاديا تماما كما رأينا •

الحقيقة انه بعد العمليـــة جلست وحيـــدا فى غرفة ملابس الاطباء يكاد الدم يطفر من عينى • هذه مهنة واضحة سريعة الفائدة سريعة المفعول • هذا هو انسان كان مشرفا على الموت تماما واذا به الآن وبمبضع الجراح قد عاد الى حالته سليما معافى •

والان تلك الكتابة التى ازاولها ، تـرى هل باستطاعتها أن تعطى نتيجة مرضية لصاحبها تماما كمـا رأيت النتيجة الان ، أم هى أحيانا كالاذان فى مالطة تتساءل دوما عنه وترى هل يسـمعه أحد · اقول هذا الكلام لأن المضحك ان الصـــديق أحمد البنهاوى حاول منذ بضع سنوات ان يكتب القصص وقد كتب فعلا اشـــياء جميلة ولكن من حسن حظ مرضاه ومن حسن حظ الطب انها لم تطلع فى رأسه ويتخذها هواية دائمة أو حرفة ·

أيها المنعمون بالنتائج الحية الملموســة لأعمالكم ، وخاصة اذا كانت النتيجة هى اعادة الحياة الى جســد دخل فعلا منطقـة الموت ·· تحية لكم وعزاء لنـا ·

ليـلة العيد

الى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الاثنين ١٢ سبتمبر وثمة ٤٠ مليون مصرى ومائة مليون عربى أو أقل أو أكثر ينتظرون اشارة من مجلس القضاء فى المملكة العربية السعودية أو دار الافتاء فى القاهرة بحلول أو عدم حلول عيد الفطر المبارك فى اليوم التالى . الجيران يسألون بعضهم بعضا أن كانوا قد سـمعوا ، التليفونات تتساءل ، دور الصحف ليس لديها أى أخبار ، والكل فى حالة قلق غريب غير معقول ، هل يحضرون السـحور ، هل يستعدون غدا للعيد ، هل يسافرون هل ينامون على عمل فى اليوم التالى أو على اجازة . مئات (الهلات) التى تنتظر (الهلال) .

وهذه ليست المرة الاولى التى يكتب فيها هذا الكلام ، وهذه ليست المرة الاولى التى تخوض فيها الصحف فى الموضوع أو يدور النقاش حول الاخذ بمبدأ الرؤية العينية لهلال شوال أو هلال رمضان أو مبدأ الحساب الفلكى . ولكن أريد أن أقول كلاما أرجو أن يكون بسيطا جديدا . فيوم الاحد الماضى قـرأت فى صحفنا أن مجلس القضاء فى السعودية أصدر بيانا تاشد فيـه المواطنين ان يبلغوا المجلس فورا اذا (رأى) احدهم هلال شوال اخذا بالمبدأ القـائل بضرورة ثبوت الرؤية بالعين المجردة . ولقد ثبت لنا الان علميا أن العين ليست (مجردة) وانها مكونة من عدسة وقرنية وسـائل

وشبكية ٠٠ الى اخر مكونات العـين ٠ وأن كثيرين من النـاس يستعملون النظارات لتصحيح قوة عدسة العين ، فهل تعتبر العين التى تستعمل النظارة مثلا عينا (مجردة) ـ أم هى عين تستعمل العلم الحديث وقوانين الضوء والعدسات لتصحيح ما فيهـا من خطـأ ٠

اعتقد أن مجلس القضاء اذا جاءه شاهد أو شاهدان يقولان انهما رأيا هلال رمضـان أو شـوال رؤيا العين وكانا يرتـديان نظارات سيأخذ بالقطع بكلامهما ويعتبر رؤيتهما للهلال شرعية ٠

واذا كان المجلس قد اصدر بيانا يناشد فيه (أى) مواطن رأى الهلال أن يبلغه بهذه الرؤية ، الا تنطبق هذه المناشـدة على (علماء الفلك) المسلمين الذين قد يرون الهلال من (نظـارات) أقوى كثيرا من النظارات العادية وأقدر وأدق ٠

ان علم الفلك وحساب مدارات النجوم والاقمار ليس علمـا (وثنيا) ولا هو بعلم (كافر) وانما هو علم اسلامى نبغ فيه علماء المسلمين واخذته عنهم أوربا المسيحية ، واذا كنا نحن نسـتعمل ونعتمد على الموجـات السلكية واللاسلكية (وهى اختراع أوربى مسيحى) فى توصيل (الرؤية) وخبرها الى كافة المسلمين سواء فى بقاع العالم المختلفة ، فكيف نستحل هذه الوسيلة (غير الواردة فى الشرع) ، ونحرم الوسيلة التى ابتكرها علماؤنا المسـلمون لمعرفة وحساب ظهور الهلال ؟

والمسألة فقط ليست مسألة فقهية أو شرعية من اختصـاص القضاة والفقهاء ، لقد أصبحت بداية رمضان المعظم وحلول عيـد الفطر مسألة (تنظم) حياة مئات الملايين من المسـلمين فى كافة بقاع الارض ٠ أصبحت مسألة اجتماعية اقتصادية فوق كونهـا دينية ، ونتيجة لهذا الارتباك يفقد المسلمون مئات بل آلاف الملايين من ساعات العمل والانتاج ، والمسلمون فى كافة انحـاء الارض معظمهم فقراء وفى حاجة الى جهد جبار خارق للانجاز والانتاج ، ويكفى أن نضرب مثلا على ما حدث يوم الاثنين والثلاثاء ١٢ و ١٣

سبتمبر فاعتقد انهما فقدا تماما كيومى عمل مثمر للمســـــلمين كافة ؛ وضاعت على المسلمين لا أقل من ألف مليون ســاعة عمل . والسؤال هو اين الحرام واين الحلال فى هذا ٠ ان نضيع اموال المسلمين وحياتهم على هذه الصورة ليزدادوا فوق فقرهم فقرا أم نبحث عن وسيلة موحدة يتفق عليها جميع المسلمين لتحــديد يوم صومهم ويوم أفطارهم ؟

اختراع جميل جدا

شعب غريب · اتأمل الكلمات التى طالما تبارى الكتاب والمستكتبون وأصحاب الحديث والمستحدثون التى يصفون بها شعبنا وأهز رأسى ·· الشعب العظيم ·· الشعب الطيب ·· الشعب المتحضر ·· الشعب العريق ··

ومنذ الثورة الفرنسية وظهور الماركسية أصبحت كلمة الشعب (دوجما) أى شىء غير قابل للنقاش وكأنه المعبود الجديد · كل قائد ثورة أو منشىء حكم يتبارى فى تمجيده ويذكر أنه (الشعب المعلم) ، (الشعب الملهم) ، له وحده اركع أو أخضع ومنه استقى الدروس وعليه أتتلمذ · ولقد حاولت فى لحظة تأمل أن أضع يدى على المدلول المادى الحقيقى لكلمة (الشعب) هذه ، وبالذات فى وقتنا الحاضر · ذلك أن المسائل تطورت ، خصوصا فى بلاد العالم الثالث ، الى درجة خطيرة ، فباسم الشعب يشنق هذا وباسم الشعب يؤله آخر واذا كانت السيدة التى قالت وهى تساق الى (الجيلوتين) لكى يفصل رأسها عن جسدها أيام الثورة الفرنسية ، قالت : أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك ، حتى ذهبت مثلا · ولكن (الحرية) كلمة محددة معروفة لها معنى ، عدوها ظاهر للعيان ان اجترأ وظهر ، ونصيرها من الممكن معرفته حتى ولو لم يعلن عن نفسه ، ولكن المشكلة الحقيقية ان كلمة الشعب ليست أبدا بهذا التحديد أو الوضوح · انها موجودة والشعب أى نعم موجود ولكن الكارثة ان كل أو تقريبا كل فرد من أفراد هذا

الشعب يستطيع أن يتحدث باسم الشعب ، كل انسان باستطاعته أن يقول أن شعبنا يريد كذا أو كيت ، وكل حاكم باستطاعته أن يؤكد انه انما يتخذ هذا الاجراء أو ذاك (باسم الشعب) · أو باسـم الامة أو باسم الامن القومى · كلمات كبرى ذات رنين خفـاق يبعث الرهبة فى القلوب ، فتصور أنك تأخذ اجراء كبرى ذات رنين خفاف لمليون أو لمئات الملايين من البشر اما يحقق لهم رغبـة أو تضرب دفاعا عنهم قوة · مسألة تجعلك تتصور وكأنه الشعب بملايينه قد اجتمع فى معبد هائل الضخامة هائل الارتفـاع مدوى الرنين ومن الصوت الحقيقى النابع من ارادة كل فرد على حدة تتجمع كقطرات الصوت سحب الرنين المتصاعد يرعد ويبرق وتهتز لها جدران الكون نفسه ان كان للكون جدران ·

المسألة فى أصلها اذن شىء رهيب لا يكاد العقل أو الخيـال يتصوره أو يحيط به · ولكن المشكلة كما قلت أنها فى دول العـالم الثالث مثلنا قد تحـولت الى شىء أبسط من البسـاطة ، من أبسط الاشياء على أى حاكم فى اسيا أو افريقيا أو حتى أوربا أن يقـول باسم شعبنا العظيم وتاريخه وتراثه وتقاليده الخالدة ، لا أقـول يعلن الحرب أو يقر دسـتورا وانما يرحب بزيارة رئيس وزراء أو أحيانا وزير ·

ويبدو أن هذه المشكلة لم تخطر ببالى وحدى ، يبدو أنها منذ زمن وهى تطرق أدمغة أناس كثيرين من دول أكثر تقـدما ولهذا ابتكروا من أجلها حكاية معاهد قياس الرأى أو الاستفتاء مثل معهد جالوب أو غيره ، فهو لدى أى عمـل يقـوم به رئيس أمريكى أو شخصية ذات أهمية عامة ، لدى كل حركة منـه أو لدى كل خطوة أو أزمة يضعون استفتاء عاجلا ليتعرفوا على مدى شعبية الرجل أو خطوته أو اتجاهات الرأى العام · ولكن هذا فى رأيى مجرد تعرف سلبى (لاتجاه) الرأى العام لا يمكن أن يصل الى تغطية كاملة لرأى الشعب ولا الى كشف عميق لما يريده الناس فعلا يتمنونه ، انهـم يختارون (عينات) من قطـاعات مختلفة من الجمهور من مختلف المهن والاعمار والبيئات ، وهذه قد تعطى فكرة شـاحبة جدا عن ماهية أو اتجاه الرأى فى هذا الموضوع أو ذاك ولكنها ابدا لا تمثل

الحقيقة الكاملة · بل ان الارقام التى تذيعها امثال هذه المعـــاهد نفسها أرقام يشكك البعض فيها ، رغم الضـــمانات الرهيبة التى تحاط بها اجراءاتها ، ويعتبرون أنها أيضا مثل الاذاعة والتليفزيون فى كل وأى بلد مهما بلغت ديمقراطيته (موجهة) ، بعضها موجـه بحذق ومهارة وخبث دفين من الصعب تماما اكتشافه ، وبعضه موجه بطريقة عبيطة تماما أو واضحة كل الوضوح لا يمكن أن تخفى على أحــد ·

★★★

ماذا جعل هذه الافكار كلها ترد الى ذهنى ؟ ربما السبب أنى طول اليوم أفكر فى كلمة الشعب والشـــعوب هذه ، واتأمل ليس فقط كم من الجــرائم ترتكب باســـمها ولكن المهــم كم من التزويرات تحـــدث باســـمها ، هــذه الاوضـــاع فى بـــلادنا العربية كلها ، فى منطقة الشرق الاوسط ، لا ، بل فى العالم كله ، أهى تعبر حقا عن ارادات شـعوب المنطقة أو العالم · ألســنا . كشعوب عالم ، مساكين الى درجة لا يتصورها عقل ، بغير ارادتنا نحارب ، ومسلوبى الارادة نسالم ، الحرب العالمية الاولى مثلا ، بأى حق تقوم ، ومن يذكر الان السبب الانسانى الملح لقيامها ذلك الذى أضــاع عشرات الملايين من أرواح البشر ، الحرب العالميـــة الثانية ، وما بين الحربين وما بعد الحربين ، سبعون مليون انسان قتلوا قتلا ودائما وأبدا باسم الشعب وباسم الشعوب ، حتى حين تدخل المبادىء حقل الوجود البشرى ، تلك المبادىء التى فى العادة تقوم لخلق انسان أكثر سموا وأقل وحشـــية وتأخرا فتتحول على أيدى الحكام الذين (باسم الشعب والمبـدأ) يحكمون ـــ الى مذابح والى دم كثير يســـيل وأرواح آدميـــة لا عدد لها تهـــدر لكى . وياللمهزلة ، يصبح الانسان أكثر سموا وأقل وحشية ·



وتصوروا الكارثة ، شعوب منطقتنا كلها تريد السلام والامن والاستقرار ، لا مواطن واحد فيها يريد الحرب الا من يعانى منهم حقيقة من لوثة عقلية ، وحكوماته ، باسم تلك الشـعوب الطيبـة

المسالة تدفع الامور دفعا الى هوة الحرب ، بالرفض أو بالقبـول أو بالتعنت وتحت أسماء كثيرة براقة خادعة ، مجرمة فى حقيقتها مجرمة اجراما يأنف منه الوحش ذاته ، تهيىء المسرح للمجزرة ٠

الاشد بعثا على الاسى ، بل على الضحك البـالغ قمة الاسى ، ان اسرائيل هى المتعنتة ، لانها ، وياللهول على رأى يوسف وهبى ، أكبر من العرب لكى تحظى بالامن وكى (تفرض) السـلام ، وكأنك تريد أن تعيش فى قرية فى الصعيد أو فى حلب وطريقتك لكى تحيا فى سلام مع أهل تلك القرية أن تذبح من أهلها عددا يخيف الاخرين ويجعلهم يرهبونك وبهذا تحصل على (الامن) و (السلام) ٠

ترسانة الاسلحة ضمان (للامن) ٠

الحرب والقتل هو الطريق (للسلام) ٠

وكل هذا باسم (الشعب) اليهودى أو الاسرائيلى ٠

ان رئيس وزراء أى دولة للاسف لا يقتل فى أى حرب تخوضها بلده ولا يجرح ٠

انما الذى يقتل هو الشباب البرىء من هنا أو هناك ٠

ورؤساء الوزارات ورؤساء الدول يبقون منعمين مترفين ، الحرب عندهم اذن لا تعنى سوى كلمة ٠

انما الحرب عند الشعب هى أزهاق روح ، روحى أو روحك أو أرواحنا ٠

وباسمنا دائما تزهق أرواحنا ، باسم الشعب ٠

اختراع جميل والله حكاية (أمن) الشعب ، و (مسـتقبل) الشعب ، و (المصلحة العليا) للشعب ٠

أختراع جميل جـدا ٠

له بالضـبط نفس جمـال العصـابة التى تحيط بعـين الجنرال ديان ٠

اختراع جميل لانه يخفى قبحا لا يستطيع البصر أن يتحمله ٠

حوار عن المرأة

ـ ولكن الغريب حقـــا أنه فى كافة الخطـابات والمكالمات التى علقت على ما كتبت لم يصلنى من (المرأة) تلك التى كتبت أدافـع عن حقها فى الكرامة وعن حمـــاية آدميتها ، لم يصلنى الا خطاب واحد من سيدة أو فتاة لا أعرف تتهمنى فيه أن دعوتى الى انسانية نسائنا دعوة رجعية وان لبست ثوبا تقـــدميا ، وفى الحق أن هذه ليست المرة الاولى التى اتعرض فيها لنقد ، فقد ذكرت مرة شـيئا عن ثقافة المرأة فانهالت على أقلام كاتباتنا العزيزات ، والحق أنى أحسست انى فى حاجة لتوضيح موقفى بالضبط من المرأة بشـكل عام ومن نسائنا بشكل خاص ۰ وهبط الموضـــوع الذى كنت قـد تحاورت فيه مع الدكتورة سناء السعيد وهى مراسـلة الـ بى ۰ بى ۰ سى فى القاهرة ، كالمنقذ ، وهذا هو نص الحـوار كما نشرته الدكتورة وكما اذيع :

ـ المرأة موضوعى ۰۰ اعتبر المرأة بالفعل رسالتى فى الحياة ۰۰ وهذا ليس نفاقا للمرأة وانما حبا فى الحياة ۰ ان مقياس انسانية أى انسان هو مدى ما يقدمه للحياة ، وبالنسبة لى فالمعادل للحياة هو المرأة ، ولهذا اعتبر كل ما يفعله الرجل بمفرده بعيدا عن المرأة هو بالضبط ممارسة بعيدة كل البعد عن الحياة ۰

ـ هل أنت راض عما وصلت اليه المرأة اليوم ؟

ـ بشكل عام ، اعتقد ان المرأة فى العالم الان ، ولا تزال الى حد كبير مهضومة الحق ولم تتبوأ بعد مكانها الصحيح · ليتنا نعود الى المجتمع الاموى فربما يكون هذا هو الرقى بعينه · أن الاشكال التى نستنكرها فى تصرفات المرأة هنا وهناك راجعة الى (تحديد اقامتها) داخل مجتمعاتنا · فهذه تصرفات عصبية انفعالية للتخلص من موقف العبودية الذى فرض عليها سواء فى المجتمعات المتقدمة أو المتخلفة · اننى مازلت أطلب للمرأة حق الوجود الاسمى فى أى مجتمع تحيا فيه لانه بغير ذلك سنظل متخلفين عن (الحياة) نفسها أو الحياة كما يجب أن تكون مهما تطورت واجهات الرقى المادية والاستهلاكية ·

ـ وما كم الحرية الذى تنادى به للمرأة ؟

ـ ستظل المرأة تتصرف بلا مسئولية مادمنا نحن نعطيها الحرية بالقطارة · أن الحرية هى الاكسيجين الذى يساعد الاشكال الضعيفة من الحياة أن تقوى ويهلك الطفيليات الضارة · الحرية هى الاكسير ، وبجرعات أكبر من الحرية وبالتالى من المسئولية نعطيها للمرأة نقضى على المساوىء · والحرية ليست التسيب كما قد يعتقد البعض · ان الحرية هى التصرف الصادق مع النفس والارادة الحرة غير الملوية الذراع ·

ـ ما الشىء الذى ينفرك من المرأة ؟

ـ ينفرنى كمبدأ ، سواء فى المرأة أو الرجل ، عملية الانتقال ، نحن فى عصر تستطيعين أن تطلقى عليه عصر الاقتراب من الصدق · كلما كان الانسان صادقا ويوصل صدقه للآخرين كلما أقترب من العصر ، وكلما اصطنع كلما تخلف أو ارتد أو فسد ·

ـ معنى ذلك أن عنصر التلقائية هو الذى يجذبك الى المرأة ؟

ـ لان التلقائية مرادفة للصدق · اتمنى اللحظة التى ترتفع

فيها كل المحاذير الذاتية من تصرفاتها وتبـــدأ تتصرف بتلقـــائية الصادق مع نفسه · لو اننا جميعا استطعنا ان نرفع هذه الاقنعة وتصرفنا بتلقائية وبعدم تخطيط خبيث للعلاقات بين الناس لوصلنا الى مرحلة بشرية أوقع وأحسن ·

ـ فكرة المرأة الغامضة ·· شعورك حيالها ؟

ـ قد تكون غامضة نتيجة عمق لا تفتعله وانما الغير هو الذى يشعر به ويحسه ويدرك أن وراءه عمقا حقيقيا · وقد تكون غامضة عن افتعال واصطناع شخصية وهذا نوع يثير الضحك والرثاء ·

ـ ورد فعلك تجاه الغموض غير المفتعل ؟

ـ أحاول اكتشاف كنهه ·· تماما كما أحاول اكتشـــاف كنه الحياة · غموض المرأة فى أحيان هو من غموض الحياة نفسها · ولهذا فالحياة لا تفتعل الغموض · هى غامضة رغم انفها · ولذلك عندما أنادى بالتلقائية لا أنادى بالبساطة · التلقائية هنا لاسقاط كل الاشياء التى تعوق العملية الحية · والعملية الحية فى حـــد ذاتها عملية غامضة جدا ومثيرة جدا وممتعة تماما · فأنها عندما أطالب بنزع الاسوار المصطنعة التى تمنع الانســان من الســلوك المضبوط ، أو تمنع الرجل والمرأة من الاقتراب من بعضهما البعض اقترابا صحيا حقيقيا فانما أدعو الى اقتراب أعمق وامتع ·

ـ ما هى فى رأيك المشكلة التى مازالت تسيطر على المرأة فى مجتمعنا ؟

ـ الرجل ! ومن أجل هذا فالمرأة تفقد الكثير جدا من طاقتها ومواهبها وقدراتها فى التفكير الزائد فى الرجل · ربما تصـــبح امرأة حقــا اذا ما بدأت تهتم بأشـــياء أخرى بجـــانب الرجل · اهتمامات الحياة العريضة الشـــاملة وليست لعبـــة البينج بونج القائمة بينهـــا وبين ذلك المسكين الرجل ربما كلما بعـــدت المرأة عن التفكير فى الرجـــل وبعـــد الرجـــل عن التفكير فى المرأة

اقترابا أكثر وتلاحمـا ليصـــبح منهمـا هما الاثنين ذلك الانسان الواحد الكامل · فالمرأة (نصف) انســـان ، والرجل (نصف) انسان ، والانسان الحقيقى رجل وامرأة معا ·

انتهى الحوار أو ارجو ألا يكون قد بدأ ·

للموظفين فقط

علامة بدت واضحة كل الوضوح الآن ، وهى سوء معاملة موظفى الدولة المتصلين بمصالح الجمهور للجمهور وكأنهم ينتقمون منهم · وأنا أعلم تماما يا يعانيه الموظف من نقص فى الدخل ومن مصاريف أولاد ومن ظروف معيشة ومن مليون مشكلة ولكن ما ذنبى أنا زميله المواطن لينتقم منى ويفرغ فى أزمته ·

أقول هذا لانى من بين أكوام الخطابات التى وجدتها تنتظرنى لدى عودتى ، قرأت هذا الخطاب الذى حز فى نفسى الى درجة أفسد على فيها الحياة الى الآن ، فقد تصورت نفسى فى موقف صاحب الخطاب ، وظل الالم يعتصرنى ويلح على ، وانا اذ انشره لا أفعل هذا لأقلق راحة أحد ، انما لارى الى أى مدى وصلنا فى تعذيب أنفسنا ·

١ ـ فى ١٩٧٧/١/٣ أخطرت تلغرافيا بوفاة نجلى محمد فريد وكان يعمل خبيرا اجتماعيا فى المملكة العربية السعودية وان جثمانه سيصل الى مطار القاهرة فى يوم ١٩٧٧/١/٥ ·

٢ ـ توجهت الى المطار فى صباح هذا اليوم ولكن الطائرة وصلت الساعة ١٢٫٣٠ صباح يوم ١/٦ بعد انتظار أكثر من ١٨ ساعة ·

٣ ــ وكانت الحكومة السعودية قد تكرمت وأرسلت مرافقا يصاحب الجثمان وزوجة ابنى وأولاده مشكورة ٠

٤ ــ استعلمت من ادارة المطار عن كيفية استلام الجثمــــان فطلبوا منى الانتظار حوالى الســــاعة ثم التوجه الى المخــزن لاستلامه ــ توجهت انا والمرافق الى المخزن ولا اذكر رقمه بالتحديد واستعلمت عنه فأخبرونى أنه فى المخزن الاخر الذى يبعــد عن هذا المخزن بأكثر من ٣ كيلو مترات وفعلا توجهت اليه واستعلمت منه وبعد فترة قالوا لى أنها موجودة فى المخزن الاول وتأكيدا لذلك فتحوا المخزن فشاهدت فيه تلالا من الصناديق والحقائب ولم أجـد فيه صندوق الجثمان ٠ وعدت أدراجى الى المخــزن الاول فابلغنى أمين المخزن انه سيبحث عن الجثمان وطلب من المرافق (السعودى من فضلك) عدة أوراق قدمها له ــ وأخيرا طلب منى طــابع دمغــة (بمناسبة مقالك عن الدمغة) توقيع ٢٥ مليما لاضعه على أيصال الاستلام وكانت الساعة ٣ صباحا فأفهمته بأنه لا يوجد معى طوابع دمغة وعرضت عليه أن يأخذ ثمنها فرفض وأفهمنى أنه يوجد مكتب بريد بالبدروم يمكن شراؤها منه فأفهمته بأننى متقــدم فى سن ولا يمكننى البحث عن هذا المكتب ورجوته أن يرسل أحد عمال المخزن لشرائها رفقا بوالد مات ابنه ويبحث عن جثمانه وأخرجنا ورقة من ذات الـ ٢٥ قرشــــا ليعطيها له ليشتريها ويعيد البــــاقى فاعتبر سيادته ذلك اهــانة له ٠ أغلق المكتب على نفســــه فتركت المكتب وذهبت للبحث عن مكتب البريد فوجدته مغلقا وعلمت أنه يفتــــح ٦ صباحا فانتظرت على البــــاب أنا والمرافق (الســــعودى من فضلك) حتى فتح فى الساعة ٧ صباحا واشتريت الدمغة وذهبت الى أمين المخزن وقدمتها له وظننت أن الامر قد انتهى واذا بسيادته يطلب منى أن اختار أحد العمال من عمال المخزن لاحضار الجثمان لانه لا يزال فى الطائرة ولم يصل المخزن ٠ وهنا لم اتمكن من ضبط اعصابى وصحت : لماذا اختار العامل الان ولماذا لم تقل لى هذا عند طلبك احضار الدمغة ــ وسقطت فى غيبوبة ، ولما أفقت بعــد ساعة تقريبا علمت من المرافق (السعودى من فضلك) انه اختــار أحد العمال واعطاه جنيها اتعاب احضار الجثمان وحضرت عربة نقل الموتى ودار السائق بين المكاتب المتعــددة طورا للاطلاع على

رخصة القيادة ومكتب آخر للاطلاع على رخصة السـيارة وثالث لاخذ تعهد عليه ـ واخيرا تسلمت هذا الجثمـان ـ ابنى حبيبى ـ وكانت الساعة ٢٠ر١١ أى بعد أكثر من ٣٢ ساعة من الاجراءات ٠

حسن حسنى عبد الحليم

٢ شارع قنطرة غمرة ـ ميدان الظاهر

★★★

عذرا لسردى هذه الفاجعة التى لا يمكن أن تحدث الا عندنا انى لا اطلب تحقيقا فى الموضوع فهو قد حدث ويحدث وسيحدث ـ وآلاف غيره ولكنى أريدها مرآة تعكس لسادتنا الموظفين ما يقومون به احيانا بوعى أو بدون وعى انتقاما من ظروف أو أزمات أو هكذا زهقا وضيق حال ، نحن منكم وانتم منا ، فلماذا يعـذب بعضـنا البعض لماذا ؟

لمن اخترعت كلمة « الدمث »

هناك أناس يموتون فتحزن عليهم لانهم خسارة وطنية أو قومية ، وهناك آخرون تحزن عليهم لانهم كانوا يمثلون لك أهمية خاصة وذهابهم سيضيرك أو يضرك ، وهناك أناس تحزن عليهم شفقة أو اشفاقا لما سيجرى لعائلاتهم من بعدهم ، وهناك أناس لانهم أصدقاؤك أو بعض معارفك أو عتبا على الموت أنه اختطفهم قبل الاوان أو غيلة · غير أنه فى النادر جدا ما تحزن لوفاة انسان ، لا لانه كان صديقا عزيزا فقط ولا زميل عمل فقط ، ولا كفوا فقط وانما فوق هذا كله قد تجمعت فيه وتركزت خصال هى فى النهاية التى تجعل من الانسان انسانا ، ومن العنصر البشرى عنصرا ساميا ، أسمى ما فى الكون الذى يجعله رغم كل موبقاته جديرا حقا بلقب انسان ·

وأنا حزين على صديقى محمود عبد العزيز محمود حزنا هز أعماقى هزا ولم يحدث لى من زمن طويل ربما منذ أن مات أبى من عشرين عاما ، ذلك لانه ليس حزنا (عقليا) ولكنه نابع من وجدان كان يرى فى محمود عبد العزيز الانسان ، ليس الانسان الكامل فلا كامل سوى الله ولكن الانسان الاكمل منا جميعا نحن الاحياء ·

ثمانية عشر عاما عملتها معه ، أحيانا باتصال عمل مباشرة وأحيانا بحكم الوجود فى مؤسسة واحدة سواء أكانت الجمهورية

أو الاهرام بل ومن الصدف الغريبة أن تكون علاقتى به خلال العامين الاخيرين علاقة عمل كاملة ، ومــاذا أقول لك عن علاقات العمـــل وضرورة أن يحدث فيها غضب واختلاف وأحيانا صدام ومقاطعة ٠ وباختصار عمرى ما رأيت مشرفا على عمل يومى الا وهو يتمتع بقدر كبير من الكره أما من مرءوســيه المباشرين ، أو زمــلائه أو رؤسائه ٠ هذا انسان نادر ذلك أنه ليس معى فقط ، وانما مع الجميع وأقولها بلا أى مجاملة ولا حتى مجاملة صديق مات شهيد الواجب والمهنة ، وانما أقولها كحقيقة لا يســتطيع أن ينكرها حتى أشـــد الناس كرها ، له لو حدثت المعجزة ووجدت فعلا من يكرهه ٠ نسمة انسان وسط جحيم القيظ البشرى الذى نعيش فيه كلمــا تراكمت متاعب الدنيا والعمل أحس على الفور انى فى حاجة لابتســامته ، وفى حاجة للحديث معه ، وأنا أعرف أنى لا أتحدث مع انســـان خالى البال أو لا يعانى من مشاكل ، بالعكس اتحدث مع انســـان تحاصره الهموم وتكاد تخنقه المشاكل ومــع هذا فهــو ابتســـامة حانية لغيره ، تقــدير مرهف ودقيق لظروف الاخر قبـــل ظروفه ، دمث ، ودمث كلمة طــالما استعملناها لنقـــر بحقيقة أو للتمنى أو للمجاملة ، أعتقد أنه لو لم توجــد كلمة دمث فى اللغة العربيـــة لاوجدها محمود كاملة وبكل أبعادها بتصرفاته ومواقفه وأفعاله ، لاخترعها بمجرد شخصيته اختراعا ٠

آخر مرة رأيته فيهــا كان يوم الاحـــد فى استراحة الرئيس بالمعمورة أثناء اللقاء مع الكتاب ورجال الاعلام ونحن نتصافح ، بابتسامته الودودة المصرية شد على يدى وقال : موعدنا غدا الاثنين لتسلمنى مفكرة الجمعة كما اتفقنا ٠ وقلت : خلاص يا محمود ٠٠ قال لا ٠٠ أريد أرجوك أن تحدد الموعد بالســـاعة والدقيقة وليس اليوم فقط ، قلت : لا ٠٠ أنى متنازل لك عن تحديد الساعة ، حددها أنت ، قال : لقــاؤنا اذن ان شـــاء الله سيكون فى الثانية عشرة بالدقيقة والثانية ٠٠ موافق ٠

ولكنه سبحانه شاء ان يتم اللقاء حقا انما بطريقة أخـــرى ففى الثانية عشرة تماما وبالدقيقة والثانية كنت التقى بمحمود ، كل ما فى الامر أن روحه كانت قد صعدت الى السموات العلى ، وجسده

كان محمولا على أعناق الرجال · لقاء وأى لقـــاء مضبوطا فى مواعيده وعهوده كما كان دائما ، وكما هى عادتى أنا غير مضبوط فى مواعيدى ، ولكنى هــذه المرة كنت مضبوطا تماما بل جئت قبل الموعد بساعة فقد كنت أعرف أنه آخر لقاء ·

عزاء لنا جميعا نحن العاملين فى أشق المهن وأكثرها متاعب ومعظمها متاعب فيها ومن ابنائها لابنائها ، عزاء لنا فى أجمل زهرة (أقسم ان هذا رأى حقيقى وأبدا ليس مجاملة لمحمود لانه ذهب) كانت تعبق فى صمت فى صحافتنا · والمؤسف انهـــا كانت تعبق لنا فقط · المؤسف أن جمالها ورائحتها لم تكن تصل بطريق مبــاشر الى القراء والجمهور والا لبكوا عليه بحرقة ومن قلوبهم وأكبادهم مثلما فعلنا نحن الذين عرفناه ، وكانت معرفته تمثل لكل منا نسمة رقيقة عليلة فى جحيم العلاقات الصحفية الخماســينية اللافحــة الذى تحيط بنــا ·

والى جنة الخلد أيها الشهيد ، فقد مات لانه كان يريد أن يسرع ليلحق بالعدد وفى وقت مبكر حتى يقدمه للقارىء كاملا عامرا فى اليوم لتالى · اذ هو الجندى المجهول وراء (الاهرام) تصـــلك حافلة وأنت المســتريح فى فراشـــك لا تزال أو خلف مكتبك تشرب قهوتك منسجما مرتاحا · مات ، والموت حــق ، والموت مصــيرنا جميعا ، ولكن أحيـــانا يكون للموت لذعة كقرصـــة (الكوبرا) صاعقة ، وسامة ، وبشعة الالم ·

الى اللقاء اذن يامحمود فى يوم لن يحـــدده أحد منا ولكن الهنا العظيم هو الذى سيتولى تحديده ، لقــاء لا فــراق بعــده ، اذ أعتقــد أن من متع الجنـــة أن يجمعك الله بكل من أحببت فى دنيــاك ، والجحيم أن يكتب عليـــك أن تكون حيث مع من تكرهه حتى ولو كان فى الجنة ·



الاســكان

تحول من أزمة الى مأساة خلقية

. مثلى مثل آلاف وملايين المصريين تابعت خــلال الاســبوعين الماضيين كل ما كتب عن قانون الاسكان الجديد وما دار من نقاش ٠ كل ما هو ضد القانون ، وكل ما هو معه ، كل من سماه قانون اعانة أصحاب البيوت وكل من جعله المنقذ الوحيد لازمة الاسكان الرهيبة التى نحيا فى ظلها ، ولا أدرى أهى الصدف المحضة أم لان الحال عام ومزمن وكالالام الروماتيزمية لا يكف عن النقح والطنين ٠ فقد تصادف أو وصلنى فى وقت واحد ثلاثة خطابات ، أثنــان منها من رجلين والثالث من مواطنة سمت نفسها الآنسة السيدة ٠

أحد الخطابات كان فى ست عشرة صفحة وكان كأنه نابع من عمق الام عمرها ألف عــام فقد كان من زوج يعرض على مأساة بلغ حرجى منها درجـة أن احترت أن أموت فيهــا على نفسى من الضحك غيظا أو أغتاظ منها الى حـد الانفجــار ٠ ومشكلة هذا المواطن أنه تزوج منذ عشر سنوات وظل زواجه موفقا لمــدة ست سنوات انجب فيها ولدا وبنتا ٠٠ والقصــة طويلة ٠٠ اختصرها بقولى أن زوجته كرهته وبدأت على حــد تعبيره (تلعب بذيلها) وأخيرا بعد أن ضاقت به السبل استجمع رجولته وقرر مواجهتهــا

وفعلا وفى غرفة النوم المغلقة (حتى لا يسمع الاولاد) واجهها ٠ ودهش هو بل روع لانها لم تحاول أن تصرخ او تتشنج أو تدافع أو تتهمه أو تصنع شيئا من كل هذا لانها ببســـاطة شديدة قالت : ما قلته ليس دقيقا فهذه المعلومات عائمة أنا عندى معلومات وتفاصيل اكثر مما قلته بكثير ٠ أنا بصراحة أصــنع كذا وكذا وفى نيتى أن أصنع كذا وكذا لاننى كرهتك بكل نفسى ماذا تريد ؟

اسهب فى شرح ما جرى له لدى ســـماعه ما قالت وفكر أن يهجم عليها ويظل يضغط بيديه حول رقبتها حتى يقتلها ولكنـــه كما يقول منعته أسباب كثيرة آخرها ولكنه فى رأيى أولهـــا أنه لا يملك الحيوانية الكافية لقتل فرخة فما بالك بزوجتـــه التى مهما كانت فهى انسانه وليست فرخـــة ٠ ايه رأيك بقى ـ ان كنت راجل صحيح زى كل الرجـــالة طلقنى ٠ وفعلا كما يقـــول (رمى عليها يمين الطلاق) وخرج الى الصالة ليدخـــن سيجارة ويفكر فيمـــا يصنعه بعد هذا ٠٠ غيرا أنه فوجىء لدى أول خطوة يريد أن يخطوها بمشكلة لا يمكن أن تخطر على البال ٠ أنه لا يستطيع أن يطردها من البيت فالشقة فى الحكم القضائى تعتبر مكانا للزوجة ولاولادها وأن عليه هو أن يذهب ، ولكنه لا يملك مكانا يذهب اليـــه فهو لا يستطيع أن يقيم مع شقيقه أو شقيقته او فى بيت العائلة فى قـــرية تبعد عن العاصمة ٣٠٠ كيلو متر بينما عمـــله فى العاصـــمة !! يطردها ويهددها بالقتل ؟! ويبدو أن الزوجة أو المطلقة كانت مستعدة لكل شىء وقد ذكرت له أن الشقة بحكم القانون شقتها وأن الاولاد أيضا بحكم القانون تحت ولايتها وأنهـــا قالت انهـــا لا تملك مكانه تلجأ اليه ، لا نقود خلوا لشقة ولا قريبة تسمح لها بالاقـــامة مع أولادها الاثنين معهـــا ، وأنا هنا قاعـــدة لا يستطيع أن يخرجنى أنس ولا بوليس ولا جان ٠ خرج الى القهـــوة واستشار ، وعاد وبات فى الصالة وفى العمل أيضا ، وبسرية تامة وبقيت المشـــكلة رابضة بلا حل بلا أمل فى اى حل ٠

فى الحقيقة بقى حل واحد فقط أن يرجعها لعصمته ، وذلك بأن يقوم بواجبه الزوجى فيصبح الطـــلاق كأنه ما كان ولكنهـــا رفضت هى بتاتا هذا الحل ، وتماما مجرد أن يلمسها فهى لا تقبل

حتى رؤياه فما بالك أن يقضى ليلة حب معها · وهى متمسكة بالطلاق الذى وقع ولا ذرة أمل أن تغير موقفها ·

ـ وأنا راخر متمسك ·

ـ طيب شـوف لك بقى حتة تتهوى فيها ·

ـ ماليش الا هنا ·

ـ والله تقعد هنا تمشى من هنا أنا ح أعمل اللى على كيفى واذا ما كنش عاجبك الباب يفوت الجمل ·

وهكذا بدأت المأساة التى كتب لى القارىء ست عشرة صفحة يستعرضها · فهما لا يستطيعان أن يقولا للنـــاس انهما مطلقان ، وفى نفس الوقت ليسا زوجين على الاقل بينهما وبين أنفســهما ، وهو يسمع ، ويشاهد المفتاح يفتح الباب فى الثالثة والرابعـــة صباحا بل وأحيانا بعد أيام قد تمتد الى أسبوع · وهو مضطر اما أن يرتكب جريمة ويقتلها · وهذا حـــل قلنا وقال هـــو أنه ليس باستطاعته ولا يبقى له الا أن يسكت ·

ثم طرأت على رأسه فكرة : طب ما راخر يعمل اللى هـــو عايزه · وفعلا كأنهما فى بيتين منفصلين بدأت النساء الغريبـات يدخلن ويخرجن ، وبالتالى بدأت هى تحضر الرجال الاغراب · بل وبدأ ما هو أتعس وأبشع ، بدأ الولد والبنت بعد الاسئلة التى لا تجد جوابا أو يجاب عليها بغموض لا يشفى غليـــلا · بدأ الولد والبنت يعرفان كل شىء وبالطبع ينهـــاران من الداخل تماما · ثم ثم بقية الخطاب الطـويل ألم ، ألم ، أبشـــع أنواع الالم والسبب (أزمة المساكن) والخلوات ! هذا خطاب ·

الخطاب الثانى يكاد يكون من دفعة من خريجى الجامعـــة وليس من مجرد فرد لم سيتطيعوا لاسباب اقتصـــادية والتزامات عائليـــة أن يتزوجـوا أيـام كان الخـلو مـائة ومائتى جنيـــه

وحين بدأوا يفكرون فى الزواج كان قد أرتفع اما الى التمليك بالالاف واما الى الخلو أيضا بالالاف • وصل بعضهم الى الاربعين والواحد والاربعين والخمسة والاربعين والعمر ينزلق ، ولا مال يتكون ليكون خلوا أو تمليكا ، ولا زوجة ترضى مادام الزوج جامعيا بأقل من السكن فى الشقة ، يعنى ذبالة عمرهم بدأت وتذوى وحنينهم الى الخلفة وتكوين عائلة تأويهم ليل نهار بتعاظم ، وهم كأبطال الاغريق الذين حلت عليهم (لعنة السكن) لا يزالون يسكنون كل اثنين فى حجرة وأحيانا كل ثلاثة بالضبط كما كانوا أيام التلمذة • ويسألنى القارىء فى النهاية ماذا يفعل وماذا أستطيع أن أفعل لمساعدته ومساعدة أمثاله ، وكأننى هرقل القادر على أن يقاوم لعنة آلهة الاوليمب أو شيطانه المساكن •

أما الخطاب الثالث القادم من الآنسة السيدة أو السيدة الآنسة فمشكلته أعجب ، والبنت من المنيرة ، من أسرة متواضعة تسكن هى وأمها وأبوها فى حجرة والولد أبوه مزارع باليومية فى احدى محافظات بحرى والاثنان أتاح لهما التعليم بالمجان فرصة أن يكملا ويدخلا الجامعة وليس أن يتخرجا فى وقت واحد فقط بل أيضا خلال السنوات الاربع يتعارفان ويتحابان ، وحيث لا مكان لاى شىء آخر ، فهو يسكن لدى خاله فى نصف حجرة يشاركه فيها أبن خاله وهى كما قلنا مع أبيها وأمها فى حجرة على السطوح بيت من بيوت المنيرة حيث لا مكان لاى شىء آخر • حتى ظلا خمس سنوات لا يتلامسان الا بالايدى وبالقبلات المختلسة فى الاورمان أو على ظلام ضفاف النيل أحيانا • وهما مخطوبان فى بنصر كل منهما دبلة ، ولكن فى القاهرة مأساة تمنع أى أنتقال الدبلة من اليد اليمنى الى اليد اليسرى أبدا ، حتى الكتاب كتباه بل ومن مرتبها المتواضع ومرتبه بدآ فى شراء أشياء للبيت • الحلم الذى لا سبيل الى تحقيقه الا بأن يعود هو فلاحا يزرع الارض مع أبيه وترضى هى أن تتنازل عن العمل وتعود تتعلم كيف تشتغل (نفرة) باليومية فى قرية حبيبها • وحيث ان هذا مستحيل ، والالتقاء تحت سقف واحد مستحيل أيضا ، وحيث اننا بشر ومكتوب حتى كتابنا ضج جسداهما بالوضع وحدث ما حدث فى ركن من سطوح البيت الذى تحتل حجرة أبيها وأمها قطعة منه ، واستحلياها ، فتكرر الحدوث

مادام (الجو ربيع) وصيف ، ولكن الكارثة لم تكن هنا · الكارثة حين جاء الشتاء وهما شابان يطفح جسداهما بالشباب وبالرغبة الحلال واستحال الحدوث على السطوح واستحال حتى يكون فى حجرة أبيها وأمها ذلك أن الاب مرض بالشلل النصفى ورقد فى الحجرة ليل نهار وأنت لا تستطيع أن تتوقف عن الطعام وقد تعودت أن تعيش بأكل الطعام ولم يكن هناك من حل آخر وبالاقناع والتلامة وبكل سلاح رضى الاب ورضيت الام أن يشاركهما الشابان الحجرة أثناء الليل · وضعا ستارة من القماش تقسم الحجرة قسمين وبدأت المأساة من أول ليلة بعد أن اطمأن الى استغراق الاب والام فى النوم بدآ هما يستيقظان · ولكن الشاب ريفى خجول ولساعات مضى يتصبب عرقا ويحاول أن يلغى وجود النائم فى نصف الحجرة الآخر غير أنه لا يستطيع أبدا ، لا ليلتها ولا ليالى كثيرة تلتها ، ولا طب ولا أطباء نفعا فالمشكلة ليست طبية انها (مرض سكنى) محض علاجه (الانفراد) · وتستغيث بى السيدة الآنسة لا توسط لها لدى المحافظ فقد بدأت تحس أن عواطف عريسها الزوج بدأت تفتر وتهدد بأن تنقطع وهو كما تقول : حياتها ·· ان تركها ستنتحر ، وهى لا تقول هذا تهديدا ولكنها بدت لى من خلال سطورها الطويلة الدقيقة أنها فعلا ستفعلها لو الشاب تركها ·



لم تعد المسألة اذن مسألة اسكان ، لقد تحولت من أزمة الى مأساة اجتماعية أخلاقية تماما وتدهورت انسانيا الى مراحل أحط من حيوانية الحيوان ·

أيها السادة الذين تناقشون فى مجلس الشعب مشاكل قوانين الاسكان نحن نواجه وضعا لا تستطيع الحكومة بامكانياتها الحالية حله ·· هذه حقيقة أنا متأكد منها · ومتأكد أيضا أن الملاك أو من يسمون القطاع الخاص هم وحدهم القادرون على زرع عمارات ومساكن مهما بولغ فى تقدير أرباحهم منها فهى فى رأيى المتواضع أهون ألف مرة من أجيال تتهرأ وقيم تغوص وتنمحى وأطفال حتما

فاسدون أو سيفسدون • أى حل فى هذه الحالة حلال ، وأقولها وأنا الاشتراكى المؤمن تماما أن الاستغلال هو شىء من أسوأ الخصـال البشرية ، أقولها مثلما فعل عمر رضى الله عنه حين أمر بايقـاف أقامة الحد أيام الازمة ، أى أوقف ركناً من أركان الاسلام • أقول فليرجوا وليستغلوا ، فلا بديل الا أن نتحول بواسطة الازمة الحالية الى حيـوانات فى زرائب كافرة بكل قيمة ، مسـتعدة لان ترتشى وتسرق وتفعل ما فعله مالك ، مادامت انسانيتها مهددة على هذا النحو فى أخص خصائصها : سقف يأويها • لقـد قدم المهندس حسن محمد حسن وزير الاسكان حلا يغرى به القطاع الخاص على الاسراع فى مساعدة الحكومة لسند مجتمع يتقوض فأرجوكم وافقوا الرجل وساعدوه على أن يصنع شيئا يكون فيه حل عملى للمشكلة ، فما أقرؤه من يريد وما أسمعه والمسـه من قصص شىء يختل له أى عقل لاى انسان لديه ذرة عقل • أنه شىء لا يمكن احتمـاله ، والى الجحيم بأى مكسب قد يكسبه صـاحب المسكن ، فالمطلوب أن يكثر العرض ليقل الطلب وبطبيعة الاشياء ما دمنـا سنغريهم فسيبنون أكثر ، ويزداد العرض وحتما سنصل الى وضـع تعتدل فيـه كفة الميزان • دعوكم من الالفاظ الجوفاء ، فالنـاس تتعفن نفوسـها من الداخل ، أجيال بأكملها تضيع ولا يمكن أن نسـمح للعفن أن يصيب أعماق بالذات شبابنا وشابتنا وأجيالنا الكثيرة التى كبرت فى الازمة وتقاسى بأعنف القسوة منها ، ولا يمكن أن نسمح لنفوس هؤلاء أن يصيبها العفن حتى لو جاء القانون ليعطى بعض المكاسب لاصحاب العمارات الموجودة المؤجرة مفروشة لتطرح للايجـار والتى ستبنى ، لنحل المشكلة قبل أن تحللنا تماما فنحن فى منتصف الطريق واذا اعتمدنا على الحكومة أن تبنى أرخص وأقل ربحـا فسنكسب قليلا من النقود هذا صحيح ولكننا سنخسر جيلا •• هذا اذا كان فى استطاعة الحكومة أن تفعل •• فما رأيك وهى لا تستطيع • انى هاهنا أناشد كل من باستطاعته أن يبنى بيتا أو عمـارة أن يفعل ، ولا أقول فلنكف عن بناء دور العبادة ولكن العبادة تبـدأ بمسلك ، والمسـلك يبدأ بمسكن ، وما فائدة أن تعبد الله فى بيته الفاخـر بينما الخطيئة كالنـار مستشرية فى بيوتنـا ، داخلها خارجها والسبب أزمة المساكن •• لا أعرف بلدا فى العـالم يمر بها على نفس الدرجة التى نمر بها نحن •• يمر بها أناس صامتون

فمعظم من يتحدثون ويتحذلقون على صـفحات الجرائد والمجـلات والاعلام لهم سقف يظلهم ويتيح لهم أن يكون لهم رأى أو موقف ٠ المعذبون ، المحروقون ، المكويون غضبا وحنقا الذين لا يكتبون ولا يكابــرون لا يملكون الا أن يمـوتوا بغيظهم هم الذين يعــانون ، بوحشية يعانون ، وكل مناقشة وكل تأجيـل يزيد من بشــاعة ما يحتملون ، فقرروا ، وفوروا شيئا ، أى شىء ٠

المهم : أى سينما ؟

أثار الموضوع الذى كتبته عن كرامة المرأة وانسانيتها التى يحاول اهدارها ردود فعل كثيرة وخاصة عند اصدقائنا السينمائيين الذين اعتبروا أنى (أهاجم) السينما المصرية (الناجحة) • ورأيى أن يعود هؤلاء السادة لقراءة ما كتبت • بل رأيى أن يقف منتج ومخرج وكاتب كل فيلم (ناجح) على أبواب السينما التى يعرض فيها فيلمه ويتلقى من الجمهور رأيه فيما شاهده مباشرة • وأرجو أن يخرجوا بعد هذه التجربة أحياء • بالعكس ان ما حاولته هو انقاذ حقيقى لصناعة السينما فى مصر • قد بدأت بلاد عربية كثيرة تمنع دخول الافلام المصرية خوفا على اخلاقيات شعبها وأجيالها الجديدة • واستمرار الحال على هذا المنوال هو التهديد الحقيقى لصناعة السينما ، أما مطالبتى ومطالبة غيرى بانتاج اعظم • وأكبر وأكثر متعة بحيث يحمل للمتفرج ترفيها حقيقيا يرفع من انسانيته ولا يخرج بعده وهو خجل من نفسه ومن بلده ومن سينمائييه وكأنه ارتكب بما شاهد خطيئة فى حق نفسه لا تغتفر • ذلك هو المطلوب • ان كل الناس مع السينما وأنا منهم ولكن معظم الانتاج السينمائى عندنا ليس سينما وليس فنا ولا

صناعة ولكن له أسما آخر من المستحسن أن يوضع عليه كما يحدث فى البلاد الغربية (المنحلة من فضلك) حينما نقــول أن هذا فيلم جنسى لا يراه الا الكبار وهذا فيلم يراه الجميع هذا فيلم لا يعرض الا فى النوادى الخاصة ، اما أن يدس لى ما اسميته بالماء الكاوى الذى يذيب القيم أبسط القيم حتى الصداقة فى اطار سينما للجميع فهذا هو ما لا يمكن أن يقبله أحد ٠

انها ليست دعوة الى التزمت وأن ترتدى أفلامنا الحجــاب أبدا ، وانما هى دعوة الى الصدق والصراحة والحرية فى معالجة أمور حياتنا ، حينئذ سيقبل الجمهــور اقبـــالا لا تحظى به الافلام الجبانة المفتعلة ٠ انفتحو على حيـــاتنا وعلى ما فينا من مــرح حقيقى ٠ على بطولاتنا وعلى اخطائنا وافعلوا هذا بشجاعة وهذا هو الانقاذ الوحيد ٠ مرة أخرى أقول الوحيد ٠

رماديات :

تلفت حولى أقرأ الوجوه ، لم يكن بها أثر لحـزن ما ٠ كان كل وجه برىء ويسمع ويصغى اليـك بل ويحادثك ولكنك تحس أنه مجرد قناع وأن الوجه الحقيقى غارق فى بحر خاص لا قرار له ٠ غريب هذا ٠ لقد تغيرنا ٠ لا أقصد كمجتمع وانما كأفراد وكتصرفات أفراد ٠ أنكر منذ عشر سنوات أو أكثر قليلا أن اشرف زميل لنـا على الموت فى المستشفى ، ومـا كاد الخبر يعـرف حتى غصـت طرقات المستشفى والحجرات المجاورة لحجرته بعشرات ولا أقـول بمئات من الزملاء والكتاب والفنانين والفنانات ٠ جزعهـم جـزع حقيقى نابع من القلب ٠ وفجيعتهم حين مات فجيعة حقيقية ٠

ثم ها نحن الان ٠ يموت أعز الناس ، فلا يستغرق الحـزن عليه دقائق ٠ حتى أقرب المقربين ، يحزنون هـذا صحيح ، ولكن طاقتهم على الحزن محدودة ، سرعان ما تستنفد ليعود كل منهـم يغوص فى خضم حياته ومشاكله ٠ حتى الفرح ، لم نعد نفرح فرحا كالبحر الهائج عارما صادقا صـادرا عن القلب بلا أى مانع أو حاجز ٠ نفرح هذا صحيح ، ولكنه ذلك الفـرح المحدود الضـئيل الذى نحاول تضخيمه باحالته الى قهقهة ، ولكنها قهقهة تخـرج عالية صاخبة انما بغير روح ٠ حتى ضحكات الجمهور فى مسارح القطاع الخاص ، ضحكات عالية ولكنها مغتصبة ، مشنجة ، حنجرية وكأنما يجاملون بها الممثلين على المسرح ٠ أيكون قد مضى بنـا

زمن البراءة والفطرة ، وان الحياة قد تعقدت وتشابكت والمشاكل كثرت بحيث لم يعد هناك مكان لعاطفة ما · مفرطة · بحيث لم يعد للاسود الفاقع أو الابيض الناصع وجـود فى حياتنا ، انما هـو الرمادى يصبغ كل شىء · برمادية نتلقى بزوغ الشمس فى الصباح ، برمادية نحتسى كوب الشاى ، بعيون رمادية نبدأ العمـل ، نحب ونتزوج ونجوع بلا مبالغة أو تفريط ، انما برمادية باهتـة نفعل · أين عواطفنا الجامحة ، أين الطموح العظيم ، أين الاقدام النهم على الحياة ، أين الحب وحتى آخر قطرة دم ، أين الشجاعة والاريحية والشهامة أين الصديق ؟

يخيل لى أننا قد أصبحنا نعيش بعواطف أخرى ، باشتياكات مصالح ، بقيم مختلفة تماما ، بكم من العواطف ما أشد ضآلته ·

كل الدلائل تشير الى اننا أجتزنا أشد المصاعب وعبرنا أكبر العقبات ، واننا فى طريقنا الى الاحسن · ولكننـا بشر · وأعتقد أن المحن الروحية التى خاضها انسـاننا المصرى خلال الاعـوام القليلة الماضية ، محن تشيب لهولها الولدان · محن كانت كفيـلة بخنق كل نبضة حيـاة فى أى منـا ، وبطولتنا أننا صـمدنا واجتزناها · وها نحن الان على الجانب الاخر ، ولكننا شـيوخ وصلنا ، حتى أطفالنا شابت منهم الرؤوس ·

وأملى أن أعيش حتى يسترد كل شىء طعمه الخاص ، حتى يعود للفرح فرحه ، وللحـزن روعته ، وللقلب دقـه ، وللعواطف تدفقها · أسنعود من جديد نضحك ونبكى ونجـوع ونحب ، ونفعل هذا بكل ذرة فى كياننا ؟

اننى لا أملك سوى الرجاء ·

وعن السينما أيضـا :

ونعود الى السينما وصناعتها وماء نارها الكاوى · ممكن أن يقوم قطاع خاص فى السينما هـــذا صحيح ولكنه لا يمكن أن يقوم على شكل دكاكين البقالة الصـــغيرة التى انتشرت فى حقل الانتاج السينمائى هذه الايام · ثمانون فيلما فى العــام · ليه · هوليود بجلالة قدرها لا تنتج هذا العدد ، مفروض أن يكون مقـابل هذه الافلام الثمانين ثمـــانمائة ألف عربة وخمســـمائة ألف آلة وأوتوبيس وأكوام من الانتـاج الصـــناعى والزراعى الحقيقى لا حصر لها · فما بالك اذا كانت ثمانون فيلما فيها على الاقل سبعون يضيع الفيلم الواحد منها كل أثر لاى كتاب أو ثقـــافة أو تعليم أو ضمير · أفلام تجأر بالشكوى والانين · أفـــلام لا بطولة فيها ولا مثل واحد يحتذى أو يرفع من قيمة الانسان وقدره · أفـــلام أما بطلها جبان يضحك بجبنه أو صديق يخدع صديقه أو فتاة يطاردها ذئاب البشر وهى مسكينة غلبانة مجنى عليهـــا يا عينى · ما هذا الكلام الفارغ · ان الفن هو ضابط الايقـاع للمجتمع ، واذا كان الهلس يسود أفلامنا فمن المحتم أن يمتد الى حياتنا يحيلها هلســا فى هلس ولا مبالاة فى لا مبـالاة يقتـل الطمــوح ويقتل القيم · أننى أتلقى خطابات كثيرة من القـــراء المصريين الذين يعمـــلون فى بـلادنا العربيـــة ، كيف تنـــدى جباهم خجـــلا وهـــم يـــرون مصر ونســـاءها وكيف تصـــور فى أفلامنـــا · كتب قارىء يقـــول : أحس بكرامتى وانســـانيتى تنـزف وان شرفى كمصرى مستباح تماما وبالذات لابناء البلد الذى أعمل فيه · حرام عليكم ·

وأنا أقول (لبتوع) السينما عندنا : ليس حراما عليكم فقط ولكن أقول لكم بصراحة أنتم تقدمون لشعبنا سما زعافا فى سبيل الربح ولابد أن نقيم عليكم وصاية شعبية أولا فقد ثبت أن الرقابة الرسمية لا يمكن وحدها أن تقف أمام هذا الاكتساح الهلسى الرهيب واذا نحن تركنا انساننا وانسانتنا لهذا الهلس فالعوض على الله فينا كشعب وحتى كأمة عربيـــة لاننا نصنع لهذه الأمة سينمتها وحلقاتها أنتم تريدون الربح والجمهـــور ولكم حق فى هذا ولكن الربح على طريقة دكاكين البقالة ربح صغير وهو الذى يدفعكم الى الهلس كوسيلة لجذب المتفرج ، والحل ليس مزيدا من الهلس ، الحل هو الاندماج معا فى شركات كبرى تحترم نفسها وتحترم ما تقدمه لمتفرجها وتربح أكثر حين تنفق على أفلامها أكثر ٠

واذا لم يحـــدث هذا الاندماج فاننى ـ أنا الذى ضد تدخل الدولة فى الفن ـ أطلب من الدولة أن تصدر قانونا عاجـلا لتنظيم صناعة السينما بحيث لا يســـمح لاى من هب أو دب أن يقدم أى قصة وأى كلام وهات يا أقلام ٠ اذا كنا لا نسمح للطبيب أن يعـالج مريضا الا بعد دراسة لا تقل عن العشرين عاما فكيف نسمح لجاهل أن (يعلم) شعبا كبيرا قيمه ومبادئه و (يربى) أجياله ، والكلمة هنا لا تنطبق على المنتجين فقط وانما ، وهذا هو الاهم ، على كتاب السيناريو والحـوار والمخرجين ٠ وأطالب فى نفس الوقت أن تتكون من النوادى الثقافية واتحاد الادباء ونقـابة الصحفيين ونقـــابة السينمائيين جمعية (حماية المتفرج) فالمســألة أخطر بكثير من أن نتركها لعبث بعض العابثين باسم حماية صناعة السينما ، فلتذهب السينما الى الجحيم اذا كانت تريد أن تذهبنا الى الجحيم ٠

ما دمنا نتكلم عن الفن

على كثرة ما نناقش الفن والفنانين والكتابة والكتاب على صفحات جرائدنا ومجلاتنا ووسائل اعلامنا المختلفة · الى درجة غريبة فى أحيان ، اذ أليس من الغريب أن تشاهد أو تسمع برنامجا بأكمله أو ربما سهرة تناقش عملا فنيا مثل أغنية أو رقصة وتناقش مسائل « الوحى » وتفاصيل عملية « الابداع » ؟ ذلك أن مشاكل كهذه تعتبر مشاكل خاصة جدا لا يمكن أن يناقشها المجتمع الا اذا كان قد فرغ من مناقشة معظم مشاكله الحقيقية العامة ، حينئذ باستطاعته ان يتفرغ لمناقشة مهنة كالهندسة ، ويتتبع تفاصيل خلق واقامة عمارة مثلا ·

المهم :

على كثرة ما نناقش مسائل الفن والكتابة فنحن أحيانا نغفل عن أبسط مبادىء الفن والكتابة · وأولها فى رأيى التفريق بين الفنان والحرفى ، وبين الكتابة و (حرفة) الكتابة · فنحن مثلا حين نتداول كلمة (موهوب) أو كلمة (فنان) نعنى بها ذلك الانسان الذى أوتى قدرة فريدة على مزاولة الرسم مثلا أو التلاعب بالكلمات كشاعر · نعتبر الموهبة اذن شدة حذق فى صنعة الرسم أو صنعة الكتابة أو صنعة التمثيل · ويصبح (الفنان) حينئذ انسانا مساويا تماما لاى حرفى آخر حاذق فى صنعته ·

ولنأخذ القصة مثلا ٠

عاملناها كحرفة ، وعاملنا القصاص أو اعتبرناه انسانا يحذق (فن) القص وجعلنا اختلاف القصاصين عن بعضهم البعض يقاس (بمهارة) كل منهم فى كتابة القصة أو حبكها ٠

ولا شك أن الفنون جميعا بدأت كصنعة أو كحرفة يتقنها بعض الناس كما يتقن آخرون (قص الاثر) أو صناعة القلل ٠ وظل الناس يعجبون بصنعة الفن لمرحلة طويلة جدا من الوقت ، ويفرقون بين الرسام أو النحات والاخر بمقدار كفاءته أو حذقه فى الرسم أو النحت أو الكتابة ٠

ولكن العصر الحديث حمل لنا ثورة فى مفهومنا للفن وللفنان ، فالفنان لم يعد مجرد ذلك الحاذق فى نحت الحجر أو الرسم بالفرشاة ، أصبح الفنان هو الشخص الموهوب ، ليس الموهوب فى صنعة التلوين أو الكلام ، وانما الموهوب برؤيته ٠ أى أنه موهوب لانه (يرى) فيما نراه أشياء (لا نراها) ٠٠ أشياء نعبرها أو نراها ولا نفهم مدلولها ومعناها ، الفنان هو ذلك الانسان القادر على أن يكتشف لنا أو يعيد أكتشاف العالم من وجهة نظره ٠ بمعنى آخر الفن لم يعد حذقا وصنعة وانما أصبح « رؤية » مختلفة الى الواقع ٠ فصحيح أن لنا عينين وأننا نرى ، ولكننا فى حقيقة الامر رؤيتنا محدودة جدا ، محدودة بقدرتنا الخاصة على الرؤية ، محدودة بمعلوماتنا عما نراه ، محدودة حتى بما نريد رؤيته ٠

فنحن نعيش فى الواقع ونرى ولكن أبصارنا محدودة بقدرة أعيننا على أدراك ما نراه ٠ الفنان هو الانسان القادر على ان يرى ربما أبعد ، ربما جانبا آخر لا نراه ، ربما نظرة جديدة الى النفس والاخرين ٠ ان الانسان فى الكون الهائل يشبه الطفل الذى يوضع فى حجرة مظلمة لا يعرف ما فيها الا بمقدار ما يلمس أو يتذوق أو يرى ٠ ولان الاصل هو الظلام فالقدرة على الرؤية محدودة جدا ٠ الفنان هو بمثابة شمعة تضىء وترينا أشياء ما كنا نراها ، أو بمعنى آخر قوة بصرية وأدراكية جديدة تضاف الى قدراتنا السابقة

فنحن مثلا نمر بالعربجية كل يوم ، ولكننا لا ندرك أنهم بشر وان لهم أحاسيسهم البشرية البالغة الرقة الا حين نقرأ مثلا قصة العربجى الذى مات ابنه واضطر الى العمل فى نفس اليوم وهو يحـــاول أن يحدث ركاب العربة عن ابنه وعن احساسه بفقده ولا أحد يأبه ، وهكذا فى آخر النهار يجد نفســـه يتحدث الى حصانه عن ابنـــه الذى فقده · بقصة كهذه جعلنا تشيكوف (نرى) انســـانية ذلك الرجل ، بحيث ما من مرة نرى فيها عربجيا الا ونراه مضـــافا اليه رؤية تشيكوف له ·

الفن كان صـــنعة حاذقين فى الصنعة فعلا ولكن الفن فى عصرنا الحاضر له مفهوم مختلف تماما ، اذ لم يعد صنعة ، أصبح رؤية ، أو وجهة نظر ·

وقديما كان يقسم الناس الاعمال الفنية الى فنون تشكيلية وهذه بدورها يقسمونها الى نحت ورسم وزخرفة الى آخره ، وأدب وهذا بدوره يقسم الى رواية ومسرحية وقصـــة طويلة وقصة قصـــيرة ومقال · بل وأضيف اليها أنـــواع اخرى : التمثيل والاخـــراج المسرحى والســـينمائى والرقص والموســـيقى ·· الى آخـــره ·· ذلك النوع من التقسيمات (المهنية) للفنانين لم يعد مهما اذا أصبح المهم فى عصرنا نوعا أو خبرة ·· أو صـــدق الرؤية التى يراها الفنان سواء الرؤية البصرية أو السمعية ·

هنا ارتفع دور الفنان من انسان يصنع الأعاجيب والطرائف ليستدر اعجاب الاخرين به وبعمله ، استحال الى ما يشبه الرسول أو قرن الاستشعار الاجتماعى الفائق الحساسية ، أصبح هـــو ذلك الملاح أو (الناضورجى) الذى يعتلى الصـــارية و (يرى) الافاق لركاب السفينة وينقل لهم هذه الرؤية بصـــدق ودقة · على وجه أكثر تحديدا تحول الفنـــان من كائن طريف وظريف ومجنون بعض الشىء وعبقرى فى روايات أخرى ، تحول من (أعجوبة) الى وظيفة اجتماعية لا يمكن أن يستغنى عنها مجتمع اذ هو قد أصـــبح (عين) المجتمع الذى ترى له وتنقل الى ملايين خلاياه كنه ما تراه من خطر أو أحلام أو من نظرات جديدة تماما او ارادة او ثورة ··

طبعا لم يتحول كل الفنانين الى هذا النوع ولا تزال الاغلبية العظمى من الفن والفنانين والنقاد والجماهير ترى فى الفن نوعا من الصنعة البالغة الاتقان والروعة ويأخذ الفنان مكانته على قدر حذقه فيها بل ان البشرية ستأخذ بعض الوقت لكى تبدأ تقدير الفنان ليس على أساس قدرته وبراعته فقط وانما على أساس نوع وحجم وصدق رؤيته · حينذاك سيقل كثيرا عدد من يمكن أن نطلق عليهم فنانين ، ذلك انهم سيصبحون أصحاب الرؤية الجديدة فقط ·

ويصبح الحكم على فنية العمل الفنى ليس بمقدار ما فيه من جمال مطلق أو حلاوة وانما بمقدار ما يحدثه فى المتلقى من أثر ــ فنحن اذا لم (ننفعل) بالرؤية التى ينقلها لنا صاحب الرؤية ــ فمعنى هذا انها خرجت عن دائرة الفن تماما · أى لابد أن تكون هذه الرؤية مؤثرة فى الناس وتجعلهم ينفعلون الى درجة تبنيها والا لسقطت كعمل فنى أو كأى شىء آخر ·

وقد يعترض البعض ويقول أن الرؤية هى دور المفكر وليست دور الفنان ، ولكن العصر الحديث أيضا يحسم الموقف اذ لم يعد لاى عمل فنى قيمة الا بمقدار ما يحمل من فكر أو أفق أو وجهة نظر ، ومشكلتنا أننا بعد لم ندرك هذا وبالذات على مستوى الاخراج السينمائى وكتابة القصص وحسبنا أن القصة الجديدة (طريقة) جديدة فى كتابة القصة ، فى حين أنها فى الحقيقة وسيلة صاحبها وحده لرواية وجهة نظره ، انها شىء خاص بصاحب الرؤية ، لا تقبل النقل أو التقليد ، وأنه فى عصرنا هذا تتولى وجهة النظر الجديدة خلق الطريقة التى تصل بها الى المتلقى ، بمعنى أن الطريقة غير منفصلة أبدا عن وجهة النظر وأيضا بمعنى أن أى وجهة نظر جديدة لابد أن تأخذ طريقها الى الجماهير بطريقة جديدة خاصة بها · انتهت مرحلة المدارس الكلاسيكية والتعبيرية والتجريدية الى آخره وبدأت فى البشرية مرحلة وجهة النظر ، مرحلة الفنان المفكر خالق الرؤية وخالق الطريقة لايصال الرؤية ونغادر شيئا فشيئا عصر الفنان « الصنايعى » الذى كل عمله أن يحذق فن القص أو فن الرسم أو فن الاخراج ·

★ ★ ★

أعتقد أن ما تقدم كاف لكى ندرك لماذا لا ننفعل بمعظم قصصنا السينمائية والمسرحية الرائجة ، ذلك لانها لا تزال فى مرحلة الحرفة ومحاولة (العمل الجميل) ولم تدخل بعد عصر فن وجهة النظر أو فن الرؤية ٠

وتلك أيضا الاجابة على الذين يسألون دائما : أين القصص الجديدة ، أو أين المسرحية ، ان الكاتب ليس (معمل) كتابة كما رأينا ، وكذلك الجمهور ليس فاغر الفاه طول الوقت على استعداد لتلقى القصة أو الرواية ٠ ان أى كتابة تحمل وجهة نظر جديدة هى (عمل فنى) بشرط أن تؤثر فى الاخرين وينفعلوا بها ، فالكتابة ليست مجرد رص كلمات وحروف انها وجهة نظر ٠ على الكاتب أو الفنان أن يكون صادقا تماما فى رؤيته وحساسا جدا عن ايصال وجهة نظره الى الآخرين بحيث يختار أنسب وأسرع الطرق لايصالها ٠ بهذا تكمل دائرة العمل الفنى ، وتكمل دائرة الرؤية ٠

المهم اذن ان تتصل الدائرة ، أن يكون هناك ذلك المركز الحساس المتنبه المسمى بالفنان ، وأن يصلنا ما يحسه بأى طريقة تجعلنا نشعر وننفعل ٠

اذ أن نفس هذه الطريقة ستكون (الشكل) المناسب للرؤية وبالتالى لعمله الفنى ٠ فقد يقول قائل : وماذا لو كان فى امكان الفنان (الرؤية) ولكنه لا يستطيع نقل رؤيته الى الاخرين على هيئة عمل فنى ، والرد على هذا بسيط فكل قادر على (الرؤية) المختلفة أو الجديدة أو الخاصة هو بالتأكيد فنان ، ولا يمكن لغير الفنان أو المفكر أو المكتشف أن يرى (رؤية) كهذه ، ومادام قد رآها ــ ذلك الفنان ــ فهو قادر على نقلها وايضا بطريقة فنية الينا ، أى الطريقة التى ننفعل بها وتؤثر فينا ٠ بمعادلة أبسط : كل صاحب رؤية فنان وليس كل فنان (أو حرفى) هو صاحب رؤية ٠

● الجد واللعب :

جاءنى ابنى « ١٠ سنوات » وقال لى وفى وجهه جد خطير :
بابا ... أنا مش عايز أروح المدرسة .

قلت له ولكنك لا تذهب الى المدرسة فعـــلا ، فأنت الان فى أجـازة .

قال : لا .. مش عايز اروح خالص ..

ـ يعنى مش عايز تتعلم .

ـ أيوه !

ـ أمال عايز تعمل ايه ؟

ـ عايز أبقى لعيب كرة .

أخذت كلامه أول الامر على أنه « كلام عيال » أو رغبـــة من الرغبات التى تبستبد بنا فى أحيان وتجعلنا نكره الدراسة والتعليم كره العمى . ولكنى وأنا ماض فى مناقشـــته ، اكتشفت انه قـد فكر فى المسألة طويلا ، ورأى أنه حتى لو طلع الاول فى الدراســة ،

والأول فى الجامعة بعد التخـــرج فلن يكون له ربع أو عشر حظ صالح سليم أو شحته الاسماعيلى ٠

نظرت الى الولد ، وسرحت ٠ ما من شك أن مرحلة الطفولة هى مرحلة اللعب والنزق والبراءة واللامســئولية ٠ انها فـترة الاسـتمتاع الاول بأنك كائن وحى وسط مجتمـع كائن وحى ٠ هى الفترة التى تزودنا بأجمل ذكريات العمر ، وامتع لحظات السعادة ، هى الفترة التى تذكرنى بالخطاب الذى القاه نهرو مؤسس الهنـد الحديثة ، ذلك الذى يحب الاطفال الى درجة غير معقولة ، كان نهرو يلقاهم بترحاب عظيم ، وفى احــدى خطبه قال لهـــم : أرجو أن تأخذوا وقتا طويلا جدا لكى تكبروا ٠ هذا الشـــاعر السياسى قد أدرك بسليقته أن الطفولة هى اجمل مراحل العمر ، كل ما فى الامر اننا لا ندرك جمالها الا متأخرين كثيرا ، حين نكون قد غادرناها الى الابد واصبحنا « كبارا » ٠

والتسلح بالتعليم واجب صحيح ولكننا بالطريقة التى نعلم بها اطفالنا نخنق الطفولة فيهم خنقا ، فمن سن الرابعة أو الخامسة تتسلمهم المدرسة ويتسلمهم « الواجب » وما لابــد من عمله ٠٠ حفظ الكلمات ، تعلم الكتــابة والحساب وتعلم اللغـــات والجغرافيـا والانشا ٠٠ ندخل الطفل بالقهر فى العجلة الجهنمية التى تلتهـــم عمرنا التهاما ولا تتركنا الا حطـــاما ، عجلة الحياة المســئولة بعلومها ، بعملها ، بالواجبات ، بالخضـــوع الاعمى للنـــاموس الاجتماعى ٠ عجلة لابد منها على أية حال ولكن ثمنها فادح ٠ ثمن اغلاه قطعا سنوات الطفولة حين نقدمها مبكرا جدا قربانا للعــلم وللمعرفة ٠

رحت انظر الى الولد ، غير مندهش كثيرا لمـــا قاله ٠ كم تمنيت لحظتها لو استطاعت البشرية بكل عبقريتها أن تبتكر طريقة لتعلم الطفل من خــلال اللعب ، وليس كما هو حـــادث الان من احلال التعليم محل اللعب ، فاللعب هو « عمل » الاطفال العظيم ، ولا يمكن أن يوجد رجل سوى لم يكن فى طفولته « لاعبا » عظيما ٠

كان أمامى مهمة شاقة ، كيف أقنع أبن السنوات العشر بضرورة وحتمية المدرسة والدروس والمذاكرة والاجتهاد التى عليه أن يفضلها على متعته القصوى التى يحظى بها من لعب الكرة ٠ وبالتأكيد لم أكن وحدى فى هذه التجربة بل هى تجربة كل أب وكل أم ٠٠ تجربة علينا أن نقنع فيها هذه الكائنات الطازجة البريئة بضرورة وحتمية أن يتحملوا عبء حياة درسنا فيها وضيعنا طفولتنا واجتهدنا وضيعنا صبانا ، وكافحنا وضيعنا شبابنا وفى مقابل هذا العمر الطويل المفقود ، ماذا اخذنا ؟

ومهما يكن ما ناله كل منا ، ايساوى لحظة سعادة حقيقية ، مثل سعادة الطفل حين يلعب الكرة ويحرز هدفا ٠

ألم يكن موقفى ، وأنا أحاول اقناع الولد بأمر أنا لست شديد الاقتناع به ، مضحكا ؟

● الشعب الآخر :

مضى العيد وكل عام وأنتم طيبـــون · أكلنا اللحـــم · لحـــم الضحية · والضحية كانت أيام سيدنا ابراهيم عليه السلام ، كانت هى الخروف الذى أرسله الله سبحانه فدية لسيدنا اسـماعيل · ولكن ـ كما تعرفون تمــاما ضحية العيد الكبير أصبحت أنا وأنت وسعر اللحمة الكاوى ، المربون والجزارون يذبحوننا نحن كل ما فى الامر أننا لا نعلق فى خطـــاف أمام الدكان ، فنحن (الدجاجة) التى تبيض الذهب ، ولابـد أن نبقى أحياء ، لنبقى نأكل وندفـــع ونصبح (ضحايا) معظم أيام السنة ·

ومع هذا فكل سنة وأنتم طيبون ·

ولكنى لا أريد أن (أعيد) عليكم أنتم أبناء مدينتنا وبلادنا ، فنحن هنا ، مهما ضاق بنا هنا ، ونحن معا وان كنا قد ضقنا معــا ، ونحن وان كنا نحس بالغربة الا أنها غربة الضـيق بالمقـــام ، أما الغربة الحقة فهى غربة المحن الى المقام · الخـــارج متسترا ذات مرة بظلمة الليل أو مقترضا ثمن التذكرة ، الذى سـدت فى وجهه السبل أحيانا وأحيانا قطع عليه الطريق قطـــاع الطرق · أولئك الذين انطلقوا شعاعات نابضة من أرضنا وترابنـــا وتفرقوا فى أنحاء الارض وتبعثروا هم شعب الله غير المختار من استراليا الى

كندا ومن المكسيك الى هونج كونج ، هذا الشعب المغترب الاخر ، المدرس فى أقصى كويبيـــك ، المهنـدس فى الكويت ، المدرســــة فى الجـزائر ، والممرضـــة فى دبلن وعـامل اللحـــام فى الربع الخـــالى ، يا أولاد وبنـات مصر فى كل مكان من سـطح الارض كل عام ونحــن جميعـا طيبـــون ٠٠ والله يجـــازى اللى كان السـبب ٠

الفرق بين
« الجدية » و « ثقل الدم »

أخشى أن يؤدى النقد المنهال على مواد أجهزة الاعلام ، وبالذات التليفزيون الى نتيجة عكسية تماما · ان النقد الذى يقال ويكتب ينصب معظمه على (تفاهة) التمثيليات وسطحيتها ، وسخافة بعض مقدمات البرامج واقحام رقص هز البطن ومواد التحلل الخلقى بمناسبة وبدون مناسبة · وقد بدأنا نلمح آثارا لهذا النقد وكارثة حقيقية هى ما حدث ، فقد بدأت معظم البرامج تتحول الى برامج وعظ وارشاد باعتبار أن هذه هى (الجدية) المطلوبة ، والعودة الى القيم الروحية · واعتقد ان المسئولين عن التليفزيون اخطأوا تماما ما يقصد بنقد البرامج التافهة و (الهايفة) · فليس الوعظ والارشاد هو الرد على التفاهة والسطحية · ان النفس البشرية تضيق بالوعظ المباشر تماما وتكرهه ربما أكثر مما تكره التفاهة ، فليس ابغض للانسان من ان يجلس امامه فى التليفزيون انسان آخر منتفخ الكرش والاشداق يتملظ بالكلمات ويأمره أمر اليقين كيف يتصرف وماذا يجب عليه ان يفعل فى كذا أو كيت · حتى الاطفال يضيقون بالنصح المباشر · والرد دائما هو اغلاق الجهاز أو تحمل الكلمات الغليظة على مضض وربما توطين النفس على العمل بعكسها تماما ·

أجل ، مهما اخطأ المسئولون عن التليفزيون فى فهم كلمة (الجدية) و (التمسك بالقيم الروحية والاصيلة لشعبنا وامتنا) ،

وفهموا ان الجـــدية تعنى التهجـم والصرامة والوعظ المبـــاشر والارشاد • فى حين لا علاقة مطلقا بين الجدية والصرامة ، فالجدية تعنى احترام عقل المتفرج وعواطفه ومعـاملته باعتبـــار انه ليس كائنا عبيطا أو ساذجا أو طفلا من السهل ان (تضحك) عليه أو تخدعه ، الجدية تعنى معــاملة المتفرج باعتبار انه عاقل وعمـيق وناضج ، ولهذا لا يمكن ان تنفذ اليه أو تصله الا من خلال احترامك لعقله واحترامك لشعوره وقيمه والجدية أيضا ليست ضد المتعة أو الاستمتاع ، فاذا كنا ســاخطين على (السطحية) و (الهيافة) فلسنا ساخطين الا لانهما أقل امتاعا ونحن ننشــد المتعة الاكبر والاعمق • وان محمد رضـــا مثــلا حين يظهر فى دور ابن البلد العبيط لا اعتقد أنه يضـحك حتى أولاد البلد انفسهم ، انهـــم لا يضحكون من محمد رضا بقدر ما يضحكون عليــه ، فابن البلد ليس عبيطا وفى حيــاته الكثير مما يضحك ولكنــه ليس نتيجة عبطه انما نتيجة المضحكات من مشاكل • ان ابن البلد يملك كل فكر جحا وسخريته وذكائه ، وهو يضحك (على) الاخرين ، وبالذات على هؤلاء الذين يحاولون تصويره على هذه الدرجة من السذاجة وحسن النية •

ان الجدية هى الاستمتاع بعمق • أن الممثلة الجادة قد تمتعنى بحديثها أو بارائها الفلسفية والفنية • بل أن مقدمات البرامج ليس مهما أبدا شكلهن أو بروكاتهن والغريب ان تليفزيونا متقدما جدا كالتليفزيون البريطانى لا توجد به مقدمات برامج أو نشرات اخبار على الاطلاق (رغم وفرة الجميــلات البريطــانيات) ذلك لانه حين تأتى المسألة لتقديم برنامج ، أى مخاطبة المتفرج من خلال عقل ذكى ناضج فليس مهما ابدا حينئذ (شكل) المتحدث بقدر ما هو مهـم طريقة ونوع وأهمية حديثه •

ان الجدية التى نطالب بها هى أولا واخيرا ، وبجانب هجــر السطحية والتفاهة ، الغوص الى المواضيع الاساسية فى حياتنا • والمضحك أن برامج التليفزيون مهما تطورت فانها ستظل دائمـــا وابدا هامشية لاننـــا لا نســتطيع أن نناقش داخــل جهــاز عريض كالتليفزيون أى مشكلة هامة فى حياتنا • انك لا تستطيع أن تناقش

من خلاله أيه مشكلة أخلاقيـــة أو اجتماعية خطـيرة أو تربوية أو جنسية وطبعا لا يمكنك مناقشة أى مشكلة سياسية أو نقد أى جهاز من أجهزة الدولة · حقيقة ، فى الوقت الذى لا نخجل فيه من عرض تفاصيل جسم المرأة فى بدلة الرقص نخاف أن نعرض لاى تفصيل من تفاصيل النفس الداخلية المصرية · وما دمنا متبعين ســياسة النفاق العـــام هذه والحرص على عدم اغضــاب أحـد أو جهـة أو مسئول فستظل جميع المشاكل التى نطرحها غير اساسية وغـير هادفة وســطحية وسنلجأ دائمـــا أما الى النفاق وامـــا الوعظ السخيف والارشاد المباشر ·

وتريدون الجدية فى برامج التليفزيون ، للنظر اليه أولا بالمكبر أنه جهاز ناضـــج يخاطب شـــعبا ناضجا وليس صندوق دنيـــا يخاطب مجموعة أطفـــال ويعرض أى شىء الا أهم الاشـــياء فى حياتنا ، ويناقش أى شىء الا ما يستحق فعلا أن يناقش وان يطرح على الرأى لعام ·

تريدون الجدية ، أحيلوا جهـاز التليفزيون من جهـاز تدليك وتخدير الى جهاز ايقاظ وتوعية ، جهاز عرض حقيقى لكل ما هو حقيقى فى حياتنا فبهذا ، وبهذا وحده ، تتحول البرامج الى برامج جادة فعلا لانها ستتحول الى برامج (ممتعة) فعلا ·



● موضـــة :

بالشرف ، اننا فعلا قوم غرباء ٠

خذ مثلا أزمة المواصلات ٠ لقد قالت لى مرة سائحة ألمانيـة انها لم تر فى حياتها أبشع أو أفظـــع من منظر المصريين وهـــم محشورون فى الاوتوبيسات والقطارات بهذا الكم ، وبهذا التلاحم الذى ربما نحن قد اعتدنا عليه ولم يعد يدهشـــنا : ولكن اذا رأته العين الغريبة لاول وهلة فأنها لابد تصاب بالرعب ، وهذا بالضبط ما حدث للسائحة الالمانية ٠

اننا نفكر فى حل مشكلة المواصلات تفكيرات غريبة فعــلا ، فنحن ندرس امكان حلها عن طريق مترو الانفـــاق ، مثلما فعلت لندن وغيرها ، غير مدركين أن مترو لندن استغرق بناؤه واستكماله حوالى نصف قرن من الزمان ، وتكلف أيام كان الكيلو متر واحد يتكلف عدة آلاف من الجنيهات تكلف مليـــارات فما العمـــل الان والكيلو لا يقل الان تكلفة عن خمسة ملايين جنيه ٠

أو نفكر فى حلها بالمونوريل ، الذى قد لا يعادل فى تكلفته هذا المبلغ الباهظ ولكن المشكلة أنه غير صالح الا لخط (دوغرى) مثلة مثل مترو حلوان ٠ غرباء لاننـــا لم نفكر فى أبسط وأهـــم وأكثر الوسائل عملية لحل أزمة المواصلات ٠ فنحن دائما نفكر بالمرادفات

الضخمة للحلول ، المونوريل والمترو والقطار والعربيات والتاكسيات · فى حين أن أوربا التى تصنع هذه الوسائل وسيلتها المحلية الاولى هى الدراجة ·

أوروبا للسفر البعيد تستعمل الطائرة أو الباخرة أو القطار ، للويك اند أو للانتقال بين المدن تستعمل العربيات ، أما للتنقل داخل المدينة فقد يستعملون الاوتوبيسات أو التاكسيات ولكن الوسيلة الشعبية الاولى هى الدراجات ·

بلد مثلا من أغنى بلاد أوربا مثل هولندا الدراجة هى الوسيلة رقم واحد للاستعمال ، بل ان الشوارع هناك مقسمة الى ثلاثة شوارع رصيف للمشاه ، وشارع واسع لمرور العربيات وبينهما شارع مخصص للدراجات ·

اليابان التى تعتبر ثانى بلاد العالم فى صناعة السيارات ، وللنكتة هى أيضا بلاد المونوريل ، الدراجة هى الوسيلة الاولى لانتقال الفرد بها · بدلا من الانتظار والتكدس والاختناق ها هى ذى الدراجة ، تلك التى استعاض بها الانسان منذ قرن عن ساقيه الطبيعتين ، ميعادها تحت أمرك ، خط سيرها تحت أمرك ، توقفها أو تحركها أو تتلكأ بها أو تسرع وفق أمرك أيضا ، والمهم هنا ان سعرها ، وخاصة اذا استوردناها أو صنعناها بكميات هائلة سيكون تحت أمرك مهما كان دخلك بسيطا أو متواضعا ·

حين قلت هذا لبعض الرجال والسيدات ، اعترضت السيدات بشدة ، أبى خيالهن أن يتصورن أنفسهن راكبات دراجات فى الشارع ، انبرى رجل وقال : بل الجو · ان جونا حار ولا يمكن احتمال ركوب الدراجة فيه · ولو قدر لهؤلاء جميعا أن يذهبوا الى بلاد جحيمية الجو مثل تايلاند أو سنغافورة ، وهو يرى الناس جميعا يركبون الدراجات ، ولو قدر للسيدة أن تقارن بين أن تتحمل اختناق نفسها وجسدها فى أوتوبيس سرديني الرائحة ، سرديني المحتوى ، اعتقد أن الدراجة ، وخاصة نصف الموتور يعتبر ركوبها جنة بالقياس الى غيرها من المواصلات ·

أما حكاية الجـو هذه فهى تجرنا الى لب المشـكلة ، فالماكسى جيب مثلا أو البنطلون المحزق ، ليست انسب الازياء فى جو مثـل جونا ولكن السـيدات يتحملنه ويتحملن ما هو أكثر منه فقط لانه موضة · وكل ما ينقص الدراجة لتصبح الوسيلة الحاسمة السريعة لحل أزمة المواصلات التى بلغت الحلقوم أن تصبح موضة وأن تركبها ميرفت أمين ·

● جمهـورية حسن الامام :

لن أستغرب اذا صحوت ذات يـوم أو بالضبط ذات ليـلة فوجدت ان نساء مصر والبلاد العربية قد تحولن جميعا الى عوالم أو راقصات · ذلك أنه بينما مثقفو مصر الغلابة مشغولون بقضـية اليمين والوسط واليسار فالثقافة الحقيقية التى تنصب فى عقـول وقلوب أغلبية الشعب المصرى ليست سوى ثقافة (هز الوسط) . بحيث أصبح المثل الاعلى للمرأة عند البنت المصرية ليست هـدى شعراوى أو مى أو صفية زغلول أو حتى فاتن حمامة ، المثل الاعلى أصبح الراقصة ·· أو العالمة بمعنى أدق ·

واذا اعتقد أحـد أنى أبالغ فليرينى فيلما أو مسرحية كتبت عن نموذج طيب حى أو ميت للمرأة المصرية ، أمام هذا الزحف الهائل من الملاحم (البطولية) التى أغرقت وتغرق السوق تمجيدا وتخليدا للعوالم والراقصات ·

من شفيقة القبطية الى زوبة الكلوباتية الى أخيرا بمبة كشر ·

ما هى البطولات العظيمة التى قامت بهـا شفيقة أو زوبة أو بمبة ، وأمثالهن ليستحققن هذا التكريم ، ليدخلن التاريخ من أوسع أبوابه ـ السينما ـ تجسيدا حيا لمعاناة ومأسـاة ومهزلة المرأة المصرية فى كل تاريخها الطويل ؟

اننى لم استغرب كثيرا حين رحت أسـتمع لفتـاة عراقية صغيرة تحب الافـلام المصرية عن تصـورها للقاهرة الحـافلة

بالكباريهات والراقصات والعوالم ، ودقة معلوماتها عن تفاصيل التفاصيل فى قصة ادمان شفيقة القبطية للهيروين .

ما هذا أيها السادة ، أو بالاصح أيها السيد الاستاذ حسن الامام ؟

لقد ذكرت ـ على ما أعتقد ـ فى حديث تليفزيونى أو صحفى لا أذكر أنك عشت فترة فى شارع محمد على وأنك تأثرت تأثرا كبيرا بحياة العوالم والراقصات وكنت تقول هذا تفسيرا لانجذابك الشديد لصناعة أفلام بطلاتها عالمات ولكن ما ذنبنا نحن الشعب المصرى والعربى ، ما ذنبنا أن يستحيل حب حسن الامام للراقصات والعوالم الى المادة الرئيسية للوجبة الثقافية المحدودة التى يتناولها المواطن المصرى من السينما . فالسينما بالنسبة لجماهير الشعب العريضة ليست مجرد (فرجة) فقط ولكنها تكاد تكون وسيلة الثقافة الوحيدة لهذه الجماهير . ان أكثر الكتب رواجا وتوزيعا وأكثر الصحف والمجلات انتشارا ليست سوى قطرة ضئيلة اذا قيست بجمهور السينما والتليفزيون الذى يعد بالملايين . الملايين التى لا تقرأ ولا تغرق القراءة ولا تستمد قيمها وفهمها للحياة الا من خلال ما تراه عيونها فى السينما أو فى التليفزيون .

والمرأة المصرية المكتسحة البطلة فى هاتين الوسيلتين ، أو بالاصح فى الافلام المصرية هى المعلمة أو العالمة أو الراقصة .

لقد ظللت أنظر لهذه القضية بلا قلق كثير ولكنى فزعت حقا حين كنت فى الاسبوع الماضى مدعوا لحضور (كتب كتاب) ، وبعد انتهاء الاجراءات التقليدية ، جاءت راقصة ، وأيضا ليس هذا هو المهم ، وانما على دقات الطبلة نفسها دخلت الى الساحة فتاة صغيرة لا تتعدى السادسة من عمرها تشارك الراقصة فى الرقص ، تحمس الحاضرون للامر باعتباره طرفة من الطرائف ، ولكن الامر ما لبث أن تحول الى حدث وواقعة بهرت الجميع . فقد أخذت الطفلة تتلوى وتؤدى بجسدها حركات ، مقتبسة طبعا مما تشاهدة

من رقص ولكنها مؤداة بطريقة جنسية مثيرة للغاية والبنت الصغيرة لا تعى طبعا ما تفعله بنفسها وبجسمها ٠

ها هى ذى الثقافة الرقصية التى تتعلمها بناتنا الصـــغيرات وفتياتنا ، بحيث ، حين يكبرن قليلا ، ويصبحن من جماهير السينما ، يجدن البطلة (عالمة) والتجارة فى هذا الجسد الذى منذ الصـغر وهو يتلوى تلويات جنســـية فاقعة مسألة لا تدعـــو للدهشة أو للانزعاج ، بالعكس ، تصبح مثلا اعلى ومطلبا ٠

وبهذا يتحول مجتمع كهذا الى مدرسة كبيرة لتخريج الجوارى والعالمات والمومسات ٠ فماذا يمنع هذا ، والمحيط كله والجو كله والبيئة كلها تدعو لهذا وتحرض عليه ٠

وهكذا يتم للاستاذ حسن الامام حلمه وتتحـول مصر جميعها الى شارع محمد على ، ولا تعليق ٠ !!



● الخبر المزعج :

كدت لا أصدق عينى وأنا أقرأ الخبر ٠ فصحيح أنا لا أعرف أعضاء اللجنة ولكنى أعرف الدكتور عبد العزيز كامل ، ذلك الرجل الفاضل العاقل المؤمن الواسع الافق ٠ وليس معقولا أن يشـــترك الدكتور عبد العزيز كامل فى أمر كهذا أو يسمح به ٠ الخبر يتعلق بميثاق العمل الاسلامى وتطبيقه ، فقد اجتمع مؤتمر الجمعيـــات والهيئات الاسلامية برئاسة الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية ووزير الاوقـاف وأقر بعض خطوط ميثاق العمل الاســلامى ٠

وفكرة الميثاق نفسها وفكرة العمل به شىء رائع حقا فمـــا أحوجنا الى ميثاق عمل وشرف اســلامى يقود نشـــاط الجمعيات والهيئات الدينيــة ٠ وكلنا ننـــادى بأن يكون نشـــاط الجمعيات والهيئات الدينية نبراسا ينير لها الطريق ٠ وكنت أفهــم أن يكون الهدف من هذا الميثاق الاسلامى هدفا أسلاميا حضاريا حقيقيا وذلك بالعودة الى المنبع الاصيل للدعوة الاســـلامية الحقة وتنقيتها من الشوائب الكثيرة التى لحقت بالعقيدة وألصقت بها زورا وبهتانا ٠ وخاصة فى عصور الهزيمة والضحالة الثقافية والتخلف ٠ أفهــم أن يكون ميثاقا كهذا دعوة عميقة خالصة لتجديد ايمان هذه الامة ، والخروج بالدعوة الاسلامية من حفائر العصور الوسطى الى واقع العصر ووجدان الانسان المصرى الذى يعيش فى الثلث الاخير من القرن العشرين ٠

أما أن اكتشف أن هذا الميثاق ليس سوى دعـــوة الى خلق هيئة أو مجلس أعلى يهيمن ويراقب ويوجه ليس الجمعيات الدينية فقط ولكن كل وسائل الاعـــلام والثقافة والصحف والمجـــلات والمطبوعات الى درجة أن يقرر مؤتمر الجمعيات الدينية ســـالف الذكر فى توصيته الاخيرة بأن يكون للازهر أشراف مباشر على كل المطبوعات والكتب التى تصـــدرها مختلف الهيئات والاجهـــزة والاشخاص (ضمانا لســـلامة مضمونها وحاجة الناس اليهـــا) كما جاء فى نص القـــرار ٠

هذا نجد أنفسنا لا نواجه ميثاق عمل اسلامى ينهض بالامـــة عقيدة وسلوكا ولكنا أمام (محكمة تفتيش) جديدة ، ممكن باســـم الاسلام والدين والعقيدة أن تصادر أى شىء بدعوة أنه يتعارض مع تعاليم الدين ، ممكن أن تصادر حرية التفكير نفسها وحرية التعبير وتفرض دكتاتوريتها هى فى فهـــم الدين ، فالازهر الشريف ليس شيئا معنويا ، الازهر وعلماؤه بشر مثـــل البشر ، بشر ليسوا أبدا فوق مستوى الخطأ ، بل حتى لو أصابوا فى كل قرار أو أمـــر فان رأى كل منهم محدود بوجهـــه نظرة فيما يمس الدين أو لا يمسه ، اننا نسمى عصرنا هذا عصر الانفتاح وليس مجرد انفتاح اقتصادى لاغراء رأس المال العـــربى أو الاجنبى على المجىء والقـــدوم ٠ الانفتاح أولا يكون بانفتاح العقل المصرى على مختلف حقائق العصر ووقائعه ، يكون بازالة الحـــواجز والموانع التى كانت تحـــول بين الانسان المصرى وبين استعمال عقله وذكائه ذلك الذى سلحه بهما الله سبحانه ليستعملهما فى ترقية حياته ووجوده واستقامة سلوكه وصفاء ايمانه ٠

أن الاسلام دين قوى ، دين لا يخاف العقل لانه دين العقل ، ولا يخاف العلم لانه دين العلم ، ولا يخاف التطور وفتح الافـــاق لانه دين الحرية ، ومتى استعبدتم النـــاس وقد ولدتهـــم أمهاتهم احـــرارا ؟

★ ★ ★

● الذكاء الجميـل :

الذى يزور لندن ـ خاصـــة فى الســـنوات الاخيرة ـ لابد سيلحظ ولاول وهلة أن الاجيال الجديدة ، وبالذات من الفتيـات ، جميلات بطريقة غير معقولة : اجماع على الجمال · وحاولت مرات كثيرة وعن عمد أن أعثر على فتـــاة انجليزية قبيحة أو حتى (مش ولابد) دون جدوى · ولقد أدهشتنى الظـــاهرة فعلا فصحيح أن الصحة والحضارة يرفعان مستوى جمال الشعب بشكل عام ، ولكن الشعب البريطانى ليس أكثر شعوب أوربا ارتفاعا فى مســـتوى المعيشة · ربما الاصح هو العكس · بريطانيا الان تكاد تكون أفقر بلاد أوربا ·

الحقيقية ظل السؤال يحيرنى طويلا : لماذا هذا الارتفـــاع الغريب فى مستوى الجمال فى بريطانيا · وليس الجمال هنـــا جمال الوجه فقط أو الملامح ، انما الجمال بشكله العام جمال الجسد والقوام والشعر · صحيح أن الاناقة درجتها أقل فذوق الفرنسـية أو الايطالية فى اختيار ملابسها أرفع بكثير ، انما العجيب أن تكون فتيات لندن هؤلاء أجمل من فتيات روما أو باريس بشكل عـــام · ظل السؤال يحيرنى حتى تولت سيدة مصرية ذكية وواسعة الادراك تفسير الامر لى · قالت ، لا تعتقد هناك فارقا كبيرا فى الجمـــال الطبيعى الذى يهبه الله للناس وللمجتمعات فى كل مكان · الفـارق الكبير هو من صنع البنت الانجليزية نفسها · أنه جمال مصنوع ما تراه · ولا أقصد بكلمة مصنوع أنه مصطنع فنادرا جدا ما كنت أجد فتاة مثلا تستعمل المساحيق أو وسائل التجميل الفاقعة لاضفاء ألوان صناعية على خدودها أو جفونها · أنما هو جمال مصنوع بمعنى أن كل بنت من الاجيال الجديدة بالذات قد بلغت من الذكاء حـــدا جعلها لا تحاول تغيير أمر جمالها أو قبحها الواقع ، أنما هى تنظر الى نفسها وملامحها وجسمها نظرة واقعية ، موضوعية ، بحتة ·

ولان الله لم يخلق فى القبيح مثلا أو القبيحة كل شىء قبيح ، انما تجد لابد لدى كل انسان أو انسانة ميزة جمالية من نوع ما · قد تكون ملامح الوجه غير جميلة ولكن الانف مثلا أو الشفتين أو العينين فيهما ذلك الجمال الخاص · وهنا يبدأ ذكاء فتيات الجيل

الجديد يعمل ٠ فهى لا تحاول أبدا أن تطمس ملامحها الخاصة لتكتسب ملامح جمال عامة كما كان يحدث الى عهد قريب ٠ كل امرأة تريد أن تكون لملامحها نفس الملامح التقليدية فى الجمال : العيون الواسعة والرموش الطويلة والخدان البارزان الاحمران والشفاه المكتنزة ٠ كل تلك المقاييس العامة فى الجمال لم تعد هى هدف الفتاة الحديثة ٠ أدركت الفتاة ووعت حقيقة أن الجمال شىء خاص جدا وليس ظاهرة عامة متعارفا على مقاييسها ونسبها ٠ وأن كل انسان ، كل فتاة باستطاعتها أن تكون جميلة ، ليس بتقليد جمال الاخريات وانما بتفردها عن الاخريات ، بابراز سماتها الجمالية الخاصة ٠ حتى الانف الكبير ذلك الذى كاد يكون فى الماضى كارثة جمالية لصاحبته من الممكن أن يصبح ميزة لصاحبته ميزة تنفرد بها عن سواها ، وانما لابد لكى يحدث هذا أن تسخر الفتاة ملامحها لابراز هذا الجمال الخاص ٠ فمثلا هذه (الفورمة) من التسريحات وأن كانت (مودة) الا أنها لا تناسب وجهها المكتنز ، وهذا الوجه لو صفف له الشعر هكذا ، وبطريقة تلائم الملامح أو تجعل الوجه يبدو أقل اكتنازا اذن لتغيرت ملامح الوجه كله واتخذت طابعا أوسمة أجمل ٠

لم يعد (الميك أب) اذن صنعة تتولاها الماشطة القديمة أو الحديثة على السواء ، أصبح عملية ذكاء لاستغلال عناصر الجمال الطبيعى الموجود ، فى كل كائن بشرى ٠ أصبح عملية تخصيص وتفرد وليس عملية تعميم مقاييس جمالية معينة اصطلح الذوق العام عليها ٠

ان الفن نفسه بشكل عام ليس الا محاولة عظيمة للانسان لخلق أو فرض أو تصوير واقع أجمل ، أو جمال من صنع الانسان يحفز ويحرك غريزة الانسان المركبة فيه والتى تستجيب دائما لكل ما هو جميل ، سواء أكان من صنع الطبيعة أم صنع الانسان ٠

الجمال اللندنى اذن ، ذلك الذى يبهرك للوهلة الأولى ، ليس مكونا من قطيع هائل من النساء الجميلات بالوراثة ٠ انما أجمل ما فى الانسان عقله وذكاؤه ٠٠

● الذكاء المصرى :

ليسمح لى الدكتور عبد العزيز حجازى بعد خطابه الشامل فى مجلس الامة أن أسأله عن نقطة حيرتنى · فهو فى فقرة يتحدث عن ضرورة تصدير ما يسمى بالرأسمال البشرى ، أى ضرورة تصدير القوى العاملة بعد اعدادها اعدادا فنيا وتعليميا كافيا ، وفى نفس الفقرة ـ وهذا هو الغريب ـ يتحدث عن ضرورة استخدام الخُبراء المصريين فى كافة المجالات وأغرائهم بالمرتبات والامكانيات واتاحة الفرص لعملهم هنا · أليس فى هاتين النقطتين تعارض حاد ؟ فاذا كان عندنا فائض بشرى قابل للتصدير (ما أروع الانسان المصرى وهو يصبح فائضا بشريا !) فما الداعى لاستيراد هذا الفائض بعد تصديره وبسعر أعلى بكثير من سعر (السوق المحلية) · أم أن الخبرات التى يتحدث عنها الدكتور حجازى والتى يقترح التوسع فى تصديرها هى الخبرات المتوافرة فى سوق العمل المحلية والتى لها نظائر مماثلة هنا ، والخبرات المصرية التى يقترح استيرادها هى خبرات ناقصة ولا غنى عنها ، فاذا كانت ناقصة ولا غنى عنها فعلا ، فكيف تمت عملية التصدير اذن وبموافقة الحكومة ·

فى الحقيقة منذ أن سمعت من الدكتور عبد العزيز حجازى حديثه لأول مرة عن ضرورة تصدير فائض الخبرة البشرية الى الخارج وبالذات الى البلاد العربية وأنا أفكر فى الموضوع تفكيرا خطيرا ، فصحيح أننا نجنى ـ كما ذكر السيد رئيس الوزراء ـ ما يقرب من المائة مليون جنيه عملة صعبة تدخل مصر عن طريق هؤلاء العاملين بالخارج · ولكن السؤال يظل : ترى كم يخسر الانتاج المصرى فى المدى الطويل نتيجة هذا النزيف (الذكائى) المستمر · فالواضح أن معظم ما نصدره للخارج من خبرات هم اكفأ وأنشط العناصر ، تلك التى تضيق بالمعوقات وما يسمى بالاختناقات (ولا ريب أن هذا اسم طريف) فى مصر فيهجون ولا أقول يهاجرون الى الخارج أى أنهم مرغمون على الهجرة وليس

عن طواعية يفعلون · والنتيجة بالطبع هى أن يكثر الغباء فى السوق المحلية ويقل الذكاء ، وحيث أن الانتاج أولا وأخيرا هو بشر فلابد أن انتاج الاغبياء أقل كما وأقل قيمة · ولهذا فبينما قد نكسب كل عام ١٠٠ مليون جنيه لابد اننا نخسر فى المدى الطويل الافا من الملايين من الجنيهات التى كان يمكن أن نحصل عليها هنا بتشغيل هؤلاء الاذكياء المصريين ·

ان مشكلة العاملين فى مصر لا يمكن فى رأيى أن تحل بتصدير فائض العمالة ، بل تحل بالسؤال البسيط ! لماذا يوجد عندنا فائض عمالة بينما بقية بلاد خلق الله تعانى من نقص العمالة ؟ والجواب فى رأيى ليس هو اننا فقراء أو ضعفاء الامكانيات ، الجواب هو أن نظام التشغيل عندنا نظام فاسد ، والدليل على فساده مثلا أننا نصدر الاذكياء منا ونستورد الكومبيوتر والعقول الالكترونية التى لا تقوم الا بجزء على ألف مما يستطيع أى انسان ذكى ومتعلم أن يقوم به · نظام التشغيل فى الحكومة سىء وفى القطاع العام أكثر سوءا وفى القطاع الخاص هباب · لا نحن اقتبسنا النظام الاشتراكى بأكمله وبنظام تشغيله وتوكلنا على الله ، ولا اقتبسنا النظام الرأسمالى بأكمله وتوكلنا على الله ، ، وانما حاولنا ان نخلق نظاما يتراقص على الحافة بين الرأسمالية والاشتراكية فلم نجن من أى منهما الا مفاسد كل منهما · مفروض أن أى نظام مجتمع ناجح يفرح بعدد خريجيه من الجامعة والمدارس المتوسطة فهما (قوى انتاج) جديدة تضاف الى قواه الموجودة أصلا وتزيد من طاقته على الانتاج أما غير المعقول فعلا فهو أن يصبح الخريجون الجدد (عبئا) على الانتاج · ان الانسان كما يقولون هو أثمن رأسمال ، هو أثمن من الالة على الاقل لانه خالق الالة وصانعها ومشغلها ، ولكن تحت ظروف التشغيل التى تمر بها بلادنا أصبح الانسان ـ سواء كان رجلا أو امرأة ـ هو أرخص السلع المعروضة جميعا ، وما لم نغير فورا وجذريا من طريقة أو نظام التشغيل عندنا فسيظل الانسان الرأسمالى هذا يتناقص باستمرار وسيظل الغباء المصرى يطرد الذكاء المصرى الى خارج الحدود ومن فقر نحن فيه ننتقل الى فقر أكثر ·

الطفل الذى يلعب ...

والطريق السريع ...

منذ بضعة أسابيع قرأت خبرا فى جرائدنا لا يزال التفكير فيه يزعجنى الى هذه اللحظة . الخبر يتعلق بمصرع طفلين شقيقين على الطريق الزراعى بين القاهرة والاسكندرية ، ولا شك ان مصرع طفلين شقيقين فى حادث مسألة يهتز لها أى انسان وبالذات لو كنت مثلى أبا لطفلين ، ولكن ألمى الشديد للحادث هو الذى دفعنى لتأمله وأكثر من مرة أعدت قراءة الحادثة كما روتها الصحف . ودعونا نتأمل ما كتب . يقول الخبر ـ نقلا عن الجرائد ـ بينما كان الطفلان الشقيقان فلان وفلان (يلعبان) على (الطريق الزراعى) (السريع) فى (رعاية) أمهما فوجئا بعربة قادمة بسرعة (مجنونة) بلغت (المائة) كيلو متر فى الساعة دهمتهما وأدت الى مصرعهما .

الخبر أسوقه منقولا عن الصحف ولكن الاقواس من عندى ، ولقد وضعتها فى محاولة لمعرفة العقلية التى صاغت الخبز وبالتالى عقليتنا نحن فى النظر الى أمور العصر . الطرق الزراعية السريعة هى بمثابة الشرايين الملحة لحياة اقتصادية تنشأ فى هذا العصر . انها ليست (موضة) انها احتياج رئيسى من احتياجات أى اقتصاد . وكذلك العربة ، ان الانسان لم يخترع العربة الا لحاجته الى (السرعة) اذ السرعة تعنى استغلال الزمن واستغلال الزمن

يعنى نقود ، وفى طموح الانسان من أجل أن يخـرج من فقر القرون الوسطى الى غنى القرن الحديث كان لابد له أن يخـــرج من سرعة القرون الوسط (الحمار والحصـان) الى سرعة العصر الحـديث (السيارة والطائرة) ٠

الطـرق الزراعيـة السريعة اذن لم تنشأ الا لتسير عليهـا العربات بسرعات (مجنونة) فعلا ٠ ان سرعة مائة كيلو متر تعتبر بطيئة بالقياس الى السرعات التى انشئت من أجلها الطرق السريعة واخترعت من أجلها العربات الحديثة ٠

أما آخر ما فكر فيه العصر فهـو ان ينشىء الطرق السريعة لكى يلعب عليهـا الاطفال ، وخاصة اذا كان اللعب (فى رعـاية أمهـم) ٠

حسن جدا ٠ لقد صرع طفلان فى عمر الزهور ٠ وقد يقول البعض ان المسئول هو السائق (المجنون الذى كان يسير بسرعة (مجنونة) على الطريق السريع (المجنون) ولكنا لو اسـتبدلنا بكلمة المجنون كلمة العصر فى الجملة السابقة لأستقامت الجمـلة تماما مع منطق الواقـع ولوجـدنا المسئول لابد ان يكون انسـانا آخر ، ربما هو المحافظ أو الحكم المحلى الذى لم يفكر فى انشاء أماكن يلهو فيها أبناء الريف مثلما يلعب زملاؤهم أبناء أعضـاء النوادى فى المدينة أو ربما هى الأم التى حرمها الفقر من التعليم ومن ادراك طبيعة وخطورة السرعة وأماكن السرعة فى هذا العصر ، وربما هو هذا الانقسام الخطير الذى نحيا فيه ، شعب نـام ، فى بداية استعانته بوسـائل التحضر من الممـكن أن نعقد عددا من الضحايا من هذا السبيل ٠

ولكن المشكلة فى رأيى أعمق من هذا بكثير ٠

ولم أدرك مـدى عمقهـا الا حين عـدت وجمعتنى الجلسات بمختـلف الفئات والطبقات وسـنوات العمـر ٠ والظـاهرة التى حيرتنى حقا هى أن الحديث مع الشبان والفتيات كان يقودهم دائما

الى سؤال هو : هل نؤمن بالأرواح ؟ وما رأيك فى الظواهر الخارقة التى يتحدثون عنها والتى تدل على وجود الارواح ؟ .

بل أكثر من هذا أذكر انى قرأت مرة خبرا عن ظهور (عفاريت) فى شقة بشبرا تقذف السكان بالطوب ، واستدعاء البوليس والنيابة للتحقيق فى الأمر وكيف أن العفاريت بلغ من جرأتها ـ بل صفاقتها ـ ان قذفت وكيل النيابة نفسه بالحجارة وأنه اثبت هذا فى المحضر .

ورغم انى قرأت بعد بضعة أيام تكذيبا للخبر الا اننى لم أعلق على التكذيب أهمية ، فهو لا شك قد صدر عن عقلية لا يزال بها بعض الحكمة ، ولكن المشكلة هى فى الغالبية التى آمنت وتؤمن بما جاء فى الخبر .

وفى اللحظة هذه تتزاحم فى رأسى آلاف الافكار والخواطر والانطباعات ، وانا لا أريد الحديث فى هذه اللحظة عن أوربا ولا عن الحضارة ، فمشكلتى الأولى ليس ما اتحدث به ولكن الى من اتحدث .

لكى أعرف الى من اتحدث لابد أن أعود الى موقفنا من الحضارة الاوربية ، حيث وقفنا منها بعد ثورة ٢٣ يوليو موقف العداء لان أوربا كدول وحكومات ونظام رأسمالى بشع كانت قد وقفت منا موقف العداء ، العداء الواضح الصريح الذى تركز فى عدوان ٥٦ ثم كشف عن أنيابه فى فخ ٦٧ ، وقد فعلنا هذا كضرورة حتمية من ضرورات الدفاع عن النفس .

أجل ـ لقد وجدنا أنفسنا ومنذ ظهور اسرائيل كقوة عدوانية على المسرح العربى فى حادثة الاغارة على غزة عام ٥٤ فى حالة دفاع قصوى عن النفس .

وأيضا لانى أقتصر فى حديثى على الجانب الفكرى والحضارى لن اتطرق الى ما قمنا به فى المجالات الاخرى من جيش وصناعة

واجراءات ثورية ، بكل ما حفلت به من تجارب وأخطـاء وما حفلت به من طليعية واقتحام لطريق لم يسبقنا له أحد وكان بمثابة الزيادة لعالم ثالث يتطلع مثلنا الى الدفاع عن النفس وحيز من الوجـود تحت الشمس ٠

وفى حياة كل أمة تأتى فترة لابد أن تنغلق فيها هذه الامة على ذاتها كى تنضج شخصيتها القومية ويتضح تفردها وتعـرف من هى وماذا لديها ٠ هكذا فعلت روسيا بعد ثورة ١٧ وهكذا فعلت الصين بعد نجاح ثورتها ٠ ولكن مجرد الانغـلاق على الذات لا يكفى ، اذ المهم هو ماذا نفعل بأنفسنا بعد الانغـلاق على ذواتنا ٠ ما موقفنـا من ثقافتنا الوطنية ما موقفنا من طرق تعليمنا ٠

باختصار ـ أى الافكار تسود بعد قفل الابواب ٠

واذا راجعنا ما حدث خـلال عشرين عاما من عمر الثـورة المصرية الفتية فاننا سنجد أشياء كثيرة لابد أن نعيد فيها النظر ٠

ذلك أن هناك قانونا أساسيا من قوانين الوجود والبقاء : ما لم تتقدم الى الامام فانك لا تتوقف ، انك دائما تعود الى الخلف ٠

ولقد كانت ثورتنا تحمل فى مكوناتها اهدافا تقدمية رائعة ٠

ومن يراجع الخريطة السياسية للشرق الاوسط يجد أن الثورة حين قامت فى ٢٣ يوليـو كانت ليبيا وتونس والجزائر ومراكش فى الشرق محتلة ، وكانت الكويت وامـارات الخليج واليمن والعـراق والسعودية والسودان اما محتلة أو خاضعة لنفوذ اجنبى تماما ، بل ان مصر نفسها كانت تحتلها القوات البريطانية ٠

الاهداف السياسية العظيمة التى حققتها ثورة يوليو والثورة الاجتماعية التى قامت لاجلها وتحقق جزء كبير منها ، هذه كلهـا حقائق تخطف الابصار ٠

ولقد كان من الواجب والمحتم لكى تكتمل الثـــورة أن يتحقق لها الركن الثالث المهم ، ان تتحقق أيضا الثورة الثقافية ٠

كان واجبنا بعد أن عادينا الحضـارة الغربية كل هذا العداء وقاطعناها وانغلقنا على انفسنا ان ننغلق لكى نحقق ثورة ثقافيـة حقيقية بحيث ننقل الافكار السائدة فى مجتمعنا من حيث كانت : أقلية مثقفة تتطلع بلهفة شديدة الى تقليد أوربا وأغلبية تحيا لاتزال على أفكار العصور الوسطى ، الى حيث ثقف ثورتنا سياسيا واجتماعا ، الى حيث القرن العشرون ٠

ان الثورة لا تقبل التجزئة ابدا ، ولا يمكن أن يكون الثـورى ثوريا فى فكره ومحافظا فى تصرفه ورجعيا فى بيته اذ معنى هذا أنه اما أنه لا يؤمن بالثورة أصـــلا واما أنه ثائر محـدود الافق ٠ ان الثورة كالفن كائن هش رقيق ، ما أسهل ـ ان تركته هكذا معرضـا لعوامل الموات والتعرية ـ ان يموت ٠ وما لم تتلبس الثورة جســـدا من التنظيم وقوة ثقافية غير محدودة فانها لا يمكن أن تستحيل من جذوة صغيرة الى نار مقدســـة تعيد خلق الشعب وصياغته فكريا وحضاريا ٠

بمعنى آخر ـ ان الشعوب فى سـيرها المستمر الحتمى تميل بطبعها الى المحافظة على الموروث والمكتسب وما اعتادت عليـــه وألفته ٠ والثورة ليست الا تغييرا جذريا مفاجئا وشـــاملا فى هذا السير الدءوب البطىء فاذا تركت الثورة بلا رعاية ثورية فمعنى هذا ان تبتلعها بعـد حين الافكار الســـائدة بل والرجعية وان تنتقل بالمجتمع اقتصاديا وسياسيا خطوات الى الامام بينما أفكار الشعب ومبادئه ومعتقداته لم تتغير ٠

وهكذا وجدنا أناسا يلبسون صـــوفا وحريرا مســـتوردا وكرافتات سولكا وعـربات على آخر مـوديل يرددون : لا أفكارا مستوردة ٠ بمعنى آخر هم يأخذون من أوربا كل ما يمتعهم شخصيا من وسائل العيش أما الافكار الجديدة فانهم يخافون منها ٠

وجدنا اناسا يجعلون من الاسلام وسيلتنا كعرب الى الثورة والتحضر • الاسلام ذلك الدين الذى جاء ثورة تقدم مفجر لطاقات العرب والمسلمين الخلاقة طليعيا يقود تيار الحضارة والتحضر •• ان القـرآن الكريم فى كثير من سوره وأياته أوامـر عسكرية وثورية يومية تهدى المسلمين فى حربهم ضد العدو وجدناهم لا يسمحون الا برواج كل ما يمكن تفسيره تفسيرا رجعيا ومحافظا وتقليديا •

كان مجتمعنا قد انتقل خطوات كبيرة جدا فى مجالات التصنيع والتعليم والخدمات بحيث استطاع ابنـــاء الفلاحين والعمـــال ان ان يدخلوا المدارس والجامعات وينشأ جيل نهم يريد أن يحيـــا وأن يثور وأن يوجد وأن يتعلم أكثر وأحسن •

هذا الجيل ، ماذا كانت رسالتنا اليه ؟ ماذا تكتب له الصحف ماذا يسمع فى الراديو ويرى فى التليفزيون والسينما ؟

انى لا استغرب بعد هذا كله أن نجد بعض الصحف والناس أحيانا تناقش مشكلة : هل هنــاك أرواح وعفاريت وظواهر خارقة تتدخل فى حياة الناس •

انى لا أريد ان انقد موقفنا مثلما يفعل البعض لمجرد النقد ، انى فى الحقيقة اصدر فى كلامى من نقطـــة بدء ، هى نفس نقطة البدء التى صدرت عنها ثورتنا ، الدفاع عن أنفسنا •

ولا أقول الدفاع لمجــرد ان اسرائيل اعتدت علينـــا واحتلت اراضينا •

أما الخطر الاكبر فهو فينا نحـــن وفى طريقتنا التى نواجـــه بها العدو ، كياننا ليس فقط فى الســـلاح الذى نواجه به العـــدو ولكن فى السلاح الايمانى والعقائدى ، فى الروح التى نواجـــه بهـــا العدو •

الروح وليس الارواح بالمعنى الذى أصـــبح شـــائعا الان ومتداولا •

كيف نواجه ، وبماذا نواجه العدو ، هذه هى المشكلة ٠٠

ان العـــدو الاسرائيلى ليس ســوى التحـــدى الاصـــغر الذى يواجهنا ٠

انما التحدى الاكبر هو هذه الحضـارة الصناعية الاوربيـة الامريكية اليابانية الهائلة التى تقف لنا بالمرصاد ٠

ان ما شاهدته فى أوربا الغربيـــة وأمريكا واليـــابان من مصانع ومراكز بحوث واكتشافات وغنى ٠

وما رأيتـــه فى المعسكر الاشـــتراكى من ثورة فى التفكير والتكنولوجيـا والتحضر بعـــد التخلص من كل مـا خلف العصر الستالينى من جمود وتحفظ ٠

اننا لسنا وحدنا فى هذه المشكلة وانما معنا كل دول العـــالم الثالث التى ثارت فحاصرت الرأسمالية العالمية ثورتها وضربتها ٠ بل نكاد ننفرد دون دول العالم الثالث بأننا لا نزال واقفين لم نركع ولم نستسلم ولم نكف عن قول : لا ٠

والمحنة التى تمر بنا ليست من صنعنا وحدنا ٠٠ انها طريقة الغرب لضربنا فى الصميم ٠ انها محاولة رهيبة لترويضـنا ٠٠٠ لترويض هذا الشعب المخيف الثائر الذى ظل يهدر بالثورة من ١٨٨٢ الى الان ، جيلا وراء جيـل ، وكبوة وراءها كبوة ، ولكنه ماض فى طريقه لا يرضخ ولا يكف برغم كل النكبات ٠

لقد ثرنا قبل أى كمبوديا وفيتنام ، ثرنا حتى قبـــل روســيا والصين وكوريا والهند ، كنا روادا للثورات ٠

ورغم بعض الخيانات فتاريخنا الكفاحى ناصع البياض ٠

ولقد كانت ثورة ٢٣ يوليـــو بكل ما حملنـــاها من أمانى

وأحلام ، بكل ما آزرناها به من قوة وعزم واصرار ، محاولتنا الثانية الكبرى خلال نصف قرن واحد للخروج من زنازن العبودية الى وديان الاحرار ٠

لقد خلقت الرأسمالية عقولها المفكرة وانسانها المستقل الذكى ٠ ولقد فعلت هذا بما يمكن أن نسميه ثورتها الثقافية الحضارية ٠ ان النظـــام البرلمانى الليبرالى الانجليزى مثلا ليس من قبيـــل الاناقة الحضارية والوجاهة ، انه نظام نابع أساسا من احتياجات الرأسمالية الانجليزية ، ووسيلة ذكية لاشعار العامل المستغل بأنه حر وبأن له رأيا وبأن رأيه محترم وذلك للظفر منه بأقصى مجهـود خلاق يخدم فى النهاية مصالح السادة الرأسماليين ٠

ولقد خلقت الثورة الاشتراكية انسانها الجديد ، ذلك المؤمن بأن مصالحه الشخصية مرتبطة ارتباطا لا ينفصم بمصلحة مجتمعه ككل ، وأن الخير حين يعود على الجميع ، والخسارة حين تحل تحل بالجميع ، حققت الاشتراكية بالثورة الثقافية الاشتراكية وجودا حقيقا لانسان جديد هو الذى يخترع الان ويبتكر ويعمل ٠ ونقل وينقل دولا مثل بلغاريا والمجر وبولندا ولا أقول الاتحاد السوفييتى والصين ، من عصر المحراث الى عصر الكومبيوتر فى المزرعة التعاونية ٠

ونحن حقيقة قد انجزنا الكثير فى مجال انشاء الصـــناعات وبناء القوات المسلحة والخدمات والتعليم ٠

ولكن ٠٠٠

هل غيرنا عقل هذا الانسان الذى يبنى ويصنع ويقوم بهذا كله ٠

هل سلحناه بالوعى وعيون العصر والقدرة على فهم ما حدث له وما يمكن أن يحدث ٠

هل قمنا بالركن الثالث الخطير لاى ثورة ، هل قمنا فعـــلا بثورة ثقافية مصرية نقلت أفكارنا من حيث كنا الى حيث يجب أن يكون ٠

ان المدفع لا يحارب وحــده · الذى يحارب هو الانسان ·

والميكروسكوب لا يكتشف وحــده · وراء الميكروسكوب عين العالم · ووراء العين عقل علمى ·

والشعب لا يكون شعبا اذا لم يجمعه على الاقل هدف واحد أو نقطة واحدة يؤمن بها ويلتف حولها ويموت ويضحى من أجلها ·

أننا اما أن نستمر فى التحوصـــل على أنفســنا والتقوقع والانغلاق ، ونفعل مثلما فعل العلماء الملتفون بالشيخ الشرقاوى لدى قدوم جيش نابليون حين كانت مشكلتهم فى مواجهــة هذا الجيش هو أعراب كلمـــة (برنـــابرته) وكيف تكتب فى الخطـــاب الذى يوجهونه له ·

واما أن ننفتح انفتاحا كليا على العـــالم ونترك وعى غيرنا هو الذى يسود ويتحكم والحضارة تدخل بلادنا من الغرب والشرق والشمال والجنوب (سداح مداح) · باختصـــار نستسلم ونغيب نحن عن الوعى بشرقه وغربه ، ونترك الافكار والثقافة ·

واما ··

واما أن نختار الطريق الوحيد الجدير بالاحياء ·

قبل أن تنهار عمارة بيومى

كان فى نيتى أن أناقش هذا الاسبوع (حكاية) التعليم فى مصر بعد أن أصبحت فعلا حكاية لهـا العجب كل العجب ، ولكنى فوجئت فى بريد الصباح بخطاب من الاسكندرية · أعرف الخطوط الرجالى من الحريمى على الفـــور ذلك أن عضـــلات أصــــابع الانثى بكينونتها الدقيقة تجعـل خط المرأة عـــامة مختلفا عن خط الرجل ، أقول عرفت أن الخط خط أنثى رغـــم أن الامضـاء كان لقارىء ، بمعنى أنه تنكر داخـل تنكر · والخطـــاب يدل على أن صاحبته متعلمة فعـــلا وقارئة ومطلعة ناقشتنى فى بعض ما أكتبه ولكنها باحت فى النهاية بالسر الذى دعاها لكتابة الخطاب ، ذلك أنها ومجموعة من أصدقائها وصـــديقاتها اختلفوا كثيرا حـــول ديانتى ، بعضهم يقول انى مسلم وبعضـــهم يؤكد أنى مسيحى ، وتطلب وتستحلفنى فى نهاية الخطاب أن أجيب على هذا السـؤال (المهم جدا) فى المفكرة ليعرف القراء جميعا ·

أمسكت بالخطاب بعد قراءته وأنا حائر فعلا · لقد كنت جهـزت نفسى عقليا ووجدانيا لمعالجة قضية من أخطر قضـــايا مجتمعنا ، واذا بهذا الخطاب القـــادم لا يعنيه أبدا ما أبديه من آراء وانمـا مشكلته الكبرى هى هذا السـؤال الذى ليس أول ســـؤال · ولكن الاسئلة الأخرى على الاقل كانت تلقى على شـفويا أما أن يجشـــم

قارىء أو قارئة نفسه عناء الجلوس الى مكتب وتدبيج خطـــاب طويل عريض يسأل تحريريا هذه المرة عن كنه ديانتى ، فتلك مسألة أخرى فى حاجة الى وقفة ، بل أن هـــذا التســـاؤل السطحى بدأ يتشابك فى عقلى ويتعانق الى أن وجدت نفسى فى قلب مشكلة التعليم دون أن أدرى . سأفعل كما تفعل أجاثا كريستى وسأبقى الاجـابة الى النهاية عسى هؤلاء الذين وصل بهم الوضع التعليمى والثقافى الى هذا الحـد يتابعون معى ومع غيرهم من القـــراء (حكاية) التعليم فى مصر .

★★★

الحكاية أصلها ثابت وفرعها فى السماء . ان التعليم هـو تلميذ يريد المعرفة وأســتاذ لديه المعـــرفة ومكان يجمعهما ومع الآخرين ليصبحا فى النهاية مدرسة أو جامعة أو دراسات عليـــا دقيقة التخصص .

الى أن تخرجت أنا من الجامعة فى الخمسينات وربما بعـدها بقليل لم تكن هنـاك مشكلة تعليم فى مصر . كانت هنـــاك بالطبـع مشاكل للتعليم ولكن لم تكن هنـــاك (مشكلة) تربيـــة وتعليم . عويصة ، ورهيبة ، وكالأمراض الخبيثة وصلت الى داء الحلقـة المفرغة التى ربما استغرقت أجيالا لحلها أو الخروج منها .

كان حجم وزارة التربية والتعليم مساويا لعدد القادرين على التعليم أو بالضبط مجتمع الـ ٥٪ كما أطلقت عليه ثورة يوليو .

وجاءت ثورة يوليو ، ومصر الاقتصـــاد الاجنبى ثم ما لبث أن أمم هو الاقتصاد المصرى بالمرة ، واندفعت الى الطبقة المتوسطة كميات هائلة من رصيد المعدمين حتى وصلنا بعد قرارات التأميم فى يوليو وبعد أن بدأ فعل الثورة عمـــله فى رج المجتمع المصرى رجا عنيفا الى أن وصل عدد القـــادرين على التعـليم الى عشرة أضـــعاف .

المكون الثانى للمعـــادلة (المدرس) وتمشيا مع سياســـة تصدير التعليم والمدرس المصرى الى كل أشقائنا العـــرب ، نقص عدده بدرجة كبيرة ، ليس هذا فقط وانما أن مستواه (الكيفى) قد قل بدرجة خطيرة ·

المكون الثالث للمعادلة (المدرســة) صحيح انشئت مدارس كثيرة · انشئت جامعات أكثر ، ست جامعات ، ولكن هل الاتساع الافقى هذا كان متناسبا مع الاعداد الاكبر من الطلبة ، أى هل وصل عدد المدارس الى عشرة أضعاف ما كانت عليه قبل الثورة · قبـل الثورة كانت هناك جامعتان ونصف (النصف هو بداية تكوينجامعة عين شمس) مفروض أن يكون عدد جامعاتنا الان خمسا وعشرين جامعة ولكنها (كلها على بعضها) الان تسع جامعات ·

وليس هذا هو المهم ، المهم أن عدد التلاميذ له أن يتضـاعف ويتكاثر ان شاء له الهـوى ، ولكن لابد ليكون التعليم تعليما ، أو على الاقل للوصول الى الحد الادنى من التعليم أن تقابل هذه الزيادة بزيادة كيفية وكمية لعـدد المدرسين والأســاتذة ، وما حدث كان العكس تماما فالمدارس الابتدائية عنـــدنا تشكو من نقص هائل فى عدد المدرسين المثقفين تربويا ، بل نحن نعهد بالتعليم الابتدائى الى أقل المدرسين تعليما وكفاءة ·

★★★

والنتيجة هى ما نراه الان · وضعا يكاد يشبه لوحات الرسم العبثية · اعداد رهيبـــة من خريجى جامعـــات لا معنى لتعليمهم الجامعى بالمرة حيث يعهد اليهم بأعمال بعيدة كل البعد عما درسوه ، نقص شديد فى العمالة اليدوية والحرفية ولا أقـــول التكنولوجية والصناعية · تصوروا رغم تعدادنا الهائل هذا نشكو عجزا رهيبا فى عدد السمكرية والكوائين والنجارين وبالذات نجـــارو البنــاء ونجاور الباب والشباك ·

ان المثل الذى يقول ان الشىء اذا زاد عن حـده انقلب الى

ضده لا ينطبق على شىء بقــدر ما ينطبق على التعليم فى مصر ٠ فبدلا من أن تأتى الثورة بعقول وأناس اكفاء يضعون فى الخمسينات سياسة طويلة المدى لمصر الثــورة التى تريـد أن تتطور بسرعة قصوى ولابد لكى تحقق أهدافها الســتة التى قامت من أجلها أن يكون التعليم ، والتعليم على أرقى مستوى ، هو وسيلتها للوصول الى ذلك ، جاءت بضابط شاب انتهز فرصة ركوع بعض اســاتذة الجامعة وبعض المسئولين عن التعليم لرغباته وتخبطاته ، لا أقول وضع سياسة وانما جعل من كلمة طه حسين (التعليم ضرورى كالماء والهواء ولكافة فئات الشعب) أصبح ليس المهم عنده هو نوع التعليم وضرورة ان يكون كالماء والهواء فعلا الماء النقى والهواء النقى ، وليس التجهيل وحتمية ان يؤدى الى مــاء ملوث وهواء خــانق سام ٠ لم تضع الثورة اذن (سياسة) للتعليم لم تحاول أن تفهـم ما تحدثه هى فى المجتمع من دفع باعداد هائلة الى فئة القــادرين وضرورة ان تعد لهذه الاعداد وما يتلوها الفرصة لتعليم ولعــلاج ولرعاية اذ المفروض فى الثورات كلها ان يكون الهدف من قيامها أولا وأخيرا الانسان والأخذ بيده ورفع مستواه حضــاريا وفكريا وثقافيا ٠٠



وليس المهم الآن ان ننعى أو نحاسب على ما فات ٠

المهم هو الوضــع الصــارخ الآن وكيف نعالجه ٠

لم أر وزيرا أجمع الناس على ذكره بالخير مثــل الدكتور مصطفى كمال حلمى المسئول الاول الان عن التعليم بكافة مراحــله ومستوياته ٠

ولكن ليت المشــكلة هى مشكلة وزير عبقرى أو وزير عــادى المشكلة أكبر من أى وزير بل أكاد أقــول أكبر من أى مجلس وزراء بأسره ٠

ان أثمن ما فى مصر هـــو الانسان فى مصر · وصحيح أن أثمن شيء فى مصر (الانسان) قد أصبح أرخص شيء فى مصر من ناحية سعره (وتصوروا مثلا اننى حسـبتها فوجدت ان شقتى ـ نظرا لموقعها ـ لو أجرتها مفروشة لكان دخلها خمسة اضـــعاف مرتبى فى الاهرام) فما بالك بموظف عادى أو عامل عادى ·

الازمة التى تجتازها مصر أزمة خطيرة بل تكاد تكون أخطر الأزمات اذ هى ليست أزمة حرب أو سلام ، وليست أزمة اختناقات اقتصادية أو اجتماعية انها أزمة الانسان المصرى ·

وثلاثة أرباع أزمة الانسـان المصرى هى غرقة الخانق فى مشاكله الخاصة ، وسوء توظيف طاقته الانتاجية ، وتعليمه قسرا ووضعه فى وظيفته قسرا · لا أحد يختار مساره ، لا أحد يختـار وظيفته أو حرفته انما هى أشياء تحدث لنا ولا خيــار لنا فيهـا ، وهكذا فمادام الانسان قد فقد سيطرته على مصيره فكيف تطلب منه أن ينتج كيف ينتج شيئا لا يريده ، أو يصنع أعمالا لا أهمية لهـــا بالمرة عنده ، المسألة اذن خطيرة وليست مسألة تعليم وتعلم انهـا فى الحقيقة مسألة ان يكون الانسان المصرى أو لا يكون : أنهـــا أخطر مشاكل مصر على الاطلاق فى رأيى وليس علاجها ابدا لجانا تنعقد فى المجالس القومية المتخصصة ·

انها فى حاجة الى أن نعقد من أجلها مؤتمرا يضم خلاصـة العقول فى مصر ، ولا أقـــول خلاصـــة الاســاتذة فى المدارس والجامعات ، ولكن أؤكد مرة أخرى على خلاصة العقول فى مصر وفى كل المجالات لدراسة أولا : الى أين نحن ذاهبون بالانســـان المصرى أو الى أين يذهب بنا هذا الذى أصبح عليـــه الانسـان المصرى ·

ولان الثقافة والمستويات الثقافية سواء فى حدها الاقصى أو فى حدها الادنى هى القلب الذى تنبض به أى سياسة للتعليم وأى الاتجاهات ومدى الاعماق التى ينبغى أن تصل اليها ·

الثقافة التى للاسف ـ عادتهـا عنـاصر كثيرة من عناصر الثورة حتى اعتبر المثقف المصرى ذات يوم وكأنه عميـل للفكر الاجنبى وبالتالى لدول اجنبية ٠

والتى كان من نتيجتها الوصول الى درجـة الخزعبلات حتى فى فهم ديننا العظيم الحنيف ٠٠

ذلك الذى يصل بجامعية خريجة جامعـة ، مثل الفاضـلة القارئة وأصحابها وصاحباتها الذين لم يعـد يهمهم من فلان الذى هوانا الا دينه ٠

انا مسلم يا سيدتى وموحد بالله ومؤمن أشد الايمـان بكافة الاديان السـماوية وعلى رأسها المسيحية واليهودية ٠٠

أقولها وانا فخـور هذا حقيقى ، ولكنى لا استطيع ان امنع نفسى من الحزن والاسى فوراء السـؤال تكمن مشكلة بالغـة الضخامة والفجيعة ، مشكلة الثقافة فى مصر التى أساسها تعليم انعدم وفى سبيله للعدم ولو كانت مشاكل الانسان من تربية وتعليم وصحة وخلافها تنهار مثل انهيار عمارة بيومى لانهارت عمـارته من زمن ٠

فلنعقد فورا ذلك المؤتمر ٠

فلم تعد تكفى أعمدة الخشب التى نصلب بها البنيان ٠٠

العمارة توشك ان تنهار ٠

كاتب بلاد الغنى والضياع

كنت قد وصلت فى نقاش مع آرثر ميللر الى نقطة دقيقة وحرجة فى حياة كل كاتب · ان الكاتب أو الفنان ـ فى نواح كثيرة منه ـ ظاهرة فردية متمردة · وفى أمريكا يسـمون الحكومة والشركات الكبرى والكوربوريشنز · يسمونها (المؤسسة) ، أو ذلك الاسمنت المسلح المبنية فوقه (الدولة) برجالها الكبار وشيوخها وأجهزتها وأنظمتها · والمؤسسة كانت شيئا مرفوضا تماما من الشـباب بالذات ، وكانوا يسمون من يعمل بها أو من (تحتويه) بأنه (خان) المبادىء ، أية مبادىء ؟ لا أحد يعرف بالضبط ، فاليساريون قليلون جدا ، والشيوعيون أقل ، ولكن (التمرد) كثير ، وما حركة الهيبز والبيتلز ، والى حد ما حركة التحرر النسـائية ـ حتى التحرر من الرجل والاستغناء عنه بالمرة جنسيا أيضـا ـ كل هذا كان يمثل ظاهرة التمرد ضد المؤسسة ، تلك التى بلغت أشدها فى أواخـر الستينات ، وأوائل السبعينات ، والان آبت الى نوع من الهـدوء ربما سببه انفجار بركان تمردى زنجى آخر ، الان زنوج أمريكا لم يعودوا هم هؤلاء الوادعون المستنجدون بالله وبالدعوات وبمارتن لوثر كنج والمسيحية فى طيبتها وتسامحها ليردوا على قسـوة البيض والكلوكس كلان والاحتقار الكامن لدى الرجل الابيض ، الان عنفا بعنف أشد يردون ، بل أحيانا باجرام رهيب يردون ·

ولكن التمرد ضد (المؤسسة) وأن كان قد آب الى نوع من الاعتدال لايزال قائما موجودا ، وآرثر ميللر نشأ فى ظل هذا التمرد ، وكانت مسرحياته الاولى مسرحيات تمرد كبير ، هو تمرد (الرجل العادى) ضد (المؤسسة) وما تؤدى اليه المؤسسة الاجتماعية السياسية من مآس حتى على المستوى الفردى · فماذا حدث لهذا (الذئب المعجوز) الان · تهادن ؟ هل تولت المؤسسة ـ بما أفاضته عليه من مجد ومال وشهرة وقامة هائلة الطول فى مجتمعه عملية (تطويعه) أو على الاقل (تهجينه) ·

وعدت الى النقاش ·

● مستر ميللر ··· تقول أن هناك حرية أكثر الان فى أمريكا ، ولكن نفوذ المؤسسات ـ بالطبع يقصد (المؤسسة) ـ يتعاظم هو الاخر ·· وهذه هى المشكلة اليس كذلك ؟

ميللر : بالضبط هذه هى المشكلة · ان من الصعب تماما على المواطن الان أن يكون مستقلا تماما عن هذه المؤسسات مثلما كان باستطاعته أن يفعل فى السنين التى مضت · الان هم يتحكمون أكثر ، ولكن فى أوجه كثيرة لقد تحرر أكثر ··

قاطعته قائلا وقد بأت أحس أنه صار دبلوماسيا ·

● بصراحة ·· بالنسبة لعنصر الالتزام · اعتقد انك لا تزال ملتزما · على الاقل بالنسبة للبشرية ككل ، أو أنك لا تزال ملتزما بقضايا الشعب الامريكى ·

ميللر : نعم ··

● ولكنك تقول أن الاعداء فى الماضى كانوا واضحين جدا ، اما الان فمن الصعب تحديدهم ·

ميللر : أن عندنا موجة من اليأس فى الغرب · ان الكتابة لا معنى لها ولا فائدة ، وكان ليس هناك فائدة أو أمل · واعتقد

شخصيا ان هذا صحيح الى حد ما ولكنى لا استطيع قبوله ولهـذا فلابد لى أن أفحص الانسان لاجد أين تكمن قدرته على المقـاومة ، المقاومة الحيوية ، وهذه معجـزة ، ان لجنس البشرى لا يزال يصر على أن يعيش · وغزل هذه المعجزة ومعرفتها مسألة هامة ·

● لكى نعود الى قضية المسرح ، عندى أحساس ان المسرح فى العالم يموت الان فهذه الالات التى ذكرتها تلتهم المسرح من دراما وصورة وموسيقى ولكنها فى نفس الوقت تلتهـــم المسرح كروح وكجمهور حاضر وما اسـميه أنا بلغتى تقتل (التمسرح) ·

ميللر : هذه زوجى · أنجى · هذا يوسف ادريس · وهـــذا ادونيس ، اجلسى يا أنجى ·

انجى ــ أنا فقط أردت أن أعرف ·

ميللر ــ لماذا لا تجلسين · انجى قضت وقتا طويلا فى الشرق الاوسط انها تعمل كمصورة صحفية ·

● يسعدنى جدا أن أدعوك ومستر ميللر لزيارة مصر ·

انجى ــ أنا مستعدة للذهاب فورا ··

ميللر ــ كى نعود الى النقطة التى اثرتها فانى أقول لك أنى حين بدأت الكتابة للمسرح لم يكن هناك مسرح خارج نيويورك · وكان بالضبط مسرح بردواى المحترف التجارى · وكانت هنـــاك روايات اكثر مما هو موجود الان · وهكذا كان على الكاتب المبتدىء أن يبتدىء محترما مباشرة · الان هناك مسارح فى كل مكان ولكن عدد المسرحيات أقل غير أن هناك أماكن كثيرة لعرضها · هنـــاك مسرحيات محترفين أقـــل ولكن هناك مســـارح هواة كثيرة فى شيكاجو ولوس انجلوس وسانت لويس ·

● انى اتكلم عن المسرح فى العالم فى الحقيقة · فهناك عدد أقل من كتاب المسرح ·

كان المسرح هو وسيلة التعبير فى العشرينات والثلاثينات ولكن هذه الالات الجهنمية كما ذكرت قد استنفدت مواهب مسرحية (وتلفزتها) أو (سنمتها) فى الماضى كان هناك المسرح فقط ٠

ميللر ـ هذا هو الحادث فعلا ٠ ولكن بالنسبة لى شخصيا فان استمرارى كمسرحى راجع الى انى أحب المسرح بالدرجة الاولى ولكن بالاضافة لهذا فانه فى النهاية ابسط وسائل التعبير ٠ لا يوجد ماكينات ٠ هناك الكاتب ، والممثل ، والجمهور وهذا كل شىء ٠ اعتقد أن هذا شىء لابد من المحافظة عليه وهو مناسب جدا لمجتمعات الطلبة والهواة الذين لا يملكون نفوذا لشراء آلات أو استوديوهات ٠ ان خبرتى ان المسرح حين يحتوى موضوعا هاما يجذب جمهورا كبيرا جدا ٠

● هذا يقودنا الى مشكلة المسرح الطليعى والتجريبى ٠ اتعتقد ان هذه التجارب الجديدة تقتل روح المسرح الحقيقى أم تنشطه ٠

ميللر ـ الاثنان ٠ انا اكره ان اعطيك اجابة بسيطة ولكن لا توجد اجابة بسيطة ٠ أنا أعتقد ان الدراما العظيمة جاءت فى الاجواء الديمقراطية العظمى فى حياة الحضارة مثل الاغريق القديمة وعصر اليزابيث فى انجلترا كان المسرح آنذاك لجميع الناس ولم يكن للمثقفين والمتعلمين فقط لم يكن للاغنياء والبورجوازيين فقط كان هناك الفلاح واللورد وكل الناس ٠ والمسرح الطليعى مشكلته أنه يبدأ بفكرة لا تخاطب الا (الخلاصة) فقط ٠ وهذا شىء يسىء لفن المسرح ٠ السبب أن الكاتب الفنان لا يصارع كثيرا ليجعل فكرته المجردة تلك ومشاعره المعقدة بسيطة الى درجة يفهمها الناس أجمعون ٠ ان أعظم مشاهد شكسبير فى حقيقتها بسيطة الى درجة غريبة ٠ انها تعالج مشكلة انسان هجر الاخر ٠ أو انسان يريد أن ينتقم من الاخر ٠ أو شخص طموح ٠ شخص خائف ٠ شخص سعيد ٠ فى النهاية موقف بسيط جدا والناس بسطاء ٠ وحين تصل بالطليعة الى المراحل المجردة فى السلوك الانسانى تختل ولا يستطيع أحد أن يتعرف على الشخصية

أو الموقف بسهولة ويصبح حينئذ الموقف المسرحى لغزا قد يكون مثيرا لهؤلاء الشغوفين بحل الالغاز ولكنه ليس مثيرا بالنسبة الى الجمهور البسيط العام · ان دور الفنان ليس أن يعقد الاشياء المعقدة · وهذا صعب ولكنه يأخذ جهدا خارقا وموهبة فذة وايمانا كبيرا أيضا بصراع الفنان مع نفسه لتجسيد القيم والافكار المجردة وتحويلها الى الحقائق الانسانية البسيطة ·

● ولكنك كنت طليعيا بطريقتك الخاصة فكيف تفسر موقفك الان من الطليعة ·

ميللر ـ أعتقد أن الطليعة هى أن تفهم هذه (الكارثة) الكبرى ، الطليعية ·

● وما رأيك فى التكنيك المسرحى الذى استخدمته فى مسرحيتك الجديدة (سقف البابا) · هل تعمدت تكنيكا خاصا أم أنك تركت نفسك لسجيتها ·

ميللر ـ ان التكنيك بالنسبة الى لا يأتى من المسرح أو النقاد ولكنه يأتى من طبيعة (الجنة السرية) التى تحاول الوصول اليها فى هذا المسرحية أو تلك · ولهذا فمسرحياتى مختلفة الشكل والتكنيك لان (الجنة السرية) فى كل منها مختلفة · المسرحية الجديدة مثلا (سقف البابا) مختلفة فقد كنت أحاول فيها أن أعثر على هذا الصوت الخفى للجنة السرية الخاصة بها وهذا يتطلب منك أحيانا أن تكون تجريديا تماما وأحيانا أخرى يتطلب منك أن تكون واقعيا جدا · ولماذا ؟ · خلال مائة عام من الان اذا كان المسرح لا يزال قائما وموجودا فانهم حين يمثلون مسرحية فانهم سيفعلون هذا لانها (ستتحدث) اليهم حتى فى ذلك العصر القادم البعيد · ان بعض مسرحياتى عمرها ٢٥ سنة وهذا ربع قرن أى زمن طويل ومع هذا فهى لا تزال تمثل ، ربما الناس قد نسوا تماما أن وفاة بائع متجول قد كتبت بطريقة جديدة ولكنهم فيما اعتقد يقدمونها لانها لاتزال تقول لهم شيئا · انها لم تخترع جديدا فلست اديسون أو جراهام بل · ولكنها اخترعت شيئا فيما اعتقد ·

● ربما لما حوته من موضوع جديد فيما اعتقد ٠

ميللر ـ ولكن التكنيك أيضا كان جديدا ٠ الست معى ؟

● لماذا درج الكتاب الشبان على اهمال الالتزام تماما هنا - ماذا حدث ؟

ميللر ـ لان كل ما كانوا ملتزمين به قد (انفجر) ٠

كل ما كانوا ملتزمين به قد دخلته المساومة بطريقة أو بأخرى انا اعتقد ان هذا ليس التزاما أو عدم التزام اعتقد أنه عدم فهم حقيقى لدورهم ككتاب ٠

● اذن يا عزيزى مستر ميللر أنت توقع نفسك فى تناقض الآن ٠

ميللر ـ ربما ٠٠ على العموم الرؤية لا تبدو واضحة تماما ٠ فى الادب الامريكى الانجليزى هناك انفصال بين الحياة السياسية والاقتصادية والفنية وكان لاشىء يمت الى الاخر ٠ ولهذا حين يعالج الكاتب موقفا سياسيا فهم يشكون فى انه لا يقول الحقيقة مع أن الناس طوال الوقت غارقون لاذانهم فى السياسة والاقتصاد ٠

● الا تعتقد ان هذا سببه ان الكتاب انفسهم لم يقوموا بدورهم كما يجب ، أى لم يعمقوا احساس الناس بما فيه الكفاية الى درجة أن يدركوا صلتهم بالاوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية ٠ لم يقوموا بدور القيادة كما ينبغى ولهذا لم يتجاوب الناس معهم بما فيه الكفاية ٠

ميللر ـ هذا يعتمد على أين تربى الكاتب ٠ حين كنت ناشئا كانت هناك أزمة امريكية اقتصادية كبرى وكان السؤال هو : هل تصبح أمريكا فاشية أم اشتراكية أم بين بين ، وكان لابد من الاختيار فورا ٠ ولكن الان هذا التحديد لم يعد قاطعا ٠ لقد سار النظام بدون حاجة الى اختيارات راديكالية ٠ عندنا نسبة بطالة ١٥٪ هذا صحيح ولكنهم هادئون ٠

● الا تعتقد أنه لا تزال هناك مأساة امريكية فى حياة الولايات المتحدة الان ·

ميللر ــ بالطبع ·

● ما هى ؟

ميللر ــ الضياع · ضياع الوقت · ضياع الناس · ضياع الحياة فى القلق · ضياع العقاقير · ضياع القدرة · هذه مأساة · وأحيانا تجد افرادا يدركون هذا · مدمنو العقاقير يدركون هذا ولكنهم لا يستطيعون شيئا ·

● أتعتقد أن هذا نتيجة لدراما شخصية أو هو نتيجة لاوضاع عامة ؟

ميللر ــ أعتقد أن هذا سببه أنه لا توجد أهداف عليا موحدة للمجتمع الامريكى · هناك مثلا احساس انهم ضد الحرب وضد الكوارث الاقتصادية ولكنهم ليسوا (مع) أهداف عليا محددة ·

وكنت أريد أن أسأله كيف ولماذا تزوجته مارلين مونرو ولكن زوجته كانت موجودة وكان اليوم عيد ميلادها ولم أشأ أو نشأ ان نكون قليلى الذوق · كل ما فى الامر أننى أحسست أن مارلين اختارت هذا الرجل بالذات لأنه يعطى الاحساس الغريب بالاب أو بالاخ الاكبر الفرح المثقف الذى يمكن الاعتماد عليه والثقة به وأنه رجل · ولقد كانت مارلين مونرو امرأة حقا ·

حوار مع ٠٠٠

زوج مارلين مونرو

وليعذرني القارىء لهذا العنوان ٠٠ فمارلين مونرو أكثر شهرة بكثير من زوجها عميد المسرح الامريكي المعاصر آرثر ميللر ٠٠ وكنت وأنا سائر معه في الشارع الخامس بنيويورك ٠ وهو طويل ، أطول مما يجب ، وجهه ظاهر لأي عيان ، وبالكاد يتعرف عليه اناس قلائل تماما ، ودائما بعد أن نمضي أقارن بيني وبين نفسي وأقول : لو كنت سائرا مع مارلين مونرو ، ألم يكن الشارع كله قد وقف تماما عن حركته ؟ ٠٠ هكذا الكتاب المساكين ، دائما يعملون من وراء ستار ، بل أحيانا ستائر كثيفة ، ودائما أسماؤهم أشهر من أشخاصهم ، وأدوارهم لا تعرف قيمتها الحقيقية الا بعدما يرحلون عن هذا العالم الى الابد ٠٠ .

وأنا لا أحب في العادة لقاء الكتاب الاجانب أو المشهورين حين أسافر ٠ ذلك انى اعلم تماما أن الفنانين الاصلاء غالبا ما يكونون منطوين على أنفسهم لا يحبون أن يفتحوا ذواتهم لاغراب ، وأكثر ما يضايقهم أنهم ما يكادون يلقون أحدا الا وينهال عليهم بأسئلة واستجوابات ، يتعلمون من أجلها ابتسامات المجاملة التقليدية ، وتدفعهم شدة ادبهم أحيانا ، معظمهم مؤدبون ، الى أن يضغطوا على اعصابهم كي يجيبوا وأمرهم الى الله ٠ صحيح أنى قابلت الكثير منهم ، ومن الكبار أيضا ، سارتر (ذلك الذى لم أرد أن أراه أبدا في القاهرة حين جاء) قابلته بالصدفة المحضة في مطعم شبه شعبي في باريس ، وقبل هذا كنت قد قابلته أيضا

فى فيينا فى مؤتمر للسلام ، وقابلت معه هناك ايليا اهرنبورج ، وسيمون دى بوفوار ، قابلت بالصدفة أيضا ، اوسبورن وبنتر فى انجلترا ، وايفنشنكو وسيمونوف وناجيبين (الذى كتب مقدمة لبعض كتبى التى ترجمت الى الروسية) • قابلت كثيرين ربما لا أذكرهم الان فى ايطاليا واليونان وتركيا ، ولكن المهم ، رغم رغبتى الشديدة أحيانا فى اللقاء ، الا انى أبدا ، وللسبب الذى ذكرته لم أسع أبدا للقاء • حتى كتابنا المصريين الكبار لم أشأ أن القاهم الا بعد أن اكتب وانشر فالمهم هو (كارت) الزيارة الحقيقى ، الانتاج ، أما شخصية الكاتب فربما لا تكون هى خير ما عنده • وربما لاجل هذا أيضا كنت أتحاشى لقاء الكتاب فى أوروبا وامريكا ، فأنا أعرف انتاجهم ولكنهم هم لا يعلمون الا القليل جدا عنا وعما نكتب ، ولهذا فسوف يكون الحوار دائما من جانب واحد ، وهذا أمر يدفعنى دائما الى الخجل •

ولكنها الصدف ، وأحيانا المؤتمرات ، وشكرا للندوة التى عقدها نادى القلم الدولى فى نيويورك والذى دعيت لحضورها منذ بضعة أشهر ، وكان يرأسها ارثر ميللر ويديرها الروائى الامريكى ، أو أهم روائى امريكى معاصر : جون ابدايك • شكرا للندوة فقد أتاحت لى ، دون سعى ، أن أقابل عددا من الاسماء التى كنت أقرأ لها ولا أعرفها ، وفى نفس الوقت أتاحت لها أن تعرف شيئا عن الادب العربى لم تكن تعرفه •

وفى الحقيقة كان لقائى بميللر عاصفا هكذا شاءت الظروف فقد ألقى ميللر فى كلمة الافتتاح خطابا قصيرا كاد يملؤنى بالغضب • فقد كان تساؤلا غريبا عن أهمية ودور الكلمة فى عالمنا المعاصر كاد ينتهى فيها الى ان الكلمة لم يعد لها دور ، أو اذا كان لها دور فهو ثانوى تماما وبلا أى فاعلية • وبالصدف المحضة كنت قبل سفرى قد كتبت فى هذا الباب مفكرة بعنوان : لماذا لا نزال نكتب • كانت انطباعا كله ايمان بأنه لم يعد حقيقى فى هذا العالم الا الكلمة الصادقة الطيبة الكلمة التى تغير لانها تصدر عن متغير ، التى تؤثر لأنها تصدر عن متأثر ، التى تميت وتحيى لانها صادرة عن انسان يأخذ قضية قولها وكتابتها مسألة حياة أو موت •

كنت قد اعددت كلمـــة فى الافتتــاح ، ولكن حين جـــاء دورى نحيت الكلمة جـانبا ، ورددت من وحى اللحظة على ميللر ، ولا أدرى لماذا تحمس الحاضرون كثيرا لما قلتـه ، حتى ان الجرائد فى اليـــوم التـــالى نشـــرت المســـألة وكأنها مشــكلة • كل ما فى الامر ان الظـــروف كانت تخبىء لى مفاجأة ، فقـد كان مفروضا أن نتناول الغداء ـ بعد الافتتاح ـ فى ناد لا اذكر اسمه الان • وجاءت جلستى بالصدفة بين أرثر ميللر والروائى جـــون ابدايك • وتحدثت مع أبدايك اذ كان قد زار القاهرة وكتب عنهـا قصة حاولت أن اناقشه فيها فبدا عليه بعض الانزعاج وقال لى أنها قصة (غريبة) وهو استعمال مخفف لما تحويه القصة من تصـوير لجو خاص شاذ لم أكن أعرف أن له وجودا فى قاهرتنا العزيزة • وتدخل ميللر فى الحديث مبديا رغبة قديمة لديه أن يرى القاهرة ، وهكذا نشأ حوار ثلاثى عن الموضوع الذى اثير فى الصباح عن دور الكلمة • ودعنى ميللر لزيارته فى مزرعته التى تبعد عن نيويورك ثلاث أو أربع ساعات ؛ ولكنه كان كريما فى اليوم التالى ودق لى تليفونا يطلب فيه أن يكون اللقاء فى مكتب ناشره فى نيويورك حتى لا يكبدنى مشقة الانتقال الى بيتـه البعيد • كان شاعرنا العـربى أدونيس حاضرا فاتفقنا ان نذهب معا •

وكما قلت قبلا فان حمـاسى للفكرة لم يكن كبيرا ذلك أنى لا أومن باجراء هذه الاحاديث الكتابية أو الصحفية ، وخاصة اذا كانت من جانب واحد ، أنى أقرأ الكاتب وأحاســـبه على ما يقوله هــو انتاجا ومن تلقاء نفسه ، وليس بناء على الحاح أو ســؤال • ولكن ثمة حب استطلاع كان يدفعنى لهذا اللقــاء ، أو بالاصـــح ، حب استطلاعين أحدهما كبير ولكنه غير مهــم وهو مناقشة المشـــكلة المسرحية فى العالم الان ، والاخر صغير ولكنه هام بالنســـبة لى كرجل وهو أن أعرف أرثر ميللر من قـــرب ، وأعرف بالذات كيف اختارته مارلين مـونرو ، رمـــز الجنس فى القـــرن العشرين ، لتتزوجه ، تلك التى صاحبت دون جوانات ، ورؤساء جمهوريات ، وسناتورات ، ماذا أغــراها فى هذا الكاتب المسرحى حتى لو كان ميللر لتختاره وتعاشره • مشكلات المسرح أعرفها ولى رأى فيهـــا ولا أعتقد أن رأى ميللر سيغير من رأيى كثيرا • ولكن هذا الاختيار

محير لى تمـــاما . حيرنى حين قرأت عنه ، وحـيرنى وأنا أتابع حياتهما معا ، ثم انفصالهما ، ثم هـذه المسرحية التى كتبها ميللر عن تلك العلاقة وأسماها : بعد السقوط .

★ ★ ★

يقع المكتب ـ مكتب الناشر أو بمعنى أصح الوكيل ـ حبذا لو أصبح لنا فى بلادنا العربية وكلاء يتولون عن الكتاب والفنانين كل المهام التى لا يجيدها أبدا أى كاتب أو فنـــان ومهمة الطبع والنشر والاتفاق والمطالبة بالحقوق . يقع المكتب فى الدور الخمسين ربما من عمارة هائلة الارتفاع فى قلب نيويورك .

وفى غرفة اجتمـــاعات تقليدية كراسى عالية الظهور . حيانا ميللر وحـاول أن يسـتعمل فرنسـيته مع ادونيس الذى لا يتكلم الانجليزية ، وسـألنا عن انجليزيتى وأين تعلمتها وأستغرب تماما أن أكون قد اجدتها على ايدى مدرسين مصريين . وشكرا لجهـاز التسجيل الذى سـجل المحـاورة والا لكانت قد ضاعت من الذاكرة تماما . وبما أن المسألة كانت لقاء حوار فقد وجدت أن على أن أخذ صفة السائل ، وهانذا أورد نص الحوار .

أنا ـ اعذرنى يا مستر ميللر ولكن ظاهرة الكتـابة للمسرح تحيرنى دائما ، أنا أعرف أن من يحب المسرح يحب بالدرجة الأولى أن (يمثل) و يتقمص أو على وجه أصـح (يظهر) على خشــبة المسرح ، ولكن هذا الكاتب أو ذاك لماذا يحب أو يكتب للمسرح وهو دائما خلف ستار أو داخل (كمبوشته) الخاصة .. بمعنى آخـر أن تكتشف نفســك ككاتب شىء أما أن تكتشف أنك تريد الكتـــابة للمسرح فتلك قضية اخرى . متى حدث لك هذا وكيف ؟

بصوته العريض الاجش ، وبقامته المنتصبة فوق الكرسى ذى المسند العـــالى وبطريقته التى تشــبه طريقة الفلاحين الصرحاء الاقوياء ، قال :

ميللر : أستطيع أن اخبرك كيف حـدث هذا . كنت طالبا فى جامعة متشجان فى سنة ١٩٣٠ أو ٣٥ أى منذ مائة عام (قالهـــا

دون أن يضحك وضحكنا نحن) . كانت لدينا أجازة لمدة أسبوع ، وفى ذلك الوقت تكون الجامعة كلها فى اجازة . وكنت فى السنة الاولى فى الجامعة ولكنى قبل الالتحاق بها كنت قد اشتغلت كعامل فى نيويورك ثم كسائق تراكتور وأيضا فى مصنع صغير وكجرسون فى مطعم فقد كان على أن أوفر النقود التى تمكننى من دخول الجامعة ، وحين جاءت الاجازة قررت لسبب مادى محض أن أجرب كتابة مسرحية . ذلك أن جامعة متشجان كانت تعقد فى ذلك الوقت مسابقة سنوية فى القصة القصيرة والمسرحية ويعطون للفائز مبلغا من المال . فى تلك الايام كانت أمريكا تمر بأزمة أقتصادية شديدة وكان الحصول على النقود أمرا صعبا للغاية .

● ولكن ... لماذا اخترت الدخول فى مسابقة المسرحية بالذات ؟

ميللر ـ لا استطيع الان أن أحدد بالضبط ولكن ربما اعتقدت أنها الأسهل فى نظرى مع أنه لم تكن لدى أى فكرة عن كتابة المسرحية . ربما اخترتها اختبار غريزيا فلم أكن قد دخلت المسرح أكثر من ثلاث مرات فى حياتى كلها ، ولم أكن قد عرفت أو قابلت ممثلا أو أحدا ممن يعملون بالمسرح . بل حتى لم أكن أعرف ما هو طول الزمن الذى تستغرقه أى مسرحية . (! !) ولكن لانه كان أمام مسكن الطلاب فى الجامعة شخص يقوم بصنع الملابس لمسرح الجامعة ومسرحياته ، فلقد ظللت أكتب لمدة يومين أو ثلاثة ثم ذهبت اليه لاسأله : ما هو الوقت الذى تستغرقه أى مسرحية . قال لى : حوالى ساعتين . وهكذا عدت الى حجرتى وأحضرت ساعة ورحت أقرأ ما كتبته فوجدته تقريبا حوالى ساعتين . وهكذا قدمت المسرحية فى المسابقة ، ولم أحصل على الجائزة الجامعة عنها فقط ولكنى حصلت على أكثر من خمس جوائز أخرى أيضا .

● النقود أيضا ..

ميللر ـ وأيضا للمتعة فقد كانت الكتابة أيامها شيئا عظيما وممتعة مثل الذهاب الى صالة الجمنزيوم .

● هل طبعتها بعد هذا ·

ميللر ــ لا ·· ولكن أعجبتنى المسألة فرحت أكتب كل عــــام مسرحية ·

● وهل مثلت بعض هذه المسرحيات ·

ميللر ــ أجل · فى متشجان ·

● وكيف كان احساسك بكلماتك وهى تخرج من أفواه الممثلين تحمل معانيك وجملك ·

ميللر ــ كان انفعالى هائلا فقد اعجبتنى الطريقة ، طريقــة ان اكتب الخطبة ·

● الخطبة ؟

ميللر ــ أجل ·· ان الكتابة للمسرح هى فن كتــابة الخطب الرنانة الجوفاء وانما الفن المخطوب · فالكتابة للمسرح هى اساسا فن شفوى للاذن وليس للعين ·

● ولكنهم الان يحاولون ان يجعلوها فنا للعين أيضا ·

ميللر ــ ولكن هذا خطأ ·

● سنأتى لهذا بعد برهة ·

ميللر ــ معك حق ·· هو فن للعين أيضا ولكنه أساسا للاذن · أن شكسبير هو الموسيقى · يمكنك أن تقــرأ الموسيقى ولكن الاروع دائما ان تسمعها ·

● اتسمح لى أن نقفز قفزة صغيرة · كتــــاب المسرح دائمــا محبون للاستطلاع فيما يختص بتجارب الاخرين فى كتابة المسرح · دعنا نأخذ مسرحيتك (وفاة بائع متجــول) ·· بالطبع أن مسرحيتك الاولى (كل أولادى) تتبع حقبة زمنية لاحقة ، ولكن فى وفاة بائع

متجول ، تغيير فى الشكل المسرحى · هل أحسست بحاجتك الملحة الى هذا التغيير فى الشكل ؟

ميللر ـ بالطبع وبوعى أيضا ·

● لماذا ؟

ميللر ـ لان لى غريزة الاهتمام بالماضى وكنت أريد أن أجعل الماضى حيا فى نفس اللحظة التى نحيا فيها الحاضر · مشكلة تداخل الزمن كما تعرف · لكى أحيل كل شىء يقع فى نفس الوقت بحيث يصبح الجمهور بالتدريج يدرك أحداث أربعين عاما مضت فى نفس الوقت الذى يدرك فيه الاحداث التى تقع أمامه مباشرة · وهكذا اكتشفت تلك الطريقة لكى أحل هذا الاشكال الزمنى ، أنى حينما أرى الرجال الكبار أراهم أيضا حين كانوا أطفالا · وحين أرى الاطفال أحاول أن أراهم أيضا وفى نفس الوقت حين يصبحون كبارا · ان التاريخ مهم جدا · تاريخ البلاد · تاريخ الانسان ·

● نعم ·· ولكنى أعتقد أن هذا راجع الى الفلسفة الجدلية التى كنت ترى بها الانسان ·

ميللر : تستطيع أن تقول هذا أيضا ·· فأنت لا تستطيع أبدا أن تفهم أمريكا مثلا الا اذا عرفت تاريخها ، وهكذا بالنسبة لى أو لك أو لاى انسان · أن المجتمع الحاضر هو فى الحقيقة التعبير الاتى عن تاريخ هذا المجتمع · لا يمكن أن تعرف ما يحدث الان الا اذا عرفت ما حدث منذ عشر سنوات مثلا أو عشرين سنة ·

وليس ما حاولت عمله جديدا على أية حال · لقد حاول ابسن أن يفعل نفس الشىء وشكسبير حاول · ولكن هناك طرقا متعددة ، للوصول الى الهدف · لقد حاولت أنا أن أجعله يحدث أمامك وليس أن أرويه أو (أتكلم) عنه · كله فعل درامى أمامك (الان) ·

● ولكنى اعتقد أن هذا لابد أن يستتبعه اداء مسرحى خاص ·

فالممثلون دائما يؤدون الدور كما هو حادث (الآن) وليس بمـا لهذه الادوار من تاريخ حى واقع ·

ميللر ـ أنه مثل عزف لسترافسكى · تكون هنـــا وهنـاك فى نفس الوقت · كل الالات تعـــزف فى نفس الوقت · ان تركيز الممثل لابد ان يكون فائقا جدا · وبمناسبة الاوركسترا ، اتعرف أن حلمى الاكبر كان ان أصبح مغنيا · انى أملك صوتا جميلا جـــدا كما ترى (ولسوء الحظ لم أكن أرى) ·

● ولماذا هجرت الغناء الى الكتابة ·

ميللر ـ كان الغناء يتطلب عملا كثيرا جدا وأيضا كان لدينا مغنون كثيرون وكانوا ، وهذا اعتراف ، أحسن منى ·

● مستر ميللر أتعرف أن حســـا كوميـــديا تخبئه دائما فى تراجيدياتك مثل كل أولادى ووفاة البائع المتجول ولكنه بدأ يظهـر أخيرا فى انتاجك ·

ميللر ـ هذا صحيح · اتعرف ان أول شىء كتبته فى حياتى كان قطعة ساخرة كتبتها فى سن الخامسة عشرة ، كنت فى ذلك الوقت أقيم مـع والـدى وكنت فى المدرســة الثـانوية · لم يكن التليفزيون هناك بعد وكانت وسيلة التسلية الأولى هى الراديو · وفى اذاعات تلك الايام كان هناك معلق سياسى اخبارى يجـــوب بتعليقاته العـالم كله بأزمانه وبلاده المختلفة ، وكان كل النـاس يصغون اليه باهتمام بالغ فقد كان يتحدث بطريقة خطابية جـــادة ترغمك على الاصغاء باحترام ، ولكنى انا كنت أراه عبيطا تماما وكان يجعلنى احس انى أود كلما سمعته أن انفجر ضاحكا · فى نيويورك فى تلك الايام كانت هناك الازمة الاقتصادية الطاحنة كما ذكرت لك ، وكان فى برامج الراديو ركن للهواة كل أسبوع يحدث فيه تنافس بين الهواة من عازفين ومغنين وكتاب برامج وكان الفائز يربح بضعة دولارات · ولقد دفعتنى الحاجة أن أجرب حظى فكتبت قطعة أسخر فيها من هذا المعلق · وذهبت الى المسئولين عن البرنامج واعطيتهم القطعة فأخذوها وقالوا لى سنتصل بك · ولكنى لم أسمع

عنهم أبدا · غير انى ذات ليلة بعـد شهرين أو ثلاثة فتحت الراديو ففوجئت بممثل كوميدى مشهور جدا فى ذلك الوقت يؤدى شيئا ، وفجأة أدركت أن الكلمات كلماتى وانها هى نفسها القطعة التى أخذوها منى فى ركن الهواة · لقد سرقوها ·

وهكذا كان أول لقاء لى مع الحركة الفنية فى نيويورك ·· انهم سرقونى ، وربما لا يزالون ·

● دعنا نقفز قفزة أخرى أكبر هذه المرة يا مستر ميللر · لقـد بـدأت ككاتب ملتزم تمـاما فى (كلهم أولادى) و (وفـاة بائع متجول) ، فما هو موقفك الان · الا تزال ملتزما · وما هو بالضبط كنه التزامك الان ، وقبل من · أم هل عدلت عنه ؟

ميللر ــ بالطبع الان المسائل تبدو أكثر تعقيدا مما كانت تبدو فى تلك الايام · المجتمـع الان معقد جـدا ·· والمشكلة الاساسية هى ان تجد بعض الأمل وبعض الرمز للامل · فى شبابى كان هناك خطر النـازية والفاشية وكان هـذا يجسـد الشر فى رمز واضـح وصريح · الان من الصعب أن ترمز للشر برمز واحد · وهكذا من الصعب ان نقول فى جملة واحدة ما هى المشكلة الان فالمشـاكل كثيرة جدا · ان بلادنا الان (أمريكا) تجتاز مرحلة تطور هـائل وتتغير بسرعة شديدة ·

ملحوظة : أحسست ان الفلاح العجوز ذا الصحة الجيـدة تماما يحاول أن يزوغ من الاجابة الصريحة الواضحة ، وحاولت بحسن نية شديد ان اتتبعـه ·

● تتطور الى ماذا يا مستر ميللر ؟

ميللر ــ لا أحد يستطيع الجزم الى أين وأى انســـان يزعـم لنفسه أنه يستطيع فهو ساذج جدا · أنت لا تستطيع الجـــزم الى أين · أحيانا تستطيع أن تقول اننا نسير الى اليمين بشدة وأحيانا أخرى أشعر أننا أصبحنا أكثر حرية من أى فترة اخرى من فترات تاريخنا · حقيقة عندنا الان كم كبير من الحرية ·

● أتعتقد حقا أن هناك الان حرية فعلا فى أمريكا ؟

ميللر : بالتأكيد نعم . هناك حـــرية أكثر من الماضى . وفى نفس الوقت (الكاتب المسرحى يلعب الان) فإن المؤسسات الهـائلة والمال الكثير نفوذهما أيضا يتعاظم .

● حسن جدا . كمـا فى الدراما . لقـــد حددنا الان طرفى الصراع ، الحرية أكثر ونفوذ المؤسسات أعظم ، فما هى محصـــلة القوى فى رأيك ؟ والى أين تتجه الريح ويتجه المستقبل ، هل ، الى مزيد من نفوذ المؤسسات أم مزيد من الحرية للمواطن .

ميللر : هذه هى المشـــكلة . بالضبط كما حددتها هذه هى المشكلة . ان من الصعب تماما على المواطن الان أن يكون مســتقلا تماما عن هذه المؤسسات مثلما كان باستطاعته أن يفعل فى السنين الماضية . المحلات الصغيرة تغلق ، اصحابها يتحولون الى عمال وموظفين فى المؤسسات . الاستقلال حلم صعب المنـال . ولكن فى نفس الوقت فان موقف الناس فى أوجه كثيرة قد تحـــرر عن ذى قبل . انهم لا يطيعون الان بسرعة ولا يخضعون بسهولة ، ويميلون الى التشكك فى مصدر الاقوال والافعـال ، باختصار لا يصــدقون الان كل شىء يقال لهم بسهولة .

بصعوبة ونعومة كان ميللر يقود الحديث الى خارج منطقــة المواجهة المباشرة والاحتكاك . ولكنى كنت لا أزال مصرا أن أعرف رأى هذا الكاتب العملاق (قيمة وجسدا) فى بلده وموقفه منهـــا اليوم ، والموقف بالنسبة لى صعب ، فاللعبة بالحوار أصبحت أسخن ونحن أصبحنا أكثر اندماجا ، ثم لا ننسى أنه ميللر ذلك الذى كان من أوائل من قرأت له من المسرحيين ومن بعد سـتة آلاف كيلو كنت أتحمس له وأتخيله ، ناهيـك عن موضوع مارلين مونرو .

عن كامل الشناوى :

حين صدر ديوان « لا تكذبى » اتصل بى صديق العمر المرحوم كامل الشناوى وأخبرنى أن لى نسخة عنده عليها أهداؤه ورجانى أن أمر عليه لنشرب القهــوة ، ونتحدث ، وأخذ الديوان · ونحــن أحيانا نتصرف بغرابة لا نعرف مصـــدرها ، فديوان « لا تكذبى » لم يكن مجرد ديوان ، ولكنه كان ثمرة لجهود متصلة طويلة بذلها كل أصدقاء كامل الشناوى ليحملوه على جمع شعره لتضمه دفتـــا كتاب ، وكنت شخصيا شديد الحمـــاس للفكرة ، ما من مرة قابلت كامل الشناوى فيها الا وذكرته بها ، وما من مرة أوصلته الى بيته قرب الفجر أو قرب الصباح الا وطلبت منه ، كرجاء أخـــير ، أن يفكر جدياً فى اصدار الديوان ، ولم يكون يوافقنى فى بعض الاحيان الا تخلصا من الحاحى فقد كان يعارض دائما فكرة أن يصدر كتابا أو يكون له كتاب رغم انه فى حياته الادبية والصحفية كتب أشعارا ومقالات وأحاديث وخواطر لو جمعت لكسب الادب العربى أربعـــة أو خمسة كتب هى من خير ما كتب فى النثر أو الشعر العربى ·

كان يعارض لانه كان ـ من فرط تواضعه أو طموحه ـ يعتقد أن أعماله غير جديرة بوضعها فى كتاب ، فالكتاب فى رأيه لم يكن

مجرد أن تصدر كتابا مثلما يفعل مئـات محترفى وهواة اصـدار الكتب ، الكتاب فى رأيه كان شيئا مقدسا يذكرك بالكتب التى غيرت من مجرى التاريخ وصنعت تقدم الانسان · الكتاب عنده كان مرادفا للرسالة الكبرى ، للاختراع الخطير أو لاكتشـاف قانون من قوانين العلم أو الحضارة ·

باختصار كان يرى أن الكتاب هو الشىء الذى لا يمكن أن تظل نفس الشخص بعد قراءته انما لابد باستيعابه أن تتغير وتؤمن بشىء لم تكن مؤمنا به أو تكفر بشىء كنت شـــديد التعلق به والايمان · وكان يسأل : أتعتقد أن مجموعة أشعارى لو صدرت يمكن أن تكون ذلك الكتاب ؟ ·· وكنت أعارضه بقولى ان طموحه هذا شىء جميل ولكنه ضد المنطق وضد الحياة ، فالحيـاة أبدا لا تتطور بالطفرة ، انما التطور يأتى بالتدريج الشديد ، وحتى أصحاب الاكتشـــافات العلمية لا تأتى اكتشافاتهم أو قوانينهم طفرة ، ان العالم مجــرد انسان فذ فى طابور طويل ساهم كل منتظم فيه باضافة صغيرة تمهد الطريق لمن يتلوه كى يضيف هو الاخر اضـــافة أخرى صـغيرة ، وهكذا ، وبتراكم هذه الاضافات ينشـــأ القـــانون وتتغير النظرة ويتطور الانسان · وليس المطلوب من أى كتـــاب الا أن يغير ليس ايمانك أو رأيك كله وانما جزءا صغيرا من الرأى أو الايمان ، تكفى أحيانا نقطة واحدة تتغير فى وجهة نظرك ليكون الكتـــاب قد أدى رسالته على الوجه الاكمل · ونشر أشـــعاره أو انتاجه النثرى فى كتاب أو فى كتب لا يزعم أحد أنه سيغير بين يوم وليلة من مفهــوم الناس كلية وانما يكفى أن يتيح لهم فرصة تذوق شعره أو استيعاب ارائه ومعايشة فلسـفته ، فكامل الشـناوى كان انســـانا متكاملا وظاهرة ، وان كانت متعـــددة الجوانب الا ان كل جانب يضـيف الى الاخر بحيث نجد أنفسنا فى النهاية ليس أمـــام شخص وانما فى الحقيقة أمام موقف شناوى أصيل من الحياة ·· لا لم تكن له فلسفة عمر الخيام وان حفلت بها روحه ، ولم يكن له تشاؤم المعرى وان استعارها بعض الاحيان ، ولا وجوديا يعيش اللحظة بلحظتها ولا ماركســـيا يؤمن بحتمية التطور الى الاعلى والاحسن · كان مزيجا غريبا من هذا كله بحيث حين تقرؤه تحس أنه أكثر المتشائمين

تفاؤلا وأشد الخياميين والمعريين زهدا فى الحيــــاة ، الواقف من حتمية التطور الى الارقى والاحسن موقف الشاك المتشـــائم ذلك المؤمن بالحياة الى درجة اليأس الكامل منها ٠

نعود الى « لا تكذبى » فبرغم خماسى للديوان ولحصولى عليه فى النهاية وبموافقته الا انى لم أذهب فى اليوم التالى لاخذه كمـا اتفقنا لا ولا فى اليـوم الذى بعــــده ، وظلت النسخة المهداة الى والموضوعة فى ظـرف مكتـــوب عليه اسمى بخط يده حتى فوجئت بابن أخيه الشاب فاروق الذى كان يقطن معه فى أعوامه الاخـيرة يحمل الى المظروف بعد شهر من الوفاة وقد وجده بين أوراقه ٠ ولكم أن تتصـــوروا مبلغ فجيعتى وأنا أقرأ اسمى بخطة ، ثم وانا افتح المظروف وأجــد كلماته الرقيقة الحنونة الانيقة موجهة الى تحمل ، الى جانب ما كان يسبغه علينا دائما من ألقاب عطف وتشجيع ، ذلك التعبير الذى احترت فى تفسيره (الى الواهب الموهوب) ، لكم أن تتصوروا مبلغ احساسى به ويده الابوية الاخـوية الحبيبة تمتد من وراء القبر وعالم النهاية وتحمل الى اهداءه ٠٠ كالتحية الحيــــة الطازجة وتحمل سؤاله ، سؤال الطفل الكبير أمام الوجود الاصـم المــارد ٠

قـــــــدر أحمــــــــق الخطى
سـحقت هـــــامتى خطـــــاه

دمعــتى ذاب جفنهـــــــا
بســــمتى ما لهـــا شـــفاه

صــــحوة المـــــوت ما أرى
أم أرى غفـــــوة الحيـــاة

سؤال وكأنه به يقرأ من كتـــاب مفتوح ويعرف أنه فى أيام صدور ديوانه كانت حقيقة صحوة الموت ، وصدقا كانت غفــــوة الحياة ، ولكنها الغفوة التى لا صحوة منها ٠

فى ذكراه التى اقتربت هأنذا أعــــود الى مطـالعة ديوانه ،

الى ذلك الجزء الذى بقى وسيبقى حيا من كامل الشناوى ، أعود وثمة خاطر قوى يلح على ولا يهيب بى وحدى وانما بكل الكماليين الشناويين ، وما أكثـرهم ، أن نتيح الحياة لاكبر قـدر من كامل الشناوى ، ألا نجعله يموت مرتين ، ميتة ربه مرة وميتتنا نحن مرة أخرى ، نتكاسل عن جمع أعمـاله ، ومعظمها يتشرف بأحتوائه أى كتاب ، ونصدرها لنجعله يعيش مرتين ، مرة فينا ـ وفى كل منـا جزء حى وخالد من كامل الشـناوى ومرة فى كتبه كى نقـرأها وتحياها الأجيال الحاضرة والقادمة ، ان لكامل الشناوى فى رقاب أصدقائه ديونا لا تعد ، وألف يد بيضا له لابد أنها تتؤرق مئـات الضمائر ، فلنصنع شيئا ليس لضـمائرنا كى تستريح ، ولا حتى لكامل الشناوى كى يخلد ، وانما للادب العربى نفسه ، للتـاريخ اذى سيحاسبنا ، لو ضيعنا آثاره ، حسابا عسيرا ٠

مؤلفـات الدكتور يوسف ادريس

(أ) مجموعات قصص قصيرة

١ ـ أرخص ليـالى (طبعــــة أولى) ـ الكتـــاب الذهبى ـ روز اليوسف (نفد)
(طبعة ثانية) دار النشر القومية (نفد)
(طبعة ثالثة) دار الكتاب العربى
(طبعة رابعة) دار العـودة

٢ ـ جمهورية فرحات وقصــة حب (طبعـــة أولى) الكتـــاب الذهبى ـ روز اليوسف (نفد)
(طبعـة ثانية) دار الكتاب العربى

٣ ـ أليس كذلك (طبعـة أولى) مركز كتب الشرق الأوسط
(طبعـة ثانية) (باسم قاع المدينة) مركز كتب الشرق الأوسط
(طبعـة ثالثة) (باسم قاع المدينة) دار الكتاب العربى

٤ ـ البطـل (طبعـة وحيدة) دار الفكر (نفد)

٥ ـ حادثة شرف (طبعـة أولى) دار الآداب ـ بيروت (نفد)
(طبعة ثانية) الأعمال الكاملة الجزء الأول عالم الكتب

٦ ــ آخر الدنيا (طبعة أولى) ــ الكتاب الذهبى ــ روز اليوسف (نقد)
(طبعة ثانية) الأعمال الكاملة الجزء الأول ــ عالم الكتب
(طبعة ثالثة) دار العودة

٧ ــ لغة الآى آى (طبعة أولى) الكتاب الذهبى (نقد)
(طبعة ثانية) الأعمال الكاملة ــ جزء أول ــ عالم الكتب
(طبعة ثالثة) دار العودة

٨ ــ النداهة (طبعة أولى) دار الهلال (روايات الهلال) (نقد)
(طبعة ثانية) باسم مسحوق الهمس ــ دار الطليعة ــ بيروت
(طبعة ثالثة) دار العودة

٩ ــ بيت من لحم (طبعة أولى) عالم الكتب
(طبعة ثانية) دار العودة

١٠ــ أنا سلطان قانون الوجود (طبعة أولى) مكتبة غريب .

(ب) المسرحيات

١١ــ جمهورية فرحات وملك القطن (طبعة وحيدة) دار النشر القومية (نقد)

١٢ـ اللحظة الحرجة (طبعـــة وحيدة) الكتاب الفضى (نفد)

١٣ـ الفرافير (طبعـــة أولى) دار الجمهورية (نفد)
(طبعـــة ثانية) سلسلة مجلة المسرح (نفد)

١٤ـ المهزلة الأرضية (طبعة أولى) سلسلة مجلة المسرح (نفد)

١٥ـ المخططين (تحت الطبـــع) (نشرت بمجـلة المسرح عدد مايو ١٩٦٩)

١٦ـ الجنس الثالث (طبعـــة أولى) عالم الكتب

١٧ـ نحو مسرح عربى (المسرحيـات الكاملة ليوسف ادريس مـع دراســة عن أصــالة المسرح المصرى والعربى) دار الكتــاب العـربى ـ بيروت

(جـ) روايـات

١٨ـ الحرام (طبعـــة أولى) الكتاب الفضى (نفد)
(طبعة ثانية) دار الهلال (نفد)
(طبعـــة ثالثة) دار العودة

١٩ـ العيب (الطبعة الأولى) الكتاب الفضى (نفد)
(الطبعة الثانية) مكتبة غريب

٢٠ـ رجال وثيران (طبعــة أولى) هيئة النشر (نقد)
(طبعــة ثانية) دار العودة

٢١ـ العسكرى الأسود (طبعــة أولى) دار المعرفة
(طبعــة ثانية) دار العودة

٢٢ـ البيضــاء (طبعــة أولى) دار الطليعة ـ بيروت

(د) خواطر وانطباعات

٢٣ـ بصراحة غير (طبعــة أولى) كتاب الهلال
مطلقــة (طبعــة ثانية) دار العودة

٢٤ـ اكتشاف قارة (طبعــة أولى) كتاب الهلال

٢٥ـ مفكرة د٠ يوسف (جزء أول) مكتبة غريب بالفجالة
ادريس

٢٦ـ مفكرة د٠ يوسف (جزء ثان) مكتبة غريب بالفجالة
ادريس

محتويات الكتاب

الموضـــــوع — الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب ٢١٠٩
الترقيم الدولى ٥ ـ ٦٨ ـ ٧٠٧٥ ـ ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شـارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

مكتبة غريب
٣٠١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

الثمن ٨٥ قرشـــا

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

